



رواية

# دولة العفريت

فؤاد قنديل

مكتبة دار العربية للكتاب





# دولة العقرب

رواية

فؤاد قنديل

مكتبة دار العربية للكتاب

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية  
انضموا لجروب ساحر الكتب  
fb/groups/Sa7er.Elkotob/  
sa7eralkutub.com  
او زيارة موقعنا

إليها فقط.. وليس إلى سواها الحرية

إذا لم أكن حرًا فكل نقطة دمٍ أو عرقٍ تراق من أجل أي عمل هباء..  
وكل دقيقة أفضيها لإنجاز أي شيء بلا أية قيمة..

وكل حلم أحلمه وأمل أرجوه ويتحقق لا جدوى من ورائه..

وكل مُنتج أيا كان نوعه سراب

إلا إذا كان في سبيل الحرية..

الحرية.. السر الأول والمجهول للكون..

كثيرون لا يدركون أن كل حركة على الأرض كانت في الأصل سعيًا  
للحرية، حتى الرسائل السماوية والأرضية.

لو لم أكن حرًا فالحياة بلا أي معنى..

وكل من يستعبدني يومًا إلى زوال حتى لو كان أعنى الجبابرة..

كل الكائنات تسعى إلى الحرية حتى الديدان والبكتريا،

إلا الآلاف من البشر الذين أرجو أن يتقبلوا ازدرائي..

أنا موجود فقط.. فقط... عندما أكون حرًا.

ناجي الورداني  
سجن العقرب

العروس المزينة بالبهجة والمجد والتاريخ والحب والشعر والتي يرقص لها البحر والموسيقى والشباب والعشاق .. الإسكندرية المدينة العامرة بأعلام الصوفية وأولياء الله الصالحين والعباد والثوار والمارقين والحكاثين والرحالة وكل من يتمدد على شواطئ بحيرة المتوسط على مدى يزيد على ألفي عام من الإسكندر حتى الشابين المهذبين الحاليمين خالد سعيد وسيد بلال اللذين عبّدا الطريق بالغضب لثورة يناير المصرية في 2011.

في الإسكندرية تنافست ثلة من الجنود بكل إخلاص في الدفاع عن هيئة الدولة والقانون عندما انهالوا ضربًا على خالد سعيد في مقهى إنترنت بحجة الإمساك به متلبسًا بتعاطي مخدر الحشيش .. حضر صاحب المقهى واعترض وطلب منهم مغادرة المقهى فهو مكان للرزق كما لا يصح الاعتداء على شخص بريء بهذه الطريقة .. على مضض وبملامح متقززة خرجوا وفي حوزتهم الشاب صاحب الوجه البريء إلى منزل مجاور حيث أوسعوه لكمًا حتى تحطم فكه وتناثرت أسنانه وتدلّت على جباههم وخدودهم المتشنجة وأعناقهم المتصلبة عناقيد العرق مثل قنوات رفيعة من مياه باحثة عن مساربها

وهي تتلوى هابطة من فوق جبال عالية وصخرية.. كان ظنهم أنه دس المخدر في شذقيه محاولاً ابتلاعه. يجب أن يعثروا عليه لينالوا رضا الضابط الذي أمرهم بإحضاره فثمة اشتباه في تعاطيه. أما سيد بلال السلفي ذو اللحية الكثيفة فقد مال الضباط إلى الشك في أنه من فجر كنيسة القديسين فقبضوا عليه ودقوا عظامه حتى فارق الحياة.. من يتعرض لأي اشتباه يفقد على الفور بشريته في نظر الشرطة. لا يدري أحد بالضبط السر في أن الغيظ ينهش قلوب الجنود الذين لا تعنيهم القصة برمتها.. لكنهم يندفعون في الضرب والتمزيق والكسر خاصة عندما لا يبدي المشكوك في أمره قدرًا كافيًا من الاحترام للجنود الملائكة الذين يتولون حماية الوطن والأخلاق.

لم يعرف أحد لماذا اختفى رضا هلال الصحفي الجسور الذي مضى لسنوات يكتب ويصرح ويتكلم في كل محفل ضد النظام الحجري المتماسك، وقد فاته أن الجسارة اعتادت أن تتقاضى ثمنًا باهظًا من صاحبها في العهود التي لا يكون للإنسان فيها أي ثمن.. أين اختفى وكيف تلاشى على هذا النحو المريب؟.. لماذا تقطعت كل السبل التي كانت تحاول الوصول إليه؟. كلما اجتهد أحد من أهله أو أصدقائه لبلوغ الحقيقة أقيم فجأة جدار عازل يشع تهديدًا وينفث نيران العقاب المنتظر!!.. أما حالة صديقي المناضل عبد الحكيم سلامة فقد اكتفوا بتحطيم عظامه جميعًا وطعنه نحو عشرين طعنة بعيدًا عن قلبه ثم تخليصه من كل ملابسه وإشعال النار فيها وتمزيق أوراقه وإطعامها

للريح وإلقائه في صحراء مجهولة إلى أن اكتشفت الكلاب جثته بعد أيام، وأبلغت العابرين بجزء من فائلته الداخلية البيضاء المنقوشة ببقع جافة من الدم مكتوم الصراخ.

بعد سنوات لم يعرف أحد من الذي اختطف ريم وأين أخفاها ولماذا؟.. لكننا جميعا وأنا بينهم بحكم الجيرة حيث نسكن في حي السيدة زينب بالقاهرة لم نأل جهداً للبحث عنها، وقد كنا نسبح في بحر من الظلمات بلا دليل، حيث الموج الأسود طبقات فوق طبقات تفضي جميعها إلى المجهول. ريم ورده الحي دون جدال. ننظر إليها جميعاً بإعجاب لما تتمتع به من الجمال والعقل والشخصية والموهبة. قبل أن تختفي قصدنا - أنا وهي ومجموعة من الأصدقاء - كل مقار مباحث أمن الدولة والسجون بحثاً عن زميلها ناجي الورداني. طرقتنا كل الأبواب وأرقنا ماء الوجوه وأوشكنا على تقبيل الأيدي دون أن نعثر له على أثر وكأنه تبخر وتحلل منذ زمن طويل. كنت أتوقع أن تكون النتيجة قريبة مما انتهت إليه فمباحث أمن الدولة في مصر غابة فوق الأرض وتحتها. مجموعة مغارات وسرايب ومذابح ومسالخ غارقة في الضوء المظلم والنفوس المتعفنة التي تربت في بطون الشياطين.. الأشجار النضرة تضربها بعنف رياح هوج غير حافلة بتراتيل الملائكة، ووعود السماوات.

لا أحد ينكر أن في كل بيت بقعة زيت ذات سطح ذهبي له بريق يتوزع في أنحاء كثيرة.. بقعة لا تستقر في مكان عيونها الحمراء

وأظافرها الطويلة . بقعة زلقة وناعمة وقادرة على التشكل والانسباب والابتلاع، قد تبقى في حدود المكان دون أن تغرق أحدا، لكنها قد تتسع وتمدد وتفتح حتى تلتهم في آبارها اللانهائية جبالا وأشخاصا أعزاء. لم يكن نبيل وحده أحد ضحاياها ولا ناجي أو ريم ولا رضا هلال أو القبطان نجم الدين ولا آلاف الشهداء. وعشرات الآلاف من الأحياء المسحوقين من أجل أن ينام الطغاة ويحلمون بمزيد من السلطة والجبروت والملكوت.

تفنن الشياطين المرتدون ثياب البشر في تعذيب ناجي في المعتقل ونقلوه بين سجون عديدة، من بينها سجن العقرب الرهيب، ربما ليضللوا أهله أو يمسخوا بهم تراب الطرقات ويبللوا بعرق قلوبهم كل وسائل المواصلات. الأهل يواصلون بلا يأس البحث والتنقيب عن حبات القلوب لعلهم يستدلون بنور عيونهم وهتافات أرواحهم ودموع دعائهم إلى الله على مصائر الأحباب المظلم.

في تلك الأثناء كان ناجي يرسل الرسائل الكثيرة لريم دون أن تتسلم منها حرفا واحدا. لم تكن تعلم ما السبب وما السر في هذا الاختفاء. ساورها بالحاح كابوس قرر أن يقنعها لتصدقه بأن ناجي قتل وتم عجنه مع الأسمنت والرمل في خلاطة ثم صبه في قاعدة مبنى جديد لمباحث أمن الدولة كجزء من الخطة التي تستهدف أن يكون في كل حي مقر حفاظا على الوقت وحتى لا يتعب الضباط ولا أهالي المعتقلين.

ريم جميلة مثل زينب أمها التي تيمها الغرام بنبييل، ولم تكن ريم طيبة كزينب التي كانت تترفق بالأرض حين تسير، وإنما كانت الشابة تدق الأرض وتمضي بوجه مشرق يتطلع إلى السماء. تعرف جيداً هدفها مثل شابات كثيرات يتمتعن بإرادة حديدية ومواهب نادرة.

أما ما حدث من مرسي فقد فاق كل التصورات وصدم كل المشاعر وزلزل شخصيتها وبدّلها كما تبدل هو ذاته. تصرف مجنون وغير محسوب بالمرّة قلب كل الموازين والثوابت وجر جر عددًا من شخصيات العائلة والحي إلى مهاوٍ كثيرة ومفجعة.. البعض يصر على أنه قضاء وقدر. ألسنا نبالغ في إحالة كل شيء إلى القضاء والقدر والنصيب؟.. تقليد شعبي راسخ امتلك مع مرور الأيام القدرة على تزوير الحقائق وتسفيه الأخطاء الكبرى وتميرير الذنوب على أساس أن السبب فيها قوة أكبر، وعلينا ألا ننزل العقاب الرادع بالفاعل فليس له من الأمر شيء، والأمر كله لله أو للقضاء والقدر. فهل القضاء والقدر هما اللذان يمثلان الإرادة الإلهية؟!.. ليست كل الأقدار نابعة من الإرادة العليا فبعضها يمكن أن يكون نتاج المطامع والآمال البشرية المتناقضة. ومن قال أن هذا القليل أيضًا ليس من توجيه الله وتوصياته؟!.. مسألة ملتبسة لم يحسمها شهدي أو أبوه ولا الحاج صبحي مبروك الجمل، وقد استطاعت أن تحسمها الجميلة والأنثى الفارعة المدهشة دلال وأمها كريمة، وتمكنا وحدهما في غياب الزوج من امتلاك كثير من الرجال والمصائر.



رغم طيبة زينب وميلها للاستسلام فقد ورثت عنها ريم الاعتزاز بالكرامة والدفاع عنها، والنظر إليها على أنها الحياة ولا حياة إذا امتهنت الكرامة، فهل هذا ما حاولت أن تتبناه في حياتها وتمثله على المسرح؟ من حقنا أن نتساءل:

- هل كل هذا الميراث والافتناع الكامل به كان في صالح التجربة أم...؟؟. وهل تختبئ الحقيقة عند من فتحوا السجون لكل المعتقلين بمن فيهم سجناء الرأي والإسلاميون؟!!

حاولت ريم أن تعتمد على نفسها في الانتقام ممن اغتصبها. ذلك الرجل الغريب الذي وجدته في سريرها رغم الأبواب المغلقة بالمزاليج والأقفال.. رفضت تماما فكرة إبلاغ الشرطة أو الأهل وسكان الحي. مضت تعد خططها للانتقام.. لا يشك أحد أن الانتصار للكرامة كان وراء الثورة المصرية في يناير 2011 التي لم تكن فقط من أجل الخبز والعدالة الاجتماعية، ولكنها كانت في الأساس من أجل الحرية والكرامة، ولذلك لم يدهش العالم من الكم الكبير للشهداء وأكبر منه حدث في ليبيا وسوريا واليمن. وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق.

رأيي مختلف.. أتصور أن الثورة هبت من أجل الجمال والحب.. سوف تواجهكم التفاصيل بالحقيقة. لكننا لا نستطيع تجاهل كلام العرافين الذين يتفق الجميع قديماً وحديثاً على أنهم كاذبون حتى لو صدقوا أو صدقوا. قال العراف لمرسي الذي كان بصحبة زوجته زينب كلاماً غريباً:

- سوف تتزوج فتاة لم تولد بعد وهي ابنة أعدى أعدائك.

الدنيا.. ذلك الكيان الجذاب والبلورة المشعة ربما تكون جدارية هائلة عامرة بالغرائب والتناقضات تسري بينها ثعابين اللذائذ والمطامع حيث تقوم الغرائز بشتى صورها ببطولة كل المشاهد تقريبًا. ومع ذلك فقد كان هناك موضع لأقدام شرويت. السيدة المتفردة. نقطة الضوء الشاردة التي لم تعرف الحزن ولكنه عرفها وأضاء بصيرتها. شرويت قادرة برهافة مشاعرها ورقة تعاملها مع الحياة أن تلهم الكثيرين معنى أن نشور من أجل الجمال . الجمال الذي ينتهي إلى الموت في ليلة الحنة وفي الميادين العامرة بالغضب والأسئلة.

لم يتعد رمسيس كثيرًا في رؤيته للحياة عن شرويت فهو الصامت أبدًا، العاكف على منحوتاته البديعة هربًا من الموت وطلبًا لمتعة نبيلة لا توفرها منظومة الزواج المطعم بالنكد. أنتم معنا إذن في محاولة الموشك على الغرق باحثًا عن قشة للنجاة كي نقبض على الحقائق المراوغة، ما أجمل تلك الحقائق التي تخلو في الحقيقة من أي شيء ينتمي للحقيقة.. وما زال السؤال الأهم هو: لماذا لا يدرك أحد أن هدف الإنسان الحي ليس بلوغ الحقيقة وإنما تجربة وتذوق المتعة التي تثمرها رحلة البحث عن وهم اسمه.. الحقيقة.

## القسم الأول

# 1

كم هو مظلم نهاري باليأس والألم!!.. كم هو منير مسائي  
بالهواجس والأرق!!.. كم هو بارد وقتي وباردة جدرانني!!.. كم هي  
خانقة أدخنة الوحدة والسأم!!

كم هو مزعج ذلك السّجان الضخم!!..

تصوري يا ريم أن اسمه رءوف.

دّفعة في كتفي من يده الغليظة تخلط ملامح وجهي. لكنه يرحمني  
من السقوط، إذ يدفعني في كتفي الأخرى بقبضته وهي بحجم رأس  
كلب بوليسي.

الجدران تتكّسد وتقتفي أثري حتى في المنام.

تصر على أن ترتاح فوق صدري. الوحشة تسمر عينيها في لحمي  
وتنفذ إلى كبدي عبر الثقوب.

في أحيان كثيرة أبحث عن لساني كي أتكلم فلا أجده...

أود أن أكلمك يا مفتاح أرضي وسماي.

يا طائرًا جميلًا يبني عشه على شباكي.

فلا أجد غير الكتابة.. الكتابة تساعدني في خداع التآكل والموت

ما أروع هذا الاختراع!

لم أستقبل منك أية رسالة.

ماذا يعني هذا سوى الموت؟.. لا تتأجل النهاية إلا إذا خايلني

الأمل في أن تقع عيني على حرف من حروفك تحمله إليّ عصفورة

كما تحمل القش للوليد المحروم.

ها هو من بعيد ألمحه عبر الشباك يمشي فوق السحاب، حرفٌ من

حروف اسمك المورق.. يبتسم ويطير نحوي ليكتب لي قصة يوم

مختلف من عمري المعجب.

الحرف يجتهد في عبور مسافات الجليد. مندفعًا نحوي. تركض

صوبه روعي.. لا. لم يكن حرفًا أخضر. ولا كان طائر الأشواق.

كان كوة صغيرة معتمدة من الظلم الذي حاق بي.

ظلم داهم البريء بخنجر مثلوم، فشق كبده وعصر قلبه اليتيم

لست وحدي السجين فمعي الوطن يئن ويكابح طحن المحن.

طال سجننا ولم أسمع منك كلمة.

تسأليني عن سجني . سجني ليس في الجدران والظلم وضياع  
العمر الذي بالكاد بدأ.

تقول الجدران العالية إنك لم تسألني .. لكنني أثق أنك لا تكفين  
عن السؤال.

فأسألني . أسألني عن إمام الغائبين .. ناجي .

لما زارني أخي طلبت إليه أن يمر على بيت الأعبة ويسأل عن  
ريم .. ست البنات .

.. الوالد متعه الكريم بالصحة وطول العمر قال :

- سافرت عند خالتها .

بعد شهر طلبت من أختي أن تمر على بيت الأعبة وتسال عن ست  
البنات .

قال الوالد: لا تزال .

السماء يا حبيبي ملبدة بالظلم بكل أطيافه، والأفق الفسيح مشمول  
باليأس .

تعصف بعقلي وقلبي آلاف الأسئلة دون أن تصادفني إجابة واحدة .  
عدم وصول إجابة واحدة قد لا يعني أنها جاحدة .

لن أتوجه إلا إلى الله، لكن الملائكة فيما يبدو تمزق خطابات  
المساجين .

لأجل خاطر حبيبك النبي، أظهر لي آية تدلني على الطريق  
وخاتمته.

أو تزرع في حقول روعي صبارة صغيرة.

لكن الصبر بحاجة ولو كل عام لنظرة من محبوب أو قطرة ماء  
لمست شفة حبيبي.

تذكرت كلمات بول إيلوار.

«لنضحك في خفة لأن الحرارة لفحطنا.. لأن البرد قرصنا. لأن  
الجوع أصابنا والعطش يستبد بنا.. لنضحك حتى يكون حديثنا سخياً  
سخاء القبل».

هذا كلام الذين يقاومون العدوان. العدوان ليس كالظلم الذي  
يلطم روعي كل دقيقة.. هكذا يتصرف المصريون بالفطرة دون أن  
يخطر ببالهم إيلوار أو غيره.

بريء يُعذب، ويُمزق ويُهان.. يجد في كل لقمة أو شربة ماء  
كلابات تنهش القلب، ومسامير تندق في الكبد.

لا أمل.. الأسوار عالية والسماء.

ولا ثمة أثر للأرض ولا للإنسان.

هل يدرك البغاة حجم ما يدمرونه في حدائق الحياة إذ يرمون على  
الأبرياء تلال ظلمهم؟

لم أقل لك من قبل، لكنك لا بد تعلمين أنني بدأت سجني بعد  
لاظو غلي في سجن العقرب، ثم نقلوني بعد أن ثارت الصحف ضد  
جريمة سجني إلى مزرعة طرة. حيث الأحوال أرحم بكثير... لا. لا.  
تحسيني أخفف من وقع عذاباتي عليك.

إنها الحقيقة. لكن السجن في أحسن حالاته. قيد وقمع ووحدة  
ويأس وظلام يعصف بالأرواح. القبر أفضل من السجن ألف مرة لأنه  
يوفر الراحة المثالية. لولا أن في السجن بعض الحياة، وللحياة مهما  
عانينا فيها لمحات من الغواية، فلو قدر لشخص أن يختار بين الموت  
وبين السجن لعشرة آلاف عام لفضل السجن.

أن تكوني أفضل من ألا تكوني، ولو أن الحياة ليست أقل من  
مأساة. والسجن بشع لأنه فراغ لا يتمتع بالحرية، والفراغ عبء ثقيل  
حتى في ظلال الحرية. فسحر الحياة كونها بحرًا هائجًا يمور بالعمل  
واللهو والعبادة والحب والحركة التي تحوطها أحيانًا أمواج عاتية  
ورياح عاصفة. وعلينا دائمًا أن نختار من بينها من نملك القدرة على  
التعامل معه. لكن البشر في كل الأحوال هم الذين يجعلون الحياة  
عسيرة ومقيدة من فرط الأنانية والخوف على ما اكتسبوا حتى ليفكر  
بعضهم أحيانًا في حبس الهواء.

ومع ذلك فكلمة واحدة من حبيبة مثلك تجعلني أصبر على كل  
عذابات السجن. ها هما كفتا الميزان. ها هي أفعال البشر وها هي

أنواع الظلم فاختاري ما تشائين من ظلم.. اشتقت إلى تراب تقبله  
قدماك وهواء يتعطر بأنفاسك.. اشتقت جدًّا للكتب وللمسرح  
والأصدقاء والنيل والموسيقى والطيور والزهور.. اشتقت جدًّا  
للقاءاتنا وحواراتنا.

كم تهفو نفسي للحظات قليلة منها لتعيدني إلى الحياة. بالرغم من  
كل ما ألقاه فأنا حريص على أن أكتب الشعر وقد اشتقت إلى بيتس  
ونيرودا ورامبو وبيسوا. الذهب سعره أغلى كثيرًا جدًّا من الكتب لكن  
الكتب أثمان بما لا يقارن.

الآن الثامنة مساء وقد أغرق رءوف الزنزانة بالماء. لو كان كعب  
الباب متساويًا مع الأرض لتسرب الماء لكن تصميم الزنازين علم  
وفن. أرضها منخفضة عن الباب بنحو نصف متر حتي يمكن أن تمتلئ  
بالماء ويضطر النوم للهروب، ومتى جاء؟! سنقضي الليل وقوفًا  
حتى الصباح.

ناجيك المحب.. Your Beloved Nagi



## 2

ببطء شديد فتحت عينيها. تلفتت حولها. حسبت من طول سباتها وعمقه أنها قد فارقت الحياة. اندهشت عندما أدركت أنها لا تزال حية. انتعشت روحها بالرضا. تنهدت وحمدت الله. الأصوات العالية تطرق أذنيها قادمة من الشارع حيث يلعب الأولاد. يتنادى أصحاب المحلات وصبيانهم، سلامة بائع الروبابكيا ينادي عليها ويتغنى بحروفها المتأهبة للرقص وهو يدفع عربته الخشبية وهي مجرد صندوق على عجلتين، بينما عيناه ترسل نظراتها إلى البلكونات:

- بيكيا.. روبا.. بيكيا.. خلص بيتك من الكراكيب يا فندي.. نظفي بيتك من القديم يا هانم.

يتتابع باعة الخبز والخضراوات والقلل القناوي والأقمشة من سلاءات وأغطية، وباعة غزل البنات وحلوى الأولاد. الفاكهة والغرابيل والكتاكيت. عندما يهمل بائع الكتاكيت تسرع النسوة إلى الشرفات والنوافذ حتى لو لم يشتريين، ويقف الحُصري مزهواً ببضاعته

التي ورثها عن أبيه.. ينادي بمزاج ونبرة طرب بصوته المدرب رغم  
الخشونة الذكورية الواضحة:

- الكتاكت البلدي الملاح.. ولا يربي الملاح إلا الملاح..  
الملاح.

يعاود الحصري النداء ويلون في صوته ويوقع الكلمات ويقول  
بكل ثقة:

- من شاف ورد بلدي يتحرك ويرقص.. كتاكت الحصري ورود  
منتظرة الملاح.. وفين الملاح؟

تهبط على عجل نسوة كثيرات يحيين الحصري وينادين الكتاكت  
بضرب الألسنة في سقف الحلوق، ثم تبدأ عمليات الفحص والانتقاء  
ثم الشراء والمساومة ولا بد من كتكوت فوق البيعة، واعتاد الحصري  
ألا يرفض قائلًا:

- الكتكوت الهدية من الحصري لا يكون إلا لمن تشتري  
العشرين.

عندئذ تنبهت زينب وتذكرت الأحبة الملاح. صعد خيالها إلى  
السطح حيث تقيم دواجنها وترسم على صفحة حياتها بعض ملامح  
الرضا الشحيح. مدت ذراعها وفتحت الستارة الأورجانزا. أسرع ضوء  
الشمس الواهن والمتأهب للغروب بالدخول. فرش عباءته المشرقة  
على كل جدران الغرفة الباردة، ومد يده فسقى القلب المستوحش  
بقليل من النور.

قامت زينب وقد استشعرت شيئًا من الهمة. ألقت نظرة على وجهها في المرأة. ليس ثم جديد. الساعات التي مرت منذ الصباح لم تحمل إليها ما يسر، والدواء ليس غير أموال تتبدد. ووعود لا تتحقق.. سوت خصلات شعرها الناعم خلف أذنيها وشدت عليه منديلًا سماويًا. بحثت عن شبشبها البني الذي تزينه فصوص صفراء لامعة. وقعت عيناها عليه عند التسريحة.

- ما بال شبشبي دائما فردة فوق فردة. هل يعني هذا أنني سأسافر؟.. كل مرة يركب بعضه ولا أسافر.

تنهدت ثم همست بأعماقها كأنها تحدث أحدًا أو تبعث برسالة:

- يمكن كل فردة تخشى فراق أختها.

عدلتهما بأصابع قدمها اليمنى وأدخلت قدميها في الشبشب. صعدت إلى السطح. فتحت العشة، وسحبت خرقة مبتلة من الخيش وطبقًا أحمر كبيرًا من البلاستيك. جلست على الأرض. غرفت بكامل حفانها كمية من الحب. نثرتها وهي تطرقع ضاربة لسانها في أسفل حلقها. رفرفت بسرعة وفرح حمامات عشر.. هبطت إلى الحب فالتقت بالدجاجات التي وقف ديكها الكبير ملون الريش مرفوع الرأس يرقبها عن كثب ويستعرض ذكوره المعجبانية دون أن يمس حبة واحدة حتى يطمئن أن كل أسرته أكلت وشبعت. فتحت زينب الخرقة الخيش وأخرجت منها حزمة البرسيم الخضراء التي لا زالت

ندية وطرية. قدمتها للأراب في عشتها الصغيرة القريبة من حنفية الماء. مضت زينب تتأمل كل عضو في الفرقة الجميلة. فرقة الطبيعة والمحبة والطفولة التي تزرع الأمل في حدائق الروح.

خطر ببالها أنها ربما نسيت أمرًا مهمًا. حاولت تذكره. فتحت كتاب ذاكرتها وقلبت صفحاته بحثًا عن الأمور المطلوب إنجازها.

- سالي تأخرت. خرجت في رحلة مع المدرسة وقالت إنها ستأتي بعد العصر. لا.. لقد كان ذلك يوم الجمعة. واليوم هو الثلاثاء. إذن أين البنت؟ ريم هي الأخرى لم تأت بعد. أظن أنها كانت تريد أن تعمل لها على الغداء كسكسي. لا. أظننا لم نتفق اليوم على هذا. كانت زميلتها أنيتا ستزورنا مع والدها الدكتور.. الدكتور. نسيت اسمه. ربما كان عمران. لا. أظن عريان. نعم إسكندر عريان. سيأتي ليعيد الكشف ومعه رسم المخ. قال إنه سيأتي الأربعاء واليوم هو الأربعاء.

ابتسمت فجأة وأشرق وجهها وهبت واقفة تنظر من فوق السطح لعلها ترى أنوار الغالية أم هاشم.

اليوم الليلة الكبيرة لمولد السيدة المشيرة العظيمة أم العواجز. حفيدة الرسول وبنت ابنته فاطمة وبنت الإمام علي وأخت الحسن والحسين. لا أشعر بالأمان إلا مع آل البيت وبالقرب من السيدة زينب بالذات. سمتني أمي على اسمها.

مسحت السطح بنظراتها. الحمامات طارت فوق العشش والأسطح القريبة والأعلى. لم يعد هناك حَب. ملأت طست الماء وجاءت كل الدواجن لتشرب. بدأت وحدها تتمشي باتجاه العشش. تعرف النظام ولا تحتاج إلى عصا. أغلقت زينب عليها ونزلت. دق رأسها فجأة صداع وخيم على عينيها ضباب. شعرت بدوار. جسدها يتحلل ويكاد يتلاشى إلى أن تهاوت. بقيت تحت عين الشمس وسياطها نحو ساعة، ثم أفاقت وقد أحست بالوهن وآلام بسيطة في ضلوع جنبيها.

تحاملت على نفسها ولملمت جسدها ونهضت بصعوبة.. نزلت الدرجات على مهل. دخلت الشقة وارتمت على السرير بعد أن ابتلعت خمس حبات من علب مختلفة الأحجام والألوان. أيقظها أذان العصر وحلم عابر زارتها فيه سيدة في ثياب بيضاء ويدها سبحة طويلة خضراء تتبعها هالة من النور.. نظرت إلى وجه زينب الذابل وعينيها الملبدين بالأسى.. مست وجهها بيدها. ثم مرت بأصابعها على جسمها الذي كان يهتز هزات خفيفة وغير محسوسة.. وضعت كفها المنير على رأس زينب وشرعت تقرأ سورة «يس». كان الصفاء يعود تدريجيًا إلى وجه زينب وعينيها. ابتسمت الضيفة المشرقة ثم استدارت على مهل وخرجت قبل أن تبلغ الباب.. أدركت زينب أنها السيدة جاءت بنفسها كي تستنهضها لتلحق بالمولد.. اندفعت في حماسة نحو الحمام وقد لاحظت اختفاء آلام ضلوعها والصداع. نثرت حفتين من الماء على وجهها وفكت ربطة الرأس وأعدت ربطها وتنهدت راضية ثم غادرت الشقة غير مبالية بشيء.

تدفق خطواتها في شارع شيخون ثم شارع الصليبية وقدري مرورا بالحوض المرصود. مرت بمقاهٍ عديدة. كل شهر تقريبا يظهر مقهى جديد. كان هناك من قبل مقهى «السيدة» ثم محل والي الطرشجي وجزارة أولاد السبع وبعدها مقهى «ألف ليلة»، محل موريس التريزي الذي تحول إلى مكتب اتصالات وبعده «حلواني وألبان أم علي»، ثم افتتح مقهى «سهر الليالي» بجوار مقلة الحرمين ثم صيدلية دكتورة هنادي ومحلات رءوف للتسجيلات والحفلات ومطاعم العلم المصري ثم مقهى «بديعة».. بجواره مسمط شفيق ومقهى إنترنت وكشري خميس وجواهرجي الأمانة وفرن سنية وبعدها مقهى سلطان الذي يشغل بكراسيه وزبائنه نصف الشارع.

التقطت أنفاسها أخيراً بعد أن مرت من أمام كل هذه المحلات ومئات العيون. شعرت أنها أصبحت تجري. يأتيها الدفع من أعماقها شوقاً وليس بسبب نسمات عليلة نشطة انتهزت فرصة غروب الشمس. لم تكتشف إلا مؤخراً أنها ما تزال بجلباب البيت القطني البسيط الواسع والقصير تاركاً نحو شبر كبير فوق القدمين عارياً وأقل من مثيله دون الركبة مستوراً. لا تزال قدماها عاريتين في الشبشب الزحاف، والمنديل المنزلي السماوي اللامع من فرط رخصه على رأسها، لكن وجهها لم يعد كما كان مصفراً يشبه ليمونة كبيرة، فقد بدا من البهجة المتأججة بوعد اللقاء بالحبيبة مشرقاً. تنهدت من أعماق أعماقها عندما لاحت لها أضواء المسجد الكبير للسيدة زينب صاحبة الأفضال والنفحات.

المسجد عروس في يوم زفافها. تقترب من المشهد المتوهج  
بالأنوار والبشر والحركة والأصوات العاشقة تنشد الأغاني الدينية  
على شرف أم هاشم. ابتلعها الزحام. روحها تطير بين الخلائق.  
حشد من الكبراء والشحاذين والدرأويش المعلقة في رقابهم سبوح  
كثيرة تصل إلى الركب. رجالات الطرق الصوفية يحملون أعلامها.  
مرت بصعوبة بين المراجيح وترايبزات ضرب النار.. مئات من  
الباعة أمام بضائعهم المرصوفة على الطاولات والعربات الخشبية  
والأرصفة.. البالونات والزمامير وألعاب الأطفال والمصاحف  
والأذكار والأوراد والسبوح والبليلة والفشار. بلح الشام وغزل البنات  
والشكلمة والبسبوسة والعجينة والسمنينة والنشوق.. المخدرات  
وحب العزيز والحمص والترمس والسوداني واللب. في كل ركن  
يتحصن بانعو الشاي والقهوة واليانسون والقرعفة والزنجبيل والكرأوية  
والكركديه. وإلى جوارهم بانعو الكبدية والشاورمة والمخ واللسان  
والجواهر والفول والطعمية والكشري والمهلبية والأرز باللبن.

كانت تعرف طريقها وغايتها ومناها. لم تقف لتأمل المشكاوات  
والثريات الضخمة والأعمدة ولا المنبر العتيد ولا البرافانات  
الأرايسك ولا السجاد الجديد ولم تحس إلا بالروائح العطرة التي  
نفذت إلى جسدها وروحها. شربت كثيرًا وطويلاً من أنفاس البخور  
الهندي المعتق لتستعد للزيارة وتنصرف عن كل ما سواها. تسللت  
بمهارة إلى الحبيبة التي اشتاقت إليها. نادتها كثيرًا. توصلت إليها أن  
تعينها على الصلاة. اليوم هي عازمة على مناجاتها وطلب مساعدتها

أملًا في أن تشفع لدى الحبيب المصطفى حتى ينظر إليها. لا تطمع إلا في أن ينظر إليها. كررت رجاءها لله أن ينظر الحبيب إليها، واثقة أنه لو تطلع إليها لخرجت من ثوب المرض كما خرج منه أيوب الذي تلقى كلمات ربه المعلنة شفاءه بعد طول ابتلاء:

- اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب.

مغنية تمضي والزحام يضربها بلا رحمة. الكل تقريبًا مغيب. فقدت فردة شبشبها عدة مرات ولحقت بها بصعوبة شديدة إلى أن بلغت مقام السيدة حيث ضريحها. الكتل البشرية نساء ورجالًا وأطفالًا تغطي المقام تمامًا. طبقات فوق بعضها. قررت أن تلاصق من الخلف سيدة ضخمة وقوية تشق طريقها بصلافة وإن كان ببطء شديد. المهمة صعبة جدا لكنها ستموت إذا لم تتحدث إلى السيدة. تتعلق بالمرأة الضخمة ذات الأرداف العالية.. امرأة عفية لا يوقفها فحل. تفسح طريقها حتى لو اضطرت أن تضرب الرجال وتزيحهم. أمسكت بعمودين من أعمدة المقام الحديدي وطلبت من الله أن يعينها حتى لا تفلتتها وبينها وبين السيدة كلام كثير.

- يا ست يا طاهرة عارفة أنت طبعًا بحالي. أغيشيني وانصريني. أنا في عرض حبيبك النبي. أنا في غيبوبة طوال الوقت. أنا ميتة حية. نفسي قبل أن أموت وأقابل ربًا كريمًا أستر ريم وسالي. كيف أتركهما على حالهما وأبوهما كما تعلمين في غيبوبة ولا يهتم. ماشي في الدنيا حسب مزاجه ولا يعرف شيئًا اسمه المسئولية. أنا نفسي يا أم هاشم....



هجمت أفواج جديدة وتدافعت الحشود وأفلتت يداها وأوشكت على الوقوع. أمواج من بحار البشر تعالت وتوالى دفعها للكائنات الضعيفة إلى أن وجدت زينب نفسها وقد سقطت أمام شيخ هرم يُسَبَّح ويتمتم بالدعاء. تأملته لحظات. عمامة كبيرة خضراء ولحية كثيفة بيضاء وهشة يرقد آخرها على بطنه. له أنف مدبب وشفتان غليظتان لا يعلوهما شارب.

رنا إليها بطرف عينه الرمادية. انشغل بسمائه العالية وجنان محلقة يجوبها الأنبياء والرسول. لم تتحقق من كلماته إلا قوله:

- متى الموعد يا حبيبي. اشتقت إليك فخلصني من ثيابي.

ظلت زينب على سقطتها متجمدة لا تحس إلا بكلمات الشيخ. استشعرت راحة وتصورت نفسها قطعة في أحضان دب أبيض عجوز. اعتدلت أخيراً ووضعت فرديتي شبيشها تحت فخذها. ابتلعت ريقها وسألته:

- لماذا أشعر بعدم الرضا عن الدنيا يا سيدنا؟

أغمض الشيخ عينيه ومضى يدعو ويتمتم. أعادت سؤاله. كان غائباً تماماً.. أدركت بحدسها أنه يسمعها ويود أن يجيبها. قالت:

- ليست لي مطالب إلا رضا ربي.

كانت عيناها متعلقة بشفتيه، وفي سرها ترجوه أن يرد. توقفت التمتمة أخيراً وأغمض عينيه لحظات ثم قال:

- لا يجب أن نكره شيئاً خلقه الله ولو كان الموت.

- أشعر بالمرارة.

- أكلت الحنظل وذقت الصبر لكنني لم أجد مرارة في فمي أشد من مرارة الفقر.

- المرارة تحيط بي.

- رغم ملابسك البسيطة فلا تبدين من الفقراء المحرومين.

- ابتلاني الله بما هو أشد.

- وما هذا؟.

- المرض.

- لو دعوته بيقين الإجابة خَفَّت مرارة المرض وكستك أثواب الشفاء.

- أكره الدنيا وتكرهني.

- ما خلق الله أهون منها، والناس تحسب أن الله جعل نعيمها ثواباً للمطيعين، وبلاءها عقوبة للعاصين.

سالت دموعها فجأة وإن لم تفهم. اختطفت يد الشيخ وقبلتها.

نهضت وحاولت البحث عن ممر رفيع تتسرب منه لتعود إلى السيدة

التي لم تتح لها الفرصة كي تقبل مقامها الساكن في روحها. احتوتها  
الجموع وحملتها حملاً فإذا بها خارج المقام.

خيام كثيرة ملاصقة لحرم المسجد يتكدر فيها القادمون من شتى  
لجوع وكفور ومدن مصر من عشاق صاحبة المقام. لقد استعدوا  
لمولدها قبل مواعده بشهور وطوال هذه المدة كانت معهم وفي  
خواطرهم. يتحدثون إليها ويرتبون ما يجب أن يقولوه لها عن جميع  
أحوالهم.. الرزق والأولاد. المرض والخلفة والجيران.. المحاصيل  
ونائج المدارس والبنات اللاتي على وشك الزواج ومن لم يطرق  
أبوابهن.. الأمل في الحج والدعاء في الحرم.. المناصب والمكاسب  
والهموم. كثرة الحسد والسحر والأعمال.

السرادقات تتنافس في علو أصوات المريدين بالذكر والإنشاد  
الديني في حب رسول الله وآل البيت.

محمد سيد الكونين والثقلين

والفريقين من عرب ومن عجم

نبينا الأمرُ الناهي فلا أحدٌ

أبر في قولٍ لا، منه ولا نعم

هو الحبيب الذي ترجى شفاعته

لكل هولٍ من الأهوال مقتحم

دعا إلى الله فالمستمسكون به

مستمسكون بحبلٍ غير منقسم

فاق النبيين في خلقٍ وفي خلقٍ

ولم يدانوه في علمٍ ولا كرم

وكلهم من رسول الله ملتمسٌ

غرفاً من البحر أو رشفاً من الدير

وواقفون لديه عند حدهم من

نقطة العلم أو من شكلة الحكم

فهو الذي تم معناه وصورته

ثم اصطفاه حبيباً بارئاً النسم

منزه عن شريكٍ في محاسنه

فجوهر الحسن فيه غير منقسم

فانسب إلى ذاته ما شئت من شرف

وانسب إلى قدره ما شئت من عظم

فإن فضل رسول الله ليس له

حدٌّ فيعربُ عنه ناطقٌ بضم

سحبتها خطاها دون إدراك منها إلى خيمة ينشد فيها منشد ذو  
صوت رخيم وإن كان عالي النبرة دافئ الإحساس يتتزع صوته من  
قلبه ولا تردد شفتاه الكلمات:

قلوب العاشقين لها عيون ترى ما لا يراه الناظرون  
والسنة بأسرار تناجي تغيب عن الكرام الكاتبينا  
وأجنحة تطير بغير ريش إلى ملكوت رب العالمينا  
وترتع في رياض القدس طورا وتشرب من بحار العارفينا  
عباد أخلصوا في السر حتى دنوا منه وصاروا واصلينا

\*\*\*\*

يتمايل المتيمون والعشاق مع نداءات الأرواح لله. يتصاعد إيقاع  
النداء ويخلص الكل في دفع كل الحواس صوب ذكر الهادي رب  
العالمين. يزداد التمايل والتطوح وتنخفض بشدة دورة الرؤوس حتى  
تكاد تلامس الأرض وترتفع لتتحول الوجوه إلى السماء.. العيون  
مغلقة على أسرارها والأجساد كلها مندمجة في دورة الذكر. وقفت  
لحظة أمام أحد السراقات. الكل يدمدم ويهدر. كانت هناك سيدات  
بين الرجال. الأصوات تعلو وتنخفض وتجأر. الحركة والنداءات  
يقودها رجل طويل أسمر عريض الصدر على رأسه عمامة خضراء.  
صوته دون ميكروفون يلف الميدان كله ويسمعه كل الذاكرين

وسكان العمارات القريبة. فحيح وزئير وزعيق وصراخ ثم تشنج وسقوط. لمحت نبيل بينهم. دخلت على عجل وتفادت الاصطدام بحركة الرؤوس والأجساد والأذرع التي تطير ولا تعرف مداها وإن كانت جميعًا تنتظم في اتجاه واحد. يذهب ويجيء لكنه بحساب. إلى جانب نبيل وقفت واندمجت بسرعة مع الذكر. بدا واضحًا أنها على خبرة وأنها ليست المرة الأولى التي تنضم لحلقة ذكر. الإيقاع يشتد والذاكرون المتطوحون المندمجون ينادون الله بكل عروقهم ودمائهم وعضلاتهم وأعصابهم. تخلوا عن الدنيا تمامًا وسكروا بخمر الذكر بينما أجسادهم تمضي وحدها عارفة طريقها المحموم في دورة لا يملك لها أحد تغييرًا. كانت الأجساد المشبوبة تنادي الخالق بالضبط كما كانت الأرواح تناديه كي يغفر ويعفو وكي يرزق وينصر ويهدي ويرضى. مضت في الذكر تطوح ذراعها ورأسها، ولما اشتعلت أعماقها طوحت جسدها كله. كان نبيل يظهر حينًا ويغيب أحيانًا.. لم تسأل روحها إن كان حضوره بالجسد أم بالخيال حضر.. لم يكن في العقل والروح غير خالق الأكوان والحبيب جد الحبيبة. بدت قوية وعازمة على تعويض خسارة المشهد عند الضريح، خاصة أن نبيل إلى جانبها يؤنس روحها في دربها الغامض. لم تعد تشعر أنها وحيدة. ارتفع صوتها:

- الله حي. الله حي.

سال عرقها كما سال عرق الجميع واحمرت كل الوجوه حتى  
 السمراء. طار شعر وتساقطت زينة وسبَّح ونقود وتمزقت جلابيب،  
 لكن الحركة رغم كل الهياج الجسدي لمئات الذاكرين في السرادق  
 منتظمة وطويلة النفس ولا تشعر بالتعب حتى لو تهاوت. أخيراً تهاوت  
 زينب وتركها الرجال كما تركوا غيرها، فالساقطون على الأرض  
 والذين لا زالوا شهوداً في حلبة الذكر محض رمال على شواطئ بحر  
 الوجود اللامتناهي.

\*\*\*

### 3

عدت من المسرح أحمل إليها الشيكولاتة التي تحبها وبعض الأخبار السارة المؤلفة خصيصًا لها ومتبلة ببعض الأكاذيب. أخذت طوال الطريق أرتب الأخبار منزوعة القيمة والأهمية. كانت الناس ملمومة بكثافة حول رجل أسقطته سيارة في الطريق وهرب سائقها. اضطررت للنظر إلى الرجل المصاب فربما كان من معارفنا. كانت الإصابة بسيطة.. مشهد المراكب المزينة في النيل كان رائعًا. احتفال كبير بثورة يوليو 52.. فرق الفنون الشعبية تقدم عروضها الجميلة والفرق الموسيقية تعزف والشباب ينشد الأغاني الوطنية والزوارق تقدم تشكيلاً بديعاً فوق الماء. الاحتفال مازال مستمرًا. هيا بنا لتشاهديه بنفسك.

لم تكن في سريرها. درت في الشقة أبحث عنها. نادرًا ما تقدم على الخروج. تجد أنسها مع الدجاج والأرانب فوق السطح. من أجلها أحبت ما تحب. رغم الليل سعدت. ربما أصابها دوار اعتاد أن يزورها بلا موعد فتهاوت دون أن ينتبه إليها أحد.. أمي المسكينة



المستوحشة المحملة بالأسئلة والذهول والصمت والغموض والألم لم تكن هناك. نزلت إلى الشقة ودرت أبحث من جديد مستنفرة كل حواسي. أعتمد حينًا على التحديق والشم وحينًا على اللمس والسمع.. كل شيء في موضعه إلا هي.

انطلقت ظنوني وهو اجسي. خروجها من باب الشقة يثير القلق وقد يستدعي الرعب. أنا وحدي المهياة للبحث عنها. أبي غير المهتم على المقهى مع الأصحاب. الساعة تجاوزت التاسعة ولن يتزحزح من بين الصحبة قبل منتصف الليل وقد يزيد. كان يمكن أن تكون سالي لو موجودة ذات نفع كبير بحكم سنواتها العشرة. خالتي ثريا المحرومة من الإنجاب طلبت أن تأخذ سالي لتعيش معها. حاولت أن تضرب عدة عصافير بحجر صغير واحد. أن تخفف عن أمي عبء اضطرارها لخدمة عدد أكبر من الأفراد خاصة بعد مرضها. تمثل سالي بعض الونس في البيت الخالي من الكائنات الصغيرة وهم مصدر سعادة حتى لو كانت مجرد قطعة. التخفيف من ضغط الحالة النفسية المتوترة الناجمة عن عدم الإنجاب بوجود طفلة عزيزة ومن دمهها. يمكن أن تقوم سالي مع الوقت بدور في مساعدة خالتي. الغريب أن أبي اعترف كثيرًا برغبته في أن تحمل أمي من جديد لعلها تنجب ولدًا.

كان القرار صعبًا علينا جميعًا خاصة علي فلم أكن أنام بدونها. سالي مطيعة ولذيذة ومشرقة الوجه والروح. ضحوكة. تتمتع بحيوية ونشاط وليست خاملة أو كسولة ومستعدة دائما لعمل أي شيء حتى

لو لم تكن قادرة عليه في أحيان كثيرة أدهش لطبعها، فهي عاطفية لكنها صلبة وتتمتع بإرادة حديدية وإصرار وذكية جدًا، وفي الوقت ذاته تميل للسكوت والتأمل بعينيها الجميلتين، وكنت أحس أنها تسمع بهما وليس بأذنيها. تقوم بأعمال كثيرة خاصة إبان غيابي.. مع غياب أخ ذكر كانت تنزل إلى الشارع لتشتري أغلب ما يحتاجه البيت مثل الخبز والطماطم والجرجير والكبريت والبقالة والفاول وعجينة الطعمية والزيت والصابون والجبن والدواء من الصيدلية وتحضر الملابس المكوية من عند مرتضى المكوجي، وإذا جاء ضيف انطلقت من نفسها إلى الخارج لتعود بعد دقيقتين بزجاجات المياه الغازية. وقد حدث عدة مرات أن انطلقت تنادي أبي من المقهى عند الضرورة، ويمكنها أن تستدعي السباك لإصلاح ما يتعطل من الأدوات الصحية كالحنفيات والدرش أو السخان أو سلطانية الحمام أو انسداد البلاعة. ويمكنها أيضا سحب الكهرباء من يده ليصلح النور الذي انقطع في بيتنا فقط دون كل البيوت، وكان يمكن لسالي أن تهبط على عجل لتلتقط من أرضية الشارع ما يقع دون قصد من الغسيل الذي ألمه بعد أن جف. بل كانت أحيانا تمشط شعر أمي القرنفلي الناعم المسترسل. لكنني لا أستطيع أن أنسى يوم نجحت ولم تكن الأولى.. ظلت تبكي أيامًا فاضطرت لأخذها معي إلى المسرح عدة أيام حتى سكنت روحها.

لم يكن أبي يسأل إلا عن سالي. عندما يفتح الباب قادمًا من عمله في محافظة القاهرة في ميدان عابدين يناديها حتى لو لم يكن يريدها، ولو كان يعلم أنها لا تزال في المدرسة أو في حصة القرآن في مسجد مصر عظمش. يناديها كمن ينبئ الموجودين بحضوره أو كما يقول صيف غريب عند قدومه:

- دستور. أو.. يا ساتر.

رغم أهمية سالي فقد انتظرنا موافقة أمي التي لم تبد معارضة من فرط حبها لأختها التي كانت تبكي باستمرار لمرور إحدى عشرة سنة دون إنجاب، وقد شجعها على الموافقة إعجابها بوجيه زوج خالتي الكريم المهدب. رجل نادر المثال كلامه جميل ولا يذكر أحدًا بسوء لفظ حتى إبليس. لم أجد في الرجال مثله، ربما كان ناجي زميلي في المسرح لولا أنه عصبي إلى حد ما، وأبي طيب وحنون لكنه أيضًا لا يبلغ مستوى عمي وجيه.. أبي يتحمل كثيرًا ويصبر لكنه أصبح يشرب الخمر ويدخن بشراهة ويسرف في غيابه عن البيت.

تذكرت فجأة أن أطلبها على المحمول. كنت قد اشترت اثنين، واحدًا لها وآخر لأبي رغم رفضهما. قلت لهما:

- إنه من لوازم العصر.

سمعت رنين هاتفها قريبًا. تحركت في الشقة وأذني تمسك بخيط لغماته التي تعلقو تدريجيًا حتى وجدته تحت وسادتها ومعه صور للعائلة

يظهر فيها الجميع وبينهم عمي نبيل الله يرحمه. لظمتني النتيجة. إذا كانت قد خرجت فكيف سنصل إليها ونعرف مكانها وأخبارها؟

عزمت على الاتصال بخالتي ثم تراجعته، أولاً حتى لا أزعجها وأزعج زوجها إذا لم تكن عندهما، وثانياً لأن خالتي تقيم في الهرم ونحن في السيدة. حاولت الحوار مع الحيرة. قلت:

- أين أنت الآن يا زينب؟

اتصلت بأبي وأنا فاقدة للأمل في جدوى ما أفعل. قال علي الفور:

- لا أعرف. ربما ذهبت عند واحدة من الجيران.

مضيت أفكر في الجارات. من منهن يمكن أن ترتاح إليها. المشكلة أن الوقت متأخر وأمي لا تحتمل الثرثرة وليست من هواة الجلوس طويلاً مع النساء. أمي عالمها كله بداخلها. تعيش في الماضي وما تحتفظ به من ذكريات. كتابها مملوء بالصور والمواقف. كثيراً ما تخرجه من أعماقها وتقلب فيه وتستحضر ناسه الذين يسرعون إليها باهتمام وترحيب.. تسألهم ويجيبونها فتنقر عصافير السعادة على جدران قلبها الزجاجية.

استعنت بعدد من شباب الجيران. صفوت وجميل ورشاد للبحث عنها.. سرنا في الشوارع على غير هدى. كل واحد في اتجاه. أنا اخترت السيدة وشارع السد وزين العابدين. صفوت اختار سكة

بمدينة الأمن وباب زويلة والمناصرة وشارع محمد علي. جميل  
 أفضل ميدان عابدين والمحافظة حتى شارع عبد العزيز ورشاد لم  
 يبق له لاستكمال المربع إلا أن يطلع ناحية القلعة والخليفة والسيدة  
 عائشة. قبل أن نتحرك طلبت كتابة أرقام الموبيلات. رشاد للأسف هو  
 الوحيد الذي لم يكن معه. ومع ذلك قال:

- لا تقلقوا سأصرف.

قلت لهم:

- كل من يمر بمستشفى أو قسم شرطة يسأل عنها.. اسمها زينب  
 حسين البنهاوي.

انطلقنا في المهمة نضرب في الظلام والنور دون أن نعرف  
 ماذا تلبس ودون أن تتسلح بالتليفون. ما يطمئني قليلاً أن الشباب  
 يعرفونها جيداً فقد كانت تعلمهم التربية الفنية في مدرسة الحلمية  
 الابتدائية.. عاتبته في قلبي. حالتها تستدعي الحرص وعدم الحركة  
 دون أن يعلم أي منا. الحرية ليست في حالتها ميزة. تكاليفها باهظة.  
 لم أتنبه أن موقفي حساس إلا بعد أن حاولت مجموعة من الشباب  
 التحرش بي. كان يجب أن أستبقي معي واحداً من جيراننا. الليلة هي  
 الليلة الكبيرة لمولد السيدة. من غير المعقول أن تكون قد جاءت  
 إلى المقام. الزحام شديد يستحيل معه أن تبقى حية إذا دخلته مهما  
 كان إغراء صاحبة المقام. ومع ذلك حاولت الدخول وطفقت بحرم  
 المسجد، دقت النظر في مئات النائمين فيه والجالسين حول مواقد

الشاي وباتعي الخروب والكر كديه والعناب وتمهلت عند الشحاذين والدر اويش والمجازيب. انحرفت يسارًا في شارع السد الذي امتلأ عن آخره بموائد يلتف حولها العشرات تنزل عليهم من مطاعم قريبة لحممة الراس والمخ والكوارع والكبدة. المخللات وأشكال متعددة من الحساء. سرت فيه حتى نهايته ثم نفذت من بعض الأزقة إلى شارع زين العابدين.. كل عملي التحديق في كل شيء، وعدت أقف أمام السيدة وأتلفت وأدور في الميدان كله.. دخلت قسم الشرطة وسألت عنها.. فتشت بنفسي مع الصول في المحاضر.

ما إن خرجت من القسم وسرت نحو مائة متر حتى رن الهاتف فأسرعت أرد. قبل أن أنطق بحرف سكنت أذني كلمة «وجدناها». صرخت. كان المتحدث صفوت. انطلقت أجري. تمزقت أنفاسي ووقعت مرتين..

وجدت الشباب أمام البيت ومعهم أمي. عانقتها وبكىنا معًا. قال رشاد الذي لا يحمل تليفونًا:

- وجدتها تجلس على الرصيف أمام جامع قايتباي المحمدي.. قلت لها:

- الحمد لله إنك بخير. قالت: كان بيتنا هنا. قلت:

- لم تتبعدي كثيرًا. هيا معي لأعيدك إلى بيتك. سألتني: هل تعرفني؟.. قلت لها:

- أنت السيدة زينب وأنا رشاد جاركم ابن خليفة الحلواني. تحركنا في اتجاه البيت وبعد خطوات قليلة مر بنا رجل. سألته إن كان معه هوبائل. قدمه لي فاتصلت بصفوت. قال جميل:

- حمدا لله على السلامة يا طنط.

قلت لهم بعد أن تحولت من البكاء إلى الضحك:

- شكرا يا رجاله.

سألتها ونحن نصعد درجات السلم:

- معقول يا أمي تخرجين ورأسك عارية؟

مسحت بيدها على رأسها. لم أفهم إذا كانت قد خرجت فعلاً بدون أي منديل أو طرحة أو أنها فقدته.

- أين كنت؟

- عند جدتي «أم هاشم».

ليست لها جدة اسمها أم هاشم. بسرعة أدركت أنها كانت في مولد السيدة.

- وكيف عدت؟.

- رافقني ولد صغير.

- تعرفينه؟

- لا.. أظنه قال إن اسمه سمير.

ظل أبي - دون أن أدري لماذا - مستبعدًا من حياتها في أغلب الأوقات. تعامله بفتور وصمت وشبه إهمال، أو إهمال غير مكشوف. حالة من الاستقلال أو الانفصال غير المتفق عليه. كثيرًا ما أحاول وضع العلاقة تحت الاختبار. ألحظ كأن أمي هي التي وضعت أصول اللعبة أو عادت الطريق إليها وسوتها على مدى سنوات. حالة لم أسمع عنها بين الأزواج على الأقل في شرقنا العربي، وأبي يدرك ذلك ولا يواجهه. لكنه يبدو أسير تعاسة شبه دائمة كأنه أخذ قرضًا ولم يسدده، ويتمنى أن يظل الدائن صامتًا لعله ينسى الدين ولا يطالبه. والدائن في حالتنا لا يطالبه، ولكن قد يرميه بنظرات غير عابثة أو ربما تعني ألا تتقدم أكثر. يكفيك ما نلت. الأمر الذي يحسم طبيعة المشاعر على وجه اليقين حجرة النوم ومدى قدرتها على إعادة صياغة العلاقة وتوثيقها وتعميقها. كثيرًا ما كنت ألحظ أن أمي لا تكاد تبقى فيها لحظات إذا دخلها أبي. وتسرع بفتح التلفزيون مع أنها تكون قد أعلنت رغبتها في النوم. بعد نصف ساعة على الأكثر يأتيها صوت غطيته وتكون قد تحاملت على نفسها لتبقى في يقظة أو تضطر للسقوط على كنبه الأنتريه، بينما التلفزيون يواصل بث برامجه السقيمة.

حدث عدة مرات أن تجلس في انتظار سماع غطيته أبي ثم تدخل الحجرة لتفاجأ بالغطيط الكاذب، وما أن تصبح بالقرب من أحضانه حتى يحاول ملاطفتها، لكنها تقفز وقد انقض عليها رعب شديد وتتمنى من كل أعصابها المضطربة وقلبها الخفيف المرتعد أن تصب عليه لعناتها، لكنها لا ترى مبررًا لذلك إذ إن له عليها حقوق الزوج الذي لم يخن.



في ليلة قال لها :

- أتمانعين إذا تزوجت أخرى؟

قالت بسرعة وبدون أدنى أسي:

- أبدا.. المهم ألا تأتي هنا.

كان يتمنى أن يستفزها ولما لم تتحرك فيها شعرة قال لها:

- أنا لن أتزوج احتراما لك، لكنني مضطر للتصرف خارج البيت.

كشفت نبرة صوتها رغم ردها الهادئ أنها لم تفكر بما يكفي..

- تصرف.

قال لها مرة:

- أنت مريضة فما ذنبي؟

أطالت التحديق فيه حتى أوشكت أن تحرقه نظراتها النارية.. ثم رمت الغطاء بغضب ساطع، واندفعت خارجة.. انحطت على سجادة الصالون وتكورت في ركن. حاولت أن تقلص المساحة التي يشغلها جسدها.. بعد لحظات تدفق من عينيها نهرا من الجمر السائل. ظل ينهمر ويكوي قلبها الذي أصبح كقطعة عجيب صدئة حتى أنقذها النوم من صراخ جرحها المفتوح. استيقظت على قبلاته واعتذاره الصادق.

\*\*\*

# 4

صداع بشع يدق مؤخرة رأسي بلا رحمة. مخي سينفجر. بؤبؤا عيني  
يوشكان على انتزاع نفسيهما من مقلتي. كل شيء ضبابي. لا أكاد أرى.  
كل شيء مشوش طالما الصداع يفتك برأسي. تحاول مطارقه تحطيم  
جمجمتي. دوي هائل في ردهات رأسي. أحس سخونة شعري وقرب  
اشتعاله. لا بد أن ثمة دخاناً يتصاعد تدريجيًا. لا أستطيع التنفس عندما  
تستبد الحالة ويعصف بي الصداع.

قال الدكتور مينا أستاذ جراحة المخ والأعصاب والعمود الفقري:

- أورام المخ تنشأ عن نمو غير طبيعي في الخلايا. الخلايا السرطانية  
عندك نمت داخل الأوعية الدموية في الأعصاب ذاتها. ومع ذلك قال  
الدكتور وسام كلامًا آخر وقال ثالث كلامًا مختلفًا. أنا غير متفائلة  
بالعلاج. أصبحت غير مقتنعة أصلًا بالحياة. أريد الموت. كل ما في  
الدنيا يشجعني على تركها. ماذا فيها حتى أحرص عليها؟.. الحياة أتفه  
مما كنت أتصور. وأنا لست نافعة لها ولا هي نافعة لي. عاد الصداع.

ألم غير محتمل . عذاب يبحث عن خلاصه من عينيّ اللتين أصبحتا هاليتين من لهب . لا يدرك أحدا ما أعانيه عندما تهاجمني أبالسة الصداع الوحشي . يكفي أن زوجي دائماً في عالم آخر . المساء اللعين يحمل كل هداياه عديمة الرحمة . أنادي الرب فيبعث إليّ بملائكة أشعر بها حولي ، لكنها تتصرف مثل موظفي الحكومة . لا تقوم بأي عمل ينقذ رأسي من نهش الألم إلى أن أسقط مع الفجر .

عجز الأطباء عن وصف الدواء وعجزت المستشفيات عن تحقيق تقدم . الورم يتضخم تدريجيّاً . أحس به كالنمل وهو يتحرك بحشوده داخل تلافيف الدماغ . الورم وحش أسطوري يمضي في سبيله دون أن يعبأ بالدواء أو بصرخاتي ولا بدعائي الدائم إلى الله . أدخل المستشفى وأخرج وقد اشتغلت على رأسي أجهزة كهربائية لأيام دون جدوى .

قال بعض الأطباء:

- يجب أن تساعدنا .

كونسلتو من البلهاء . من قال إنني مستعدة لمساعدتهم أو مساعدة نفسي . جئت إلى الحياة بطريق الخطأ . ولقد خلقت للموت .

أشعر منذ زواجي أنني أسكن غرفة مظلمة عليها حارس شبه ميت . لا أرى ما حولي لكنني أرى أعماقي التي لا تغادرني وتفتح أمامي دائماً صفحات ذكرياتها . مستسلمة أنا ولا أستطيع الفرار ولا أريد . غير قادرة على اتخاذ قرارات جديدة ولست معنية بتغيير حياتي ، لأن

ما يدور حولي لا يحفزني على فعل شيء. لو كان هناك أمل لتحمست للحياة. أفتقد هذا الأمل كما أفتقد نور الحياة. أصبحت عاجزة عن القيام بأبسط الأعمال. مجرد جثة حية. نعم أنا جثة حية.

منذ زواجي قبل اثنين وعشرين عامًا وأنا أشعر أن كل شيء رحل مع نبيل. لم أعرف الحياة قبل نبيل ولا بعده. عام واحد هو ما عشته هو عمر خطبتي لنبيل. الدنيا ليست إلا نبيل.. يتحدث كثيرًا ويضحك ويقبل على الحياة والعمل ويعزف الكمان بشكل رائع. درس في كلية السياحة والفنادق ولم يتحمس للعمل مع والده في ورشة الأثاث في المناصرة. يقرأ الكتب وبالذات التاريخ والآثار وسير العظماء. لكن أكثر وقته بحكم عمله في المتاحف والقصور ومعارض الفن التشكيلي والمناطق القديمة.

لديه دائماً أمل ولا يعرف البكاء فليس هناك من وجهة نظره ما يستحق. كائن لا يعرف التعاسة ولا اليأس ولا الفشل. كان هدية ربي لي فقط لأيام معدودة.

أخذني مرة إلى قصر عابدين وشاهدت بعيونه كل الغرف والتحف والأثاث والنجف. كل ذرة في القصر حتى النباتات في الحديقة اختيرت بعد دراسات ومناقشات شارك فيها علماء وفنانون أجانب. أخذني إلى شارع المعز. مشينا فيه من باب زويلة مرورًا بالغورية حتى باب الفتوح. حكى لي تاريخ كل بيت ومسجد ومستشفى وحمام وسبيل ومدرسة. دخلنا مسجد الحسين وخان الخليلي وزرنا مسجد الرفاعي

والسلطان حسن. شيء بديع. من لم ير هذه الأماكن لا يعتبر نفسه مصريًا. كنت أعتقد أن المماليك مجموعات من الهمج والعصابات. لا هم لهم إلا الاستيلاء على أموال الشعب والتناحر لاختطاف كراسي الحكم. اكتشفت أنني لم أكن موجودة في القاهرة. من البيت للمدرسة ومن المدرسة للبيت. حدثني عن كليوباترة وحتشبسوت ورمسيس ونابليون وجانكيز خان والإسكندر وعمر مكرم وطومان باي.. كلمني كثيرًا عن معنى الإرادة وتأثيرها على الفرد والجماعة كلمني عن أن الجمال أهم شيء في الدنيا وما يفتقد الجمال يجب التخلص منه سواء كان زعيمًا أو فكرة أو مسجدًا أو بيتًا أو شخصًا أو قمامة. كلمني عن الحب. عن الموسيقى والغناء.. كلمني عن مصر.

مصر أجمل بلاد العالم وأغناها لكن حظها سيئ. طول عمرها سحبة حكامها ورجالهم. معظم الذين تولوا أمورهم لصوص أو على الأقل بلا ضمائر.

قال هذا الكلام منذ خمسة وعشرين سنة فماذا يقول لو عاش حتى اليوم؟.

- المصريون في الغالب طوال التاريخ ثلاثة أقسام. قسم مشغول بالسلطة والنهب وتوسيع قاعدة خُدّامه الذين يسهل لهم سبل التدريب على النهب ليكونوا عيونهم وحراسهم. وقسم يعمل بإخلاص وغير راضٍ عما يحدث لكنه لا يملك القدرة على المواجهة أو التصدي، وقسم

لا يهتم إلا بالصلاة والصوم والحج ودع الملك للمالك وأطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم.

طلب مني أن أتعلم طهي الأكلات الشعبية مثل البصارة والكشك والمسقعة والصيادية والكسكسي وكل أنواع المحاشي وأم علي والبسبوسة.. أحضر إليّ من كل رحلة مع السائحين هدية. حمل لي ملابس من بورسعيد وأساور وعقودًا من أسوان وتمثالًا لنفرتيتي من الأقصر وعسلًا من بنها ومشبكًا من دمياط وبلحًا من سيوة وزيت زيتون وزعترًا من مطروح وعباءة عربية مطرزة بالخياط والخرز من العريش.

كنا جيران. والده الحاج صبحي الجمل صديق عزيز لوالدي وأمه حبيبة لأمي. بيتهم وبيتنا يطلان على جامع أحمد بن طولون. مختلف تمامًا عن أخوته. أخوه كامل هو عمود الورشة. تخصص في الأثاث والخشب والأويمة والكتالوجات والبيع والشراء وإنجاب الأولاد، أما مرسي فحكاية مختلفة تمامًا عن أخوته وعن كل الرجال تقريبًا.

آه يا نبيل وألف آه.

\*\*\*

# 5

غلطة كبيرة وقعنا فيها بتفريطنا في سالي التي كانت أهم من الجميع وهي أصغرنا. كان يمكن أن تكون الرفيق الموثوق به والذي يعتمد عليه خاصة أنني لا أستطيع الاستغناء عن المسرح. أشعر كل يوم أنه أصبح حياتي ومستقبلي.

مرت شهور حتى الآن ونحن لا زلنا في بروفات مسرحية «الأم شجاعة».. العمل غير منتظم لأسباب عديدة. مرة بسبب مزاج المخرج الذي يفكر دائماً تفكيرين وبالتالي يضع نفسه في حالة حيرة، يتعذر أحياناً الخروج منها باختيار الأفضل ومرة بسبب البيروقراطية في وزارة الثقافة، ومرة بسبب غياب بعض الممثلين ومرة بسبب التغييرات الكثيرة التي يحاول المعد فرضها عنوة على النص لتواكب الأحداث الجديدة في الواقع المصري، ومرة بسبب تأخر المكافآت التي تؤدي بالبعض للغياب والامتناع عن حضور البروفات، ومرة بسبب المظاهرات التي نخرج للاشتراك فيها أنا وناجي وكل جماعة

6 إبريل . ياه .. وأنا أعدد الآن أسباب عدم انتظام البروفات اكتشفت  
أني أعدد عن غير قصد أسباب عدم انتظام أي شيء .. لا فرق .. مسألة  
جينات كما يقول ناجي .. جينات في الشخصية تنتقل بالطبيعة من جيل  
إلى عاشر جيل ، وجينات في المشاكل تنتقل من نوعية مشاكل منذ  
ألف عام إلى مشاكلنا اليوم ، وجينات في الظروف . و . و .

أحب جداً بريخت من كتاب العالم الغربي وسعد وهبة وسعد الله  
ونورس من الكتاب العرب ، صحيح هناك كتاب كبار من توفيق الحكيم  
لألفريد فرج ومن نعمان عاشور ويوسف إدريس لمحمود دياب  
وآخرين ، لكن السعدين حالة مختلفة .

قرأت كل أعمال بريخت وسبق أن اشتركت بدور ثانٍ في مسرحية  
سابقة له هي «الإنسان الطيب» ، وأنا من اقترحت على المخرج توفيق  
سليمان أهمية تقديم مسرحية «الأم شجاعة» بوصفها ملائمة لمناخ  
سياسي في دول كثيرة من العالم .. مناخ يدفع باتجاه تمكين المرأة  
خاصة في الدول المتخلفة المسماة نامية من قبيل الأدب فقط ،  
وأضفت في شيء من النفاق غير المقزز بأن المسرحية سوف تكون  
خطوة مهمة في مسيرته كمخرج .. أمكنني في يسر أن أحصل على  
موافقته على بطولة المسرحية ، وقد سمعته يشيد بأدائي وتقمصي  
العميق للشخصية إلى درجة بلوغ حالة اللاتمثيل .

بريخت كاتب مسرح ينذر مثيله فهو يأتي بلا جدال بعد العمدة  
الكبير وليم شيكسبير . بريخت صاحب تجربة مسرحية واجتماعية



وسياسية شديدة الخصوبة والعمق لأنه دار في الحوارية والأزقة،  
وارتحل إلى أماكن عدة تتسم في معظمها بالفقر والحرمان وتلتهب  
بالغضب والعصيان، وقد شارك الصعاليك والمشردين حياتهم  
المترات وكذلك الحالين بصباح جديد للبشرية، والغريب أن معظم  
من نبغوا في المسرح بالذات هم من طافوا بالأحياء والبلدات الفقيرة  
واندمجوا مع البسطاء والمعذبين ومن ثم تكونت لهم رؤية ناضجة  
وملهمة لتطوير حياة المهانين ورفض هيمنة المستبدين والمحتلين  
ومصاصي الدماء.

في «الأم شجاعة» سعى بريخت لوضع البطة في مفترق طرق  
لأن الإنسان المعاصر بالفعل كذلك تبعاً لتزايد تبعيته لكل ما هو مادي  
وسياسي. مطلوب منه في كل موقف أن يختار بين أمرين يتنافسان في  
الأهمية. الخيار بين الربح والكرامة.. بين الضرورة والمصير. بين  
توفير ما يلزم للحياة وما يتعين عليه أن يخسره. بين أن تكون أنت أو  
الآخرين.

الأم في المسرحية سواء نجحت في الاختيار أو لم تنجح فهي  
صاحبة موقف جسور، والحياة لا تنحني إلا لأصحاب المواقف  
الجسورة مهما كانت المعاناة بسبب المواجهة والمقاومة وتبديل  
الخطوات والخطط إذا لزم الأمر. إذا لم تستطع تغيير الرياح فليس  
أمامك إلا تغيير الشراع أو تحويله.. الضعفاء فقط هم الذين

يستسلمون لليأس ولمصائر يصنعها الأقوياء أو الآخرون أيًا كانت قوتهم وتأثيرهم.

سألت نفسي وأنا أشحن أعماقي بفكر البطلة.. هل تأثرت في اختياري لمسرحية بريخت واختطافي لدور البطلة برأيي في سلوك أمي.. هل يعد ما أقدمت عليه تقييماً لحالتها واختيارها؟.. هل أنا أدينها لأنها لم تكن بالشجاعة الكافية لترفض ما لا تقتنع به؟.. هل يمكن إذا كشفت لها بوسيلة أو بأخرى عن فكرة المسرحية أن تعتبر اختياري إساءة لها؟.. على أية حال أنا لا أظنها في وضع صحي أو ذهني يسمح لها بالتأمل وتحديد وجهة نظر المؤلف. ولو حدث فأظن أنه من اليسير أن أنكر أن التصور الدقيق للمسرحية مضاد لها. والأهم أنني يجب أن أكون كما أنا بالفعل فكراً ونفسياً ولا أكون كما يريد غيري، ولا يجب التخلي عن أفكاري لحساب السلام الاجتماعي. وحتى لو لم أكن موافقة على ما جاء بالمسرحية ولكني فكراً مقتنعة بضرورة تغيير ما هو قائم فلا بد إذن من السعي لفرض ما يجب أن يكون وليس العمل على ترسيخ ما هو كائن، لأن الانحياز لما هو سائد والاعتقاد بأنه لا جديد تحت الشمس يعنى الذبول والموت، والحياة الحققة دائماً مع التغيير والتطوير ولو بقدر قليل من الجنون والاختلاف. أي لا بد من النقد والثورة.

كتب بريخت مسرحيته بعد الحرب العالمية الثانية 39-1945 لتندد بالحروب التي تدمر الشعوب وتسحق الجوهر العميق للوجود

الإنساني كما أنها تبرز وحشيتها . ولذلك كان حماسي لها لأنني أو من  
 بأن المسرح ابتكره الإنسان ليس للتطهير فقط كما قال أرسطو ولكن  
 للتغيير والتحرير، ولأن بريخت يؤمن بالثورة كما يؤمن بالمسرح  
 فأنا أيضا بريختية، وربما كانت معظم النساء بريختيات يؤمنن بالتمرد  
 والرغبة في التحرر من القيود والأقنعة، والكفاح من أجل معانقة  
 الحقيقة والصدق.

خلق الإنسان ليختلف ويحتج، ومن لا يحتج على القبح والفساد  
 والجهل جاء إلى الدنيا بحسبة خاسرة.

طلعنا في مظاهرة حاصرها الأمن فاكتفينا بالوقوف على سلم نقابة  
 الصحفيين نندد بالانتخابات. أكلنا ضرباً من الشرطة لا يأكله حمار  
 في مطلع أو لص في مولد... شددت الشرطة شعر البنات وجر جرتهن  
 من البلوزات وتعرت مناطق من أجسادهن. لكن بناتك يا مصر لم  
 يصرخن أو يبكين، بل بادلن الشرطة قبضة بقبضة وصفعة بصفعة  
 وبصفعة بصفعة، وهتفن بالصوت الحياني ضد العصابة التي تحكم  
 البلاد. انضم إليهن الشباب وتجمعوا في كتلة واحدة. نزلت الهراوات  
 على الجميع، تجاذب الشباب العنف مع الضباط والجنود المحميين  
 بالدروع والعصي والخوزات المعدنية. اشتد الضرب وتزايدت أعداد  
 الشرطة بشكل غريب دون أن نلاحظ وصول سيارات جديدة. لا بد أنها  
 كانت تقف مجهزة وممتلئة بالجنود في شوارع قريبة ومع أول إشارة  
 يندفعون وهكذا يتناسلون.

لما تزيد حدة العنف وتسيل دماء الشباب وينسحب البعض للعلاج تبدأ الكتلة في التحلل تدريجيًا ويبدأ النقصان ثم التلاشي لكن المهم أن الرسالة وصلت.

كنت قد قمت ببطولة مسرحية فصل واحد كتبها ناجي ومثلها معي ولقيت إعجابًا كبيرًا عندما عرضت في قصر ثقافة الريحاني وعلى مسرح السامر، وحصلت على الجائزة الأولى في مهرجان مسرح الهواة. طلبت بعض المحافظات عرضها لكنني لم أستطع تلبية الدعوة فقد كان متعذرًا ترك أمي وحيدة دون رعاية وخدمة وونس، خاصة أنها تحمل وحدها جبل أساها.

طلب ناجي أن يزور أمي فاعتذرت له بسبب وهن صحتها. قال بحسم:

- سأكون عندكم الليلة في السابعة.

وبعد لحظة قال برقة شديدة:

- لو سمحت.

حاولت التملص من الزيارة، لكنه أصر. أبلغت أمي. أبدت عدم رضاها. حكيت لها ما جرى. حاولت قبل الموعد مساعدتها على تغيير ملابسها وغسلت شعرها وصففته. وضعت على خديها لمسات قليلة جدا من البودرة. مررت على الشقة كلها أحاول ترتيبها فقط. حتى لا تبدو شوهاء وغارقة في الفوضى. جدي الباشمهندس حسين والد ماما كان يقول:

- ميزة الضيوف أنهم سبب ومناسبة للترتيب. يجب أن نفرح بهم  
ونشجعهم على الزيارة.

في الموعد جاء يحمل باقة بديعة من الزهور. عصفور الجنة  
والبيجونيا وأبصال وياسمين وقل وورد بلدي، وبعد أن جلس أخرج  
من جيبه علبة صغيرة من القطيفة الزرقاء. خفق قلبي. لم نتفق على  
هذا. سيتسبب لي في حرج بالغ. لم أقل لأمي شيئاً عن نيته في أن  
يلبس دبل أو ترتبط ولو بصورة رمزية. فوجئت به يقدم العلبة لأمي.  
ففتحتها فوجدت فيها سلسلة فضية معلقاً بها قطعة جميلة من فضة على  
شكل مسجد له قبة كبيرة كأنه مسجد قبة الصخرة في القدس عليها  
من وجه كلمة «ما شاء الله» بحروف بارزة كبيرة وعلى الوجه الآخر  
آية «الكرسي» بحروف دقيقة وبارزة أيضاً أدهشتني دقة من صاغها.  
أشرق وجه أمي بصورة لم يسبق أن كست ملامحها منذ زمن.

ملت عليه وسألته هامسة وباسمة:

- ورثت؟

ابتسم وبعد لحظات قال لها:

- أردت من زيارتي أن أتعرف إلى السيدة التي أنجبت ريم.

هزت أمي رأسها هزة خفيفة ورقصت على شفيتها وفي عينيها

ابتسامة بسيطة تعنى لي الكثير. قالت:

- المهم أن تعرف ريم..

قال على الفور كأنه كان قد أعد كلماته:

- عندما أعرف الأصل فسهل أن أعرف الفرع.

عادت تبتسم، ثم اجتهدت كي تقول:

- قصدك تطبق المثل الذي يقول: اقلب القدرة على فمها تطلع البنت لأمها.

ابتسم وقال بلباقته المعتادة:

- أنا أقصد أن أعدل القدرة.

قدمت له الشيكولاتة. التقط واحدة. قالت أمي:

- شباب اليوم لا يهتمون بهذه الأمور.

- أنا من شباب اليوم لكني أميل لفكر الآباء.

قالت بحذر:

- أبوك وأمك..

- موجودان والحمد لله.

ابتلعت ريقها وسألته:

- ماذا تعمل؟

قبل أن أفتح فمي بكلمة، كان قد قال:

- لم أجد عملاً بعد.

أظن أن وجه أمي علاه اصفرار. أسرعت أقول:

- ناجي يا ماما طلع الأول على كلية الآداب قسم عربي ومن  
المحتمل أن يتم تعيينه معيداً.

لاحظت أن شفتيها شابهما بياض، وشرع كفاها في الارتعاد..

طلبت القيام فعاونتها. وقف ناجي. قالت بوهن واضح:

- شكراً يا بني.

- شكراً لك أنت يا أمي لأنك سمحت بالمقابلة.

ساعدت أمي على أن تتمدد في فراشها وغطيتها حتى صدرها  
بالملاءة كما تحب وسرعان ما ركلت الملاءة. تذكرت أنها لا تغطي  
قدميها فهي على حد قولها لنا كثيراً تتنفس منهما. كنت مضطربة  
قائلاً فنسيت. خشيت أن يكون قد انتقل إليها انطباع سلبي عن ناجي.  
تخللت رأسي الهواجس.

\*\*\*

## 6

اعتاد أبي أن يقضي ساعة على الأقل كل يوم مع الحاج صبحي والد نبيل. يلعبان الطاولة أو الدومينو ويشربان القرفة مع الزنجبيل. مشروبهما المفضل سواء في المقهى أو في أحد الدارين. روحاهما متعانقتان بشكل غريب. ينطق كل منهما بما يفكر فيه الآخر وتكون على لسان الواحد الفكرة ذاتها التي ينوي الآخر بالضبط أن يفاتحه بشأنها.

كثيرًا ما تناولنا في كل بيت طعامًا واحدًا ولا تحصى المرات التي اتفقت فيها الأسرتان على شراء أشياء ولوازم للبيتين متشابهة، وقد يشتري واحد من الأسرتين لو كان وحده اثنين من كل شيء يعجبه أو يحتاجه. التوافق متحقق بصورة غريبة حتى أنهما كانا يشتركان في ذبح عجل واحد في العيد الكبير كأضحية، وقالت أمي إنها كانت تشتري ملابس الأولاد للمدارس والأعياد وحدها ثم يتم توزيعها، وكان الرجلان يذهبان معًا إلى الموالد سواء السيدة أو الحسين، ويذهبان معًا إلى سرادقات العزاء وقد سافرا معًا لأداء مناسك العمرة



والصحيح. لكن أبي رفض أن يناديه أحد بالحاج حسين وفضل الاحتفاظ  
بالاسم مهندس أو: يا أبا شهدي.. اسم أخي الأكبر الذي جعله أبي  
سريته في الورشة. ورحب عمي صبحي بلقب الحاج.

لا أنسى يومًا بعد أن تزوج شهدي من جارتنا غرام ابنة الرئيس  
إمامي سائق القطار أن شكت لزوجها من أمي دون أن نعرف، وحدث  
أن شهدي سافر إلى دمياط واشترى حلوى ومن بينها المشبك الذي  
أحببه، وأهدى حماه كثيرًا منه دون أن يدخل بيتنا، وحدث ما يشبه  
التعقيم على الموضوع. لا أذكر كيف وصلت أمي المعلومة فأصرت  
على إبلاغ أبي. في الصباح طلب أبي من ولده الأكبر أن يدعو زوجته  
وأهلها للغداء يوم الجمعة.

بعد الغداء وتناول المشروبات وتبادل الحديث الذي تخلله الكثير  
من الضحكات قال أبي وقد بدا وجهه أكثر احمرارًا كأنه يجلس أمام  
فرن:

- صلوا على النبي.

قال الجميع:

- عليه ألف صلاة وسلام.

توجه أبي إلى شهدي وقال:

- أنا إذا عشت الليلة ربما لا يطلع عليّ النهار.

دهش الرئيس تهامي وشهدي وغرام وأمها وقالوا في نفس واحد:

- طال عمرك يا أبا شهدي. لا داعي لهذا الكلام.

قال أبي وهو يسوي شعيرات شاربه الصفراء المشوبة بالرمادي:

- له دواعٍ كثيرة.. الموت علينا حق.

قال عم تهامي وهو يقلب يديه وقد بدا عليه الانزعاج:

- ما الحكاية يا باشمهندس؟. يلعن أبو الموت. هو صحيح جندي

من جنود المولى لكن الإنسان طالما فيه نفس لازم يعيش ويعمر  
ويتمسك بالأمل.

- يا ريس تهامي. من المسئول عن زوجتي وأولادي من بعدي؟

أسرع عم تهامي يقول:

- كلنا رهن إشارتهم. نحن أهل.

- من هو أول من يتحمل المسئولية؟

زر تهامي عينيه فتضخم حاجباه الأسودان الكثيفان ورد ببطء

وحذر:

- الجد. الجد. شهدي. ربنا يخليه.

- عداك العيب يا ريس تهامي ولذلك أمامك أقول لشهدي.. أمك

وإخوتك قبل الجميع. زوجتك بتتنا وعلى رأسنا لكن أمك وإخوتك

قبل الكل.

صكت الجميع لثوانٍ، ثم قال عمي تهامي:

- تمام. تمام. إنها الأصول.

بدا على شهدي القلق. حاول أن يكتشف السر. لكنه لم يصل إليه وربما التقطه وفضل أن يدفنه. واكتفى بأن يسأل ونبرة صوته ترتعش:

- هل قصرت في شيء؟

قال أبي:

- لا يا بني.. الحمد لله أنا رببتك على الأصول. لكن كما قال الرئيس تهامي. نحن أهل وأصبح لك بيت وأسرة فما هو موقف أمك وإخوتك من الحسبة؟ كتبت لك نصف الورشة وغداً تكون لك كلها.. فمن شركاؤك؟

هم التهامي بالحديث فمنعه أبي بضغطة من كفه.. قال شهدي:

- أمي وإخوتي.

فأسرع أبي يقول:

- حقوقهم قبل زوجتك وعيالك.

الكل دخل في بعضه. عزم التهامي على الكلام لكنه كان كمن يخشى التوقيع على طلاق ابنته، ثم توكل على الله وقال:

- تمام. تمام.

وقال شهدي:

- في عيني يا باشمهندس وربنا يخليك لنا.

الدموع يومها فرت من عيوني أنا وأمي، وكل ما تخطر الذكري  
على بالي تفر الدموع.

قالت أمي لأبي:

- أخرجت ابنك. هذا كلام يخصك أنت وابنك. ما كان يصح أن  
يكون بحضورهم.

سكت أبي لحظات ثم قال وهو يدس نظراته في عيوننا:

- أخرجته صحيح. لكن طرقت على المسامير وأحكمت الرباط.  
كان لا بد أن تسمع زوجته هذا الكلام في حضور أبيها وأمها. وإذا  
حدث أن خرجت عن الأصول، أبوها يردها.. الزن على الآذان يا  
حاجة صافية أشد من السحر.

الله يرحمك يا بابا. ذهبت وأخذت معك طبع الرجال.

\*\*\*

# 7

بعد عدة جلسات كيماوية رأيت رأسي الصلعاء في المرأة. صخرة  
 مليئة تشوبها بقع زرقاء باهتة. جزر متناثرة من شعر قديم. سألت  
 دموعي. جاءتني الممرضة السمينة الضاحكة أبداً بسبب ومن غير  
 سبب.. مسحت وجهي بقماشة قطنية مبللة بماء دافئ وأخذتني في  
 أحسنها.. قالت بشجن وأسف شديدين:

- ابني كان في القبول الابتدائي.

سألت دموعها وانتفض جسدها تحت وطأة النشيج.. استأنفت:

- أنت أحسن حالاً منه. اكتشفنا حالته متأخرين.

سألت دموعي وقلت:

- ابتلاء شديد.. لم أعرف له سبباً.

جففت الممرضة دموعها وارتدت زي الحكيمة وقالت:

- أمور كثيرة مريرة وقاسية لا نعرف لها سبباً.

- أكيد للمرض سبب لكن الأطباء لم يتوصلوا إليه بعد.

- وأكيد له علاج والطب لم يكتشفه بعد.. كله بأمره.

ربنا خلق الإنسان في كبد. مكتوب عليه يكون دائماً في مهب الريح.. أتعس شيء في الدنيا المرض. امتحان صعب. يقتله وهو حي وقبل أن يقتله يذله. أحبك يا رب لكن ابتلائي عظيم. ابتلائي لم يبدأ مع المرض. ابتلائي بدأ فجأة ليلة الحنة.

البيت كله يشغي بشر. البنات والنسوة يزغردن ويضحكن ويرقصن. الرقص بدأ بعد صلاة العصر. في الوقت ذاته تعاون عدد من شباب العائلتين وأصدقائهم في رسم أرضية الشارع بنشارة الخشب الملونة. فرشوها على مساحة تقرب من عشرين متراً.. رسموا ميكي ماوس كبيراً بطول أربعة أمتار وعرض ثلاثة ورسموا قلوبين كبيرين على واحد منهما اسمي وعلى الآخر اسم نبيل، وكان هناك سهم كبير له سن مدبب يشق القلوبين ويقف وراءه الولد العريان كيوييد إله الحب الذي طالما تمنيت أن يرزقني الله بمثله.

كنا قد كتبنا الكتاب في جامع ابن طولون أمام البيت. شقتنا وشقة عم شتا الرفا وشقة محروس الكبابجي ليس فيها مكان لقدم مملوءة عن آخرها بالنسوة من الأهل والجيران والأقارب ونسوة لا نعرفهن جئن يحملن الحنة. ومنهن من اعتادت أن تجامل العرسان في الأفراح وترقص لهم وتدعي ربه أن تشملهن مشيئته فيلحقن بالعروس ويحصل المراد من رب العباد ويهل النصيب من السرداب المجهول.

وإنهم من تأتي خصيصًا لترقص كي تصرف بعض العفاريات التي  
ليكن جسدها وعقلها.

لطف صواني المشاريب. الكركديه والحلبة والخروب  
والعمر هندي والنعناع، وبين الزغرودة المججلة والثانية تتوالى  
الدعوات للعروسين بالسعادة والهنا والذرية المبروكة، والدعاء  
أن يحفظلها من شر العين والقلوب الحاقدة ومن شر النفاثات في  
العقد ومن شر حاسد إذا حسد. رصت صواني العشاء والكل بنفس  
الطريقة أقبل على الفتة واللحم والكبدة والمحاشي المسقية بحساء  
الطرفان الضاني، وبانت اللية لما ساحت وسالت عروقًا تلمع على  
محدود الباذنجان والكرنب والفلفل الرومي وورق العنب، وعلى  
محدود الصبايا والأكف التي تقطر دسما.. اللسان يدور بالهنا والشفاه  
بقلب الطعام في الحنك ولا يتوقف إلا للكلام والضحك والمعاكسة  
والتهكم والنأورة، وبعد الحمد لله والامتلاء لا يبقى إلا الدعاء الذي  
يستمر بوعي وبغيره. يذهب ويجيء طالع من قلوب صافية تعرف قدر  
أهل العروس الكرماء وأعمالهم ويديمها نعمة ويحفظها من الزوال  
وبيت الأحبة دائمًا بالخيرات عامر.

عادت الأكف بعد رفع الصواني تصفق والخصور تصفق بدءًا بمن  
لم يصيبها الدور أو وصلت حديثًا. كل واحدة تعرف واجبها حتمًا  
تشارك بالتحية من خصرها المخلوع. وإذا لم يكن مخلوعًا من قبل  
فرصة تخلعه الليلة لأجل الحبيبة ست العرايس وفرصة يتم تدريبه،

فالمخسر المخلوع الذي يدرك جيداً معنى الموسيقى والإيقاع والفرح مطلوب لمناسبات عديدة أولها لو فيه نصيب ترقص العروس لزوجها ليلة الدخلة وتحوله إلى ملك يشعر بما امتلك كما تهيج رقصة العروس المشاعر والأعصاب والغرائز وتبذر في القلوب بذرة الحب والأشواق وترفع تدريجياً عن العروس قيود الحياء من الغريب الذي يصبح مع الوقت والعشرة قرين الروح والجسد حتى لتستحي من أختها ولا تستحي منه.

تلتف الشيلان والمناديل حول الخصور التي تنزل بحر الفرح بدلال، ثم يعلو الطبل والتصفيق فتشتعل الخصور وتتلوى وترتج الأرداف. تعلو وتهبط. تبتسم وتزغرد. تفيض وتبوح. تصرخ بالرغبة وتعبر. تنادي وتجأر بالحركة المشبوبة. تحكي عما في النفس من أمانى وما في الجسد من أشواق.

تشارك الخصور أفخاذ عفية، وأقدام تضرب الأرض بقوة حين تحتاج المشاعر إلى تأكيد. أو لفك الطلاسم المعقدة التي حيرت العلماء. تطلب الفك ولو بكسر الأقفال إذا غطاها الصدأ وتغلغل في شقوقها غبار الزمان.. أما الغناء فتقوده امرأة في جرابها عشرات الأغاني. تسحب الواحدة بعد الواحدة حسب الحالة، ولها خبرة تمكنها أن تقود الراقصة بالأغنية سواء كانت من بحري أو من قبلي.. من سيناء أو مطروح، وتعرف جيداً كيف تشعل فيها النار وفيمن سيتلوها.



لما دخلت عليهم شهقت النسوة وقلن في نفس واحد:

- خمسة وخميسة في عين اللي ما يصلي على النبي.

الجميع صلوا عليه وأنا قبلهم صليت على طه الحبيب. وأكدت على النبي للمرة العاشرة أن الله إذا أكرمني بالخلفة سأسمي أول ولد طه والثاني مصطفى والبقية متروكة للعائلتين واتفقت مع نبيل على هذا.

أخذت مجلسي بين الأحبة والضيوف والجيران. كل من دخل الصلاة ورآني قاعدة وسط الهنا والسرور. طيارة بين الطيور. قال: الله أكبر وصلى على النبي وزاد النبي صلاة وسلام.. ليس هناك واحدة تشبهني من داخل ومن خارج. الحلاوة طبقات في قلبي ومثلها في شكلي. فخورة بالعريس والليلة والحاضرين. أتخيل الجنة التي كتبها الله لي على الأرض وأتمناها من قلبي للموعودين. أتذكر جدتي التي قالت تقول لي وأنا طفلة:

- أنت يا بنت بنتي رزقك كثير وتكونين بمشيئة المولى من المسعدين.

تكرر كلماتها المبشرة كلما عدت من مشوار صغير وقد وجدت فرشاً في الطريق أو عندما أدخل عليهم بعد لعبي مع البنات في الشارع وسرعان ما تنحل مسألة كانت معقدة وستتسبب في أزمة.

تقول جدتي على الفور:

- جاءت وش السعد.

كم من مرة لا يدخل الورشة زبون واحد عند الوالد وما أن أذهب لأطلب منه شيئاً للبيت حتى يهمل الزبائن واحداً وراء الثاني فالثالث، فيقبلني أبي ويعطيني ما أريد.

أبكي الآن على كلام جدتي أم على ضياع فرحتي أم على تمام خيبتني، أم على مرضي، أم يا ترى أبكى على فرقة الأحباب؟.

فجأة تبدلت الأحوال لنقيضها. الحناجر التي كانت من قلب قلبها تزغرد، انطلقت تولول وتصرخ، والأيدي التي كانت تصفق أسرع تلتطم، وسقطت الحاجة أنصاف أم العريس مغشياً عليها. أما أنا فقد صمدت بعدها لحظات هي عمر الدهشة والرفض واستنكار الخبر واحتمال الدعابة السخيفة أو الخطأ. أو أنه ليس الموت تماماً ولكن لا زالت هناك في القلب نبضات وفي الروح نسمة حياة.

تصورت أشكالا عديدة لإبعاد الشر المجتاح لكن الضربة كانت قاصمة والخبر قاطع والنهاية لا تسمح بالتفاوض أو المساومة. لم يعد هناك نبيل. زين الشباب رحل تماماً ونهائياً وبلا عودة. ليس مصاباً ولن تجرى له عملية ولا يحتاج إلى نقل دم ولا علاج في الخارج ولا حتى إلى دعوات. انتزعت روحه تماماً من جسده ولم يبق إلا رفات. جسد خامد لا تربطه بالدنيا والناس أية علاقة أو صلة. آه يا نبيل. آه يا بختي. غبت عن الوعي مرة ثم أفقت وأخذت أسأل ثم غبت عن الوعي وعدت إليه وطرحت أسئلة جديدة بحثاً عن أية ثغرة ثم سقطت وطالت السقطة وامتد الغياب.

رحيل نبيل شقني نصفين، وكما عرفت على يديه معنى الحياة  
وروعتها عرفت على يديه معنى الموت وبشاعته.. وكم هو رهيب  
وقدر عشقنا للراحل. وكم هو معذب ومدمر بحجم أخلاق من  
ومعنا، ونبيل سيد الراحلين وأعزهم. وكم كنت أود أن يضمني معه  
في طريق واحد فالموت معه حياة، لكنه أخذ روحي فقط وترك لي  
جسدًا وبعض الذكريات. بالله كيف يتحول منتهى الفرح إلى منتهى  
الحزن؟!..!! كيف يصبح الرقص فجأة قتلاً؟!..!! كيف يصير الغناء  
ولولة ولطمًا؟!..!! أقمنا عمارة ضخمة للحب أضاءت الحي كله، ثم  
لحوت في ثوانٍ إلى ركام وأنقاض ولا يحصى عدد الضحايا.

نبيل كان عازفًا بارعًا للكمان. سمعته عدة مرات في حفلات  
محدودة للسائحين تقيمها الشركة التي يعمل بها وتكون في العادة  
في آخر ليلة لهم في مصر. الغرض منها تكريم الفوج وتعميق العلاقة  
وتشجيع تكرارها وترك أثر ربما يبقى كذكرى طيبة توثقه صور  
فوتوغرافية. كان نبيل يأخذني معه بعد استئذان والدي طبعًا كلون من  
السوان النزهة وتغيير الجو والتعرف على عمله وعلى زملائه وتعريفهم  
بمخيلته زوجة المستقبل.

أجمل الأوقات أقضيها بصحبة موسيقى عبد الوهاب وسيد درويش  
ومحمد فوزي والسنباطي وبلوغ والطويل. لكن عزف نبيل شيء آخر.  
له مذاق مختلف. أحببت بسببه الموسيقى الأجنبية التي ألفها مؤلفون  
كبار لا أذكر منهم سوى بيتهوفن وموتزارت وشوبان. يجعلني أسبح

في الأحلام وأحلق في السماوات وأغيب عن الدنيا والناس. أصبحت عندما أسمع الموسيقى تتهاى روعي ومشاعري وأعصابي بل وجسدي وحواسي لحالة خاصة كأنني مقبلة على محاولة للتنويم المغناطيسي فلا أسمع أي شيء إلا الأنغام ولغة الموسيقى الشجية والبليغة التي تنقلني وأنا كورقة السيجارة أو مندبل بناتي رقيق وشفاف ومعطر إلى عالم آخر بعيداً عن العالم الذي يصرخ فيه الناس ويتصارعون. عالم هابط في لغته وسلوكه وجنونه. عالم تهرب منه الطبيعة الهادئة وما فيها من جمال ليبقى فيه صوت المادة والشهوات والغرائز والامتلاك والمناصب والأنانية حيث تهيمن الدنيا بمطالبها ومخالبها وتنافسها الضاري.

رغم أنني كنت مدرسة تربية فنية في مدرسة الحلمية الابتدائية ودوري أن أعلم التلاميذ الرسم، لكنني بعد أن عرفت نبيل تمنيت لو درست الموسيقى لأعلمها للأولاد في المدرسة وفي الشوارع والحواري، وأدعوهم لعزفها في محطات السكك الحديدية والمترو والمدارس ومراكز الشباب والنوادي والجامعات والمستشفيات والبيوت.. ليس غريباً أن تكون هناك أوقات للموسيقى في السجن كوسيلة من وسائل علاج المجرمين بدلاً من الضرب والتعذيب وإهدار الكرامة التي بسببها يخرجون إلى الدنيا وهم محملون بكم كبير من الكراهية. الموسيقى تستطيع أن تحول عقول الأولاد وأرواحهم إلى كيانات تحب الخيال وتعشق الجمال والتسامح والميل للصمت والاستماع.

أنا متأكدة جدًا أن السبب في تعثر خطط التنمية لدى البلاد المتخلفة هو الابتعاد عن الموسيقى ومحاولة التخلص منها.

حكى لي نبيل عن سبب حبه للموسيقى. قال:

- كنت أسير في يوم بعد الغروب في شارع بورسعيد بعد انتهاء المحادثات الثانوية، كانت السيارات قليلة والهواء صاف ونقي وقليل من النسائم ترطب الجو. فضلت العودة إلى البيت سيرًا على الأقدام. وأمام فيلا قريبة من مستشفى أحمد ماهر سمعت صوت موسيقى ناعمة. توقفت رغبًا عني. أنصت للعزف الجميل. الموسيقى صادرة من بيانو والعازف لا بد ماهر وخبير. ظللت واقفًا ونسيت تمامًا أوامر والدي بالعودة بسرعة. نسيت إيراد اليوم الذي سلمه لي عمال الورشة. لمحت واقفًا أستمع وأستمع بالموسيقى التي لم تصحبها أغان. لا أدري لماذا أحسست أن هذه الأنغام تصدر عن موجات رقيقة على سطح بحيرة يداعبها النسيم وتصنع دوامات صغيرة وطبقات من الألحان المبهجة وأنها تلتقي بموجات أخرى قادمة من الجانب الآخر من البحيرة وتتعانق جميعها ثم تمضي معًا نحو بؤرة ما أو في اتجاه مركز هو قلب أو روح البحيرة. ولا أدري لماذا رفعت رأسي للسماء فمخيلتها تنصت والشمس تلكأت في نهاية الأفق البرتقالي واستراح الغروب على خدود الموسيقى. أظن أنني أحببت نبيل في هذا اليوم الذي حدثني فيه عن الموسيقى. قلت له وأنا أسبح معه بإحساسي فقط على سطح بحيرة الموسيقى وقد غاب جسدي:

- مستحيل ما تقول.

- ما المستحيل؟

تولاني الشرود ولم أجد إجابة لسؤاله ولم أعثر على تفسير لما قلت.. بعد لحظات سألته:

- وهل هذا الموقف فقط هو ما جذبك إلى الموسيقى؟

- نعم. دفعني للبحث عنها بأذن جديدة وإحساس مختلف. كلما سمعت عن عزف موسيقي في صالة أو قاعة أو قصر ثقافة ذهبت إليه.

- ولكنك تعزف على الكمان وليس على البيانو.

- لم يكن باستطاعتي شراء بيانو بالإضافة إلى عدم توافر مكان مناسب له. فضلت شراء كمان وتدربت عليه مع زاهر صديقي الذي كان خاله عازفًا في الأوبرا. بقينا معًا شهرين تقريبًا لكنني لاحظت أن زاهر غير متحمس بدرجة كافية وانسحب من التدريب وعزمت على الانسحاب حتى لا يتبرم خاله، لكن الرجل دعاني للاستمرار قائلاً:

- أنت موهوب وتستحق المساعدة والرعاية.

كان يصحبني لكل مكان يعزف فيه، وعزفت معه في حفلين خارج الأوبرا وتنبهت ألا أكون محترفاً وأظل هاويًا فقط. الهواية متعة ومزاج وحرية.

شرد نبيل قليلاً ثم قال:

- بعد عام تقريبا رأيت من اللياقة أن أزور البيت الذي لفت نظري للموسيقى.. كنت أشارك في بروفات لحفل يتضمن بعض سوناتات الكمان لباخ وبعد التدريبات مررت بالفيلا.. فتحت الخادمة فسألت عن صاحب الفيلا. اختفت لحظات وسرعان ما ظهر رجل أنيق وطويل وباسم تتسلل بعض الشعيرات البيضاء إلى شعره الناعم الكثيف. عرفته بنفسه قائلاً:

- شخص غريب لا تعرفونه.

- أهلاً وسهلاً.

- كنت أمر هنا منذ عام وسمعت عزفاً للموسيقى يصدر من الفيلا فأعجبني جداً لدرجة أنني وقفت طويلاً أسمع وبعدها قررت أن أتعلم الموسيقى وقد جئت اليوم لأشكركم على العزف الجميل الذي أثر في حياتي وشخصيتي.

أرسل نظرة خاطفة لحقيبة الكمان التي أحملها.

استدرت لأنصرف فأصر الرجل على دخولي وهو يقول:

- عليك أن تقدم الشكر بنفسك لمن عزف.

- أليس حضرتك؟

- لا.. إنها المدام.

- ولكن.

- من الصدف الجميلة أننا بالداخل نحتفل بعيد ميلادها.

ابتسمت، وشعرت بالارتباك .. قلت:

- لم أكن أعرف. اسمح لي أغيب عنكم لحظات حتى أحمل إليها

باقة من الورد.

قال الرجل الأنيق في ملابسه ولغته ونبرات صوته:

- أنت بالفعل تحمل باقة ورد رائعة.. أرجوك تفضل.

كنت في العشرين وكانت قد تجاوزت الثلاثين بقليل.. طويلة ونحيلة وجميلة.. هناها بعيد ميلادها وتمنيت السعادة لها وللعائلة كلها والأحباب.. حكيت لها قصتي مع الموسيقى التي أحببتها من عزفها، وتفوقي فيها خلال زمن قصير.. كان هناك عدد من الحضور الراقبي.

- إذن أسمعنا شيئاً لنعرف إذا كنت قد تفوقت أم لم تسمح

الظروف.

قال أحد الحضور وكان سميئاً وله شارب مبروم أسود على وجه مستدير ضخيم ومتورد وييده كأس في قاعها بقايا قليلة من خمر ذي لون عنابي. أيدته بعض الأصوات.. شعرت فجأة بالارتباك. أنا أعزف أمام العرب والأجانب دون اضطراب، فما الذي أصابني. انشغلت بفك سوستة الحقيبة.. أخرجت الكمان وعدت أنظر إلى



الرجل السمين بوصفه من ورطني وأنا غير مستعد.. لمحته يفرغ ما  
بالكأس ويصب فيه مجددًا من زجاجة لها جسم أنثي. أخذت نفسًا  
عميقًا.. وثبتُّ الكمان في موضعه على كتفي الأيسر وتحت خدي،  
وما أن أحكمت أصابعي العشرة عليه وعلى القوس حتى نسيت  
المضور وتخيلت نفسي في الأوبرا وانطلقت أعزف بعض القطع  
لباخ ومندلسون، ولمحت الجميع بإذني صامتين ولما توقفت انطلقوا  
بمفقون بحرارة، واقترح أحدهم أن نعزف معًا.. أنا والسيدة شرويت  
وروجة القبطان نجم الدين.. سألتني عما أحب أن أعزفه معها. قلت:

- إنه عيد ميلادك ، ولك الاختيار.

ابتسمت وقالت بمنتهى الرقة:

- مرسي.

اختارت قطعتين لعبد الوهاب والأخوين رحباني.. كان اختيارًا  
موفقًا لأنه الأقرب لمشاعر وذائقة الحضور، وتعالى التصفيق بعد أن  
التهينا.. طلب البعض قطعًا أخرى وحاولت الاعتذار بحجة الإجهاد  
لكنهم أصروا فقلت:

- سأعزف أغنية «عقبى لك يوم ميلادك يوم ما تنول اللي شغل  
بالك» لعبد الحليم وأهديها بالطبع للفنانة القديرة مدام شرويت  
وأرجو أن تشاركني.

رفعوا أصواتهم بالإعجاب بينما كانت السعادة الغامرة واضحة على وجه القبطان والسيدة زوجته، وأسعدني عدد من الحضور بتحياتي وتشجيعي بالكؤوس.

أصر القبطان على أن أشاركهم العشاء فرفضت وفوجئت بالخادمة تتقدم مني وأنا خارج بصحبة القبطان بلفافة رفضتها على الفور لكن القبطان والسيدة زوجته التي لحقت بنا ألحا بضرورة القبول فقبلت دون أن أعرف ما فيها إلا بعد وصولي البيت.

قبل الحنة بأسبوع كنت معه في حفل مع بعض السائحين في قصر الأمير طاز على بعد خطوات من بيتنا. كانت أول مرة في حياتي وآخر مرة أشرب فيها بيرة.. لم يطلب مني نبيل أن أشرب ولكنها مدام نورهان زوجة الأستاذ سليم صاحب الشركة. عزف نبيل قطعاً موسيقية بديعة أوصلتني لحالة من النشوة. أجمل ليلة عزف فيها لدرجة أن عيوني أخذت تريق الدمع سعادة وإعجاباً به بوصفه رجلي. هذا الفنان الرائع يخصني وعندما يطير ويحلق أكون بالطبع طائرة معه ومحلقة. لكن هذا لم يمنع لمسة غيرة من أن تعبر نفسي وأنا أراه يعانق الكمان ويضع خده الأيسر عليه. برقة شديدة تحمل أصابع كفه اليمنى القوس وتمر به صعوداً وهبوطاً وتمائلاً كساحر يحاول أن يستنطق الجن المختبئ في بطن الكمان الخشبية الصغيرة ورأسه مع القوس مغمض العينين. أحياناً يغوص ويذوب مع النغم وينسى الحاضرين وينساني، وأنا ما بين الإعجاب والغيرة نشوانة. حالته كانت غريبة

لدرجة أن كل الحاضرين من الأجانب نهضوا ليرقصوا ويتعانقوا.  
بهادون برقة وصمت كأنهم في ذكر ناعم، أو كأنهم امتلكوا القدرة  
على الرقص فوق مياه نهر وديع.. حالة غريبة شملت الجميع، وتمنوا  
وأنا معهم ألا يتوقف.

لما انتهى الحفل سرنا معاً. يدي في يده. قلبي على قلبه. والأرض  
مغمورة موجودة. ما زلنا كما كنا نسير على الماء. لا نحس بالأصوات  
المختلطة التي تتناهى إلينا، ولا نتنبه للقطط التي تتقافز هنا وهناك.  
ولا بأصوات نزول الأبواب الصاج لبعض المحلات التي تأخرت في  
السهر.

أمام شقتنا الجديدة المبيضة جدرانها حديثاً وتقع على بعد خطوات  
من سبيل أم عباس تطلعنا إليها كأنها عيش للعصافير فوق شجرة عالية  
للدلى زهورها وتنتظر سكانها حتى يعودون من رحلة في الفضاء  
العريض. وقفنا لحظات نتجرع نسيم الليل في انشراح لا يميل أحدنا  
لشرك صاحبه. كيف يتركه و المساء الساكن يشجع على البقاء في  
أعضانه إلى نهاية العمر.. أحسست أخيراً بأن نبيل يسحبني ويقول:

- تعالي نلقي نظرة أخيرة عليها. الأسبوع القادم كله عندي عمل  
كثير. أريد أن أسمع رأيك فيها قبل الدخلة. أكيد لك ملاحظات.

لم أفكر ولم أزد وأكاد ألا أكون قد سمعت شيئاً. تحركت معه  
بإهانة ورضا، وربما دون أن أحس. فجأة تعثرت في حفرة. سقطت  
أصناف سقطت. هبطت على ركة واحدة واستندت على كفي اليمنى.

ازدادت قبضة نبيل على كفي اليسرى التي كانت في يده منذ خرجنا،  
رفعتني. نفضت كلوش ثوبي الذي كان قد افترش الأرض في دائرة  
ونامت عليها رسومه الفوشيا والكحلي التي تستقر على خط ذهبي في  
ذيل الفستان السيمون. لم أتمكن في البداية من السير باعتدال. قال  
نبيب باسمًا:

- تحبي أشيلك.

ابتسمت وقلت:

- في الشارع؟

قال بثقة:

- نعم في الشارع. زوجان يا ناس.

- بس يا شقي.

احتضنني واختطف قبلة من خدي. نظرت إليه بحدة ناعمة تكاد  
تشجعه على تكرار ما فعل. قال وهو يدور حولي:

- الخد الثاني سيأخذ على خاطره مني ولا أسمح لنفسني أن  
أغضبه.

أنلته خدي. قبلني قبلة أطول قليلاً أظنها كانت ستطول أكثر لولا  
القطعة التي قفزت فجأة من صندوق القمامة.

سرت معه وروحي تحلق بداخل صدري وقد نسيت السقطة.

دخلنا الشقة ومضينا ننظر إلى كل شيء. أول مرة يقبلني قبلة طويلة. كان من قبل يخطف من خدي وشفتي قبلات سريعة وعابرة كأنه يسلم عليّ أو يودعني أو يحييني أو يضع في يدي شيئاً. أنا لا زلت كما كنت في الحفل. كنت ولا زلت في قصر طاز نائمة وحالمة. مضى يعزف على شفتي وفي قلبي وفي جسدي كله لحنًا ساخنًا وساحرًا.. قال:

- ربما كانت هذه آخر قبلة قبل أن ندخل بصفة رسمية عش الزوجية.

هزرت رأسي هزة خفيفة.. قال:

- أريدها أن تكون قبلة ممتدة لنهاية العمر.

بالكاد قلت:

- بل قبلة تكفي الأسبوع القادم فقط.

سكت الكلام وعاد يقبلني وأنا لا أود أن يتوقف أبدًا. ما الذي أتمناه أكثر من أن أكون في هذه الحالة. يذيني في موسيقى قبلاته وأحضانة العاشقة. لمحت صورتي الكبيرة الجميلة التي أصر أن يجعلها أكبر ما بلغت في حجرة النوم. كنت في ذروة السعادة.. قال:

- انتهيت من تأليف قطعة موسيقية بعنوان «عيون زينب».

كأنه كان يقرأ أفكاره فقد كنت في الثانية نفسها أرنو لعيني في العسورة، وتذكرت قول الكثيرين من أهلي بأن عيوني أجمل ما فيّ،

والحقيقة أن أجمل ما فيّ كان قلب نبيل الذي أصبح جزءاً أساسياً من طبيعتي وتكويني.

عشنا لحظات أو سنوات أو أعماراً لا أدري مداها. سافرنا في الخيال إلى بلاد لم أكن أعلم عنها شيئاً ولم أعد لزيارتها حتى الآن. خلقت لنا لتبادل العشق فيها ثم تم محوها. ومحونا.

كان الحفل المقام لفوج من السائحين اليابانيين بعد غروب ليلة الحنة في فندق صغير بمصر الجديدة. انطلق نبيل يعزف ويتجلى ويبدع بما أعجب الحاضرين وأثارهم وأنعش أرواحهم بالبهجة الأسطورية التي اعتاد عزفه خلق عوالمها. التقطوا معه الصور، ثم دعاهم الأستاذ سليم لتناول العشاء. **اعتذر عن عدم قدرته على الانتظار بسبب حفل العائلة بليلة الحنة. سألوا عن معنى هذه الليلة. وصفها لهم فهللوا وباركوا وودعوه بالأحضان والقبلات والشكر. هم ودّعوه ولم أودعه. من جاءوا من أقاصي الأرض قبلوه وعانقوه ولم يسمح الموت البشع بأن أضمه إلى صدري لحظات قبل سقوط المقصلة.**

اصطحبه صديقه بسيارته، وعاد مسرعاً عبر الطريق الدائري، وفي منتصف الطريق أفلتت فجأة عجلة القيادة من الصديق ومن الحياة وهرب المكان والزمان. انزلت السيارة فوق بقعة زيت فدارت السيارة باندفاع جنوني حول نفسها عدة مرات وارتطمت بسيارة نقل ضخمة بمقطورة. سيارة النهاية اللعينة وبقعة الزيت التي وضعها الموت خصيصاً لاستدراج عمرنا الجميل وقلبه حتى تفحم. بقعة الزيت

انطلقت رجلي . بقعة الزيت قضت عليه وعلي . بقعة الزيت لم تكن على الأرض ، لكنها كانت محمولة على طائر ضخم أطلقته السماء على البشر . طلقة كالقدر . كالمصير . بقعة الزيت فعلت ما لا يفعله الزلزال . بقعة زيت هربت من الجحيم تتعجل مهمتها لتسفك حياة عبيد أو شكا على معانقة شمس الآمال الكبرى ، ودنت خطواتهما من قمة جبل الاكتمال حيث لا أحد إلا الله والجمال والحب .

بقعة الزيت عرت كل شيء وكشفت ما تحت السطح اللامع . بقعة الزيت الممتدة بعرض العالم مدفونة في سراديب مظلمة لتتخمر وتتفش وتنمو وتمدد وعندما تهم بالتحرك في كافة الاتجاهات يحدث في كل شيء تشققات وتصدعات طويلة وقصيرة . كبيرة وصغيرة . بقعة الزيت . الظلم اسمه الأصلي بقعة زيت والكراهية واللعنة والحقد ومنتهى الألم بقعة زيت . الموت ولد وتربى في بقعة الزيت . الشيطان اسمه بقعة الزيت . نهاية العالم ستحددها بقعة الزيت .  
 يا رب لماذا كانت بقعة الزيت ؟!!!!

\*\*\*

## 8

كنا في المستشفى مع أمي وقد ساءت حالتها جدًا.. فوجئت به عندما لمح بكائي يتأثر وينفرط هو الآخر في البكاء إلى درجة خروجه إلى الممر وسند رأسه على الحائط. استمر في البكاء وأنا من يحاول تهدئته، إلى أن قال:

- عرفت والدتك وأحببتها.

رأى والدتي مرتين بعد المرة الأولى، والمرتان كانتا في المستشفى بعد جلسات الكيماوي.. قال في آخر مرة وكان أبي موجودًا:

- صحتها تتراجع بشكل واضح.

بدا أن أبي يعرفه ويعرف أباه. قال أبي:

- عمه رشوان زميلي في المحافظة، وكان ناجي وأبوه قد جاء إلى عمه لإنجاز بعض الأعمال. أبوه رمضان الورداني يعمل في الشهر العقاري لكن درجه مفتوح.



لم أفهم معنى جملة «الدرج المفتوح». سألته فقال:

- ربنا ستار.

انزعجت من الطريقة التي تحدث بها أبي عن عم رمضان. عدت أسأله. قال:

- يُخَلِّص مصالح مقابل منافع.

زاد انزعاجي لكنني كبحت ثورتي:

- الناس تتكلم عن يعرفون ومن لا يعرفون وكثيرًا ما يكون الكلام غير حقيقي.

- عدة زملاء أكدوا ذلك. اثنان منهم دفعا له رشاوى وحتى لو كان مجرد كلام فلا دخان دون نار.

- هل دفعا له في يده؟

- عن طريق وسطاء.

- ومن أدراهما أنه تسلم الرشوة؟

- على الأقل هو صاحب القرار فكيف حصل كل منهما على ما يريد وهو مخالف.

تنهدت واسودت الدنيا في وجهي.. قلت:

- تجربتك أكبر من تجربتي يا والدي لكنني متأكدة أن معظم ما يقال إشاعات.

- جميل منك أن تدافعي عن زميلك، لكن المودة لا تمحو الحقائق.

- الحرامي بدون دليل ضده باشا.

- هل تعرفين أن ناجي تربية ضراير؟

- ماذا؟

- ناجي تربية ضراير.

- لا أفهم.

- رمضان والده متزوج من امرأتين وتعيشان معًا في بيت واحد، وقد أنجب ثلاثة من كل امرأة.

داهمتني الدهشة وشملتني سحابة من غضب، فلم يذكر ناجي شيئًا من ذلك.. تنبّهت بعد لحظات أن أبي يستطرد في كلامه ولحقت منه:

- إذن تشارك الضراير في تربية ناجي وأخوته من بعده.

سحبني عقلي وراءه وهو يفكر في معنى المعلومة ونتائجها وأهميتها، من جديد انتبّهت أن أبي ما زال يتكلم:

- المثل يقول: المتزوج من اثنتين يا قادر يا فاجر، فكيف يكفيه الراتب الشهري؟

قال أبي قاصدًا بالطبع إنهاء الحديث الذي لاحظت أنني أقاومه بكل صلابة:

- ليس لنا مصلحة لديه وربنا يهدي عبده.

مجموعة من الطلقات واللكمات تتوالى على رأسي وظلت ماثلة لي عقلي لعدة أيام.. تروح وتجيء مثل أسد جوعان في قفص.

تجاهلت الكلية ناجي أول الخريجين وعينت الثاني والثالثة معيدين. بعد البحث والتنقيب في المستور والعبور من الأبواب المغلقة إلى كواليس القرارات تبين أنه استبعد لأسباب أمنية، إذ وجدت في ملفه تقارير عن أنشطة معادية للنظام.

كان ناجي قد علم بالخبر منذ عشرة أيام ولم يصرح لي به. ففهمت سر بكائه الزائد على أمي. هو لا شك حزين عليها لكنه حزين أيضا على نفسه لضیاع فرصة ذهبية لاحتلال منصب علمي يسهل الصعود إلى الدراسات العليا من خلال الجامعة. وإذا قرر الالتفات للدراسة فسوف يتحمل كل النفقة دون وظيفة، وإذا كان عليه أن يعمل في مجال التدريس فلن يكون غير مدرس في مدرسة إعدادية أو ثانوية.

لم تتح الفرصة أو لم أجد داعيًا أن أسأل نبيل عن صحة ما قاله أبي.. وبمرور الأيام تراجعت أهميته في نفسي.

تجمعنا نحن شباب 6 إبريل وخرجنا في مظاهرة كانت هي الأكبر منذ بدأنا توسيع مواجهتنا للنظام المستبد الذي تعفن من كثرة الفساد والتخلف رغم علمنا أن وزارة الداخلية استوردت أجهزة وآليات وسيارات حديثة تستطيع فض أية مظاهرة في دقائق. زاد ارتباطي

بالحركة منذ ماتت أمي، وكان وقت أبي ما بين عمله بالمحافظة وبين المقهى، بينهما غداء وقيلولة. قد يذهب لرؤية سالي إذا تذكر وقاد تحول إلى إنسان شبه آلي حتى أنني دهشت عندما خرج في مرة وأغلق الباب وراه ثم عاد ليقول:

- كفاية مظاهرات يا ريم.

قلت في محاولة للمداعبة:

- اطمئن يا بابا أنا 6 إبريل ولست كفاية.

لم يلتقط الدعابة أو ربما لم يهتم لأنه قال:

- المظاهرات خليها للشباب.

واضح أن أبي مشغول بأشياء أهم من أحوال الوطن وأهواله. واصلت معاكسته:

- رأيك أنني بلغت سن التقاعد. أنا من الشباب يا والدي.

- أقصد الرجال.

- الوطن ملكنا جميعاً.

سكت وبقيت صورته ونظراته ثابتة كأن الكهرباء انقطعت عن الأجهزة، ثم عادت الكهرباء فخرج دون تعليق.

\*\*\*

جذبني الضابط من شعري وهو يقول:

- لماذا لم تتزوجي حتى الآن وتريحينا من شكل أمك؟!؟

بكل قوتي أزحت يده من شعري إلى درجة أنه اهتز وكاد يختل  
أوزنه فلطممني على خدي، وقال:

- الشراميط أمثالك لا بد يكون لهم حاكم.. أبوك أو أخوك لا بد..

فجأة قفز ناجي بيننا وانطلقت قبضته في وجه الضابط، وهو  
يقول:

- قطع إيدك.

في لحظات كان عشرة من الجنود يهجمون على ناجي ويختفي  
لحمهم ويضربونه بكل قوتهم وشراستهم المخصصة فقط للدفاع عن  
الظلام وضباطه. اخترقتهم وحاولت حجزهم وتلقي بعض ضرباتهم،  
لكنهم حملوني كحمامة وألقوني بعيداً، ولم أدر ما جرى بعد ذلك.

أفقت فوجدت نفسي في مدخل عمارة وبعض شبابنا حولي  
يخبطون خدي برقة وينادونني. صرخت:

- ناجي. ناجي.

حاولوا تهدئتي. قالوا:

- اطمئني. إصابات بسيطة. حملته الإسعاف إلى المستشفى.

- أي مستشفى؟

- لم نعرف بعد.

قال أحدهم بسرعة:

- تركناهم للاطمئنان عليك. سوف نسأل الآن.

حاولت النهوض. أحسست بعظامي تعجز عن حملي. تذكرت الرمية التي لا بد حطمت عظامي. حاولت القيام مجددًا. أصر الزملاء على مرافقتي حتى البيت. رفضت العودة حتى أعرف مكان ناجي وحالته. أقنعوني بضرورة الراحة، ووعدوني بالاتصال ونقل أخبار ناجي إليّ أولاً بأول. كان من بينهم طالب في السنة الأخيرة بكلية الطب. ركبت خلف شهاب على دراجته النارية.

عدت إلى البيت لأكتشف ضياع الموبايل. كانت الساعة الواحدة ظهرًا. لن أستطيع الراحة إلا بعد أن أعد غداء بسيطًا لأبي. أمامه ساعة ونصف على الأكثر. بسرعة أخرجت كيس لحم مفروم، وعجنته بمفروم البصل والتوابل وتركته بعض الوقت حتى أعد المكرونة، لست أدري السرف في أن أهلنا الشوام ينطقونها المعكرونة.. أثناء سلق المكرونة جهزت طبقًا من السلطة الخضراء. سأكون جاهزة يا أبي حول الثانية.

كيف سأطمئن على ناجي وقد ضاع الموبايل والأرضي لن يفيد. بعد الغداء أنزل إلى كشك الشربيني وأطلبهم من تليفونه. لكن الأرقام على الموبايل. ربنا يستر وتكون الإصابات طفيفة. جلست على

اللاب وأرسلت إليهم رسائل عاجلة لطلب إفادتي عن الأحوال. ساعدتني أمي بمبلغ كبير لشراء هذا الكمبيوتر.. ما كان بالإمكان أن تستمر الحياة بدونه. فتحت حسابًا على الفيس بوك. أول رسالة وصلتني كانت:

«قررت النساء في مؤتمر عالمي تجربة طريقة بسيطة لمعاقة الرجل، انتهين إلى اتخاذ خطوة قوية ضد الرجال بتوقف الزوجات عن الطبخ، ثم تابعن التجربة وكانت النتائج كالتالي:

المرأة الأمريكية قالت: في البداية لم يحدث شيء ولم أشاهد أي تغير وبعد ثلاثة أيام قام زوجي بالطبخ، وقالت الفرنسية: لم أشاهد أي تغير، وبعد ثلاثة أيام دعاني لتناول الغداء في مطعم، وقالت المرأة العربية: في البداية لم أشاهد شيئًا، وبعد عشرة أيام بدأت أرى قليلًا بالعين اليمنى فقط.

علقت على الرسالة بقولي: هذه المرأة العربية سيدة مرفهة، بعض النساء العربيات لا يتمكن من المشاهدة حتى نهاية العمر».

وصلتني بسرعة عشرات التعليقات المماثلة وبعضها بالطبع كان مسليًا وفكاهيًا.

\*\*\*

لست أدري هل انتهى ناجي من المسرحية الجديدة التي يكتبها أم لا.. لم يحدثني بشأنها مع أننا كنا معًا منذ ثلاثة أيام. التقينا أمام تمثال

نهضة مصر ثم تحاشينا المرور أمام السفارة الإسرائيلية ومشينا في شارع مراد حتى السفارة السعودية ومن هناك مضينا مباشرة إلى كافيتريا على النيل بالقرب من كوبري الجامعة.. تكلمنا تقريبًا في كل شيء..

- صدفة جميلة.. أنا وأنت من مواليد يناير. هل كنت تحبين أن تولدي في شهر آخر؟

- ليس المهم الشهر أو اليوم أو البرج. المهم أن يعرف الإنسان طريقه مبكرًا قدر الإمكان ويمتلك الإرادة التي تحمله إلى هدفه.  
- أنا سعيد لأنني عثرت عليك في الوقت المناسب.

- وما سبب السعادة؟

- متماثلان تقريبًا في كل شيء.. نحب المسرح. مواليد يناير شعورنا الثوري وإحساسنا بالبلد. جيران. ظروفنا متشابهة.

ضحكت فسأل بعينه عن السبب، قلت:

- نسيت أننا نحب الأيس كريم.

- تمام.

لمح نادلاً طويلًا جدًا يقف بعيدًا فطرق أصبعيه الإبهام والوسطى، ظهر فجأة من بين الموائد القريبة نادل آخر قصير جدًا مما أثار دهشتنا. طلب ناجي الأيس كريم.. عدنا إلى ما كنا فيه من حديث يدغدغ قلوبنا.. قلت:



- وأنا وأنت معًا في 6 إبريل.

الشغل بالبحث عن سمات مشتركة.

سألته:

- وماذا أيضًا؟.

- نحب الأكلات الشعبية.

تأملت المسألة لحظات ثم وافقته وأضفت:

- والأمثال الشعبية والفنون الشعبية.

- لا أتفق مع كل الأمثال.

- أنا مثلك لكنها قليلة تلك الأمثال المحببة والتي تشجع على

المخوع، وقد ألفها فريق عاشوا ظروفًا صعبة.

- لا تلتمسي لهم العذري يا ريم.

- لا يجب تجاهل الظرف التاريخي.

- على الشعوب وخاصة النخبة مقاومة الظرف التاريخي الذي

يشارك المستبدين في إذلالهم.

سرني أن يقول هذا الكلام.

قفزت أمي فوق مسرح عقلي.. قالت لي كلاما مثل هذا الكلام:

- لا تخضعي للظروف مهما كانت الضغوط. حاولي اتباع أفكارك التي تكونين قد اقتنعت بصوابها وتأكدت تماما أنها لصالحك، أرجوك يا ابنتي لا تسمحِي لأحد أن يلوي إرادتك. أن يقف أمام أملك وهدفك ومستقبلك حتى لو أبوك أو أمك.

حرك يده أمام عيني وسأل:

- إلى أين ذهبت؟ .. هل التقينا لأكلم نفسي؟

تنبّهت إلى ناجي. ابتسمت:

- أسمعك.. هيا أكمل.

- لم تكوني معي ولم تسمعي شيئًا لكني سأدعها تمر هذه المرة، فحذار في المرات القادمة ثم حذار.

لم أستطع أن أمنع نفسي من الضحك. ضحك ناجي ثم قال:

- أنا مثلاً أحب سيد درويش جدًا لكني أصاب بحالة هياج عندما أستمع إلى أغنية له في أوبريت لا أذكر اسمه يقول فيه: عشان ما نعلی ونعلی ونعلی لازم نطاطي نطاطي نطاطي.. مستحيل.. حتى لو كانت الأغنية على لسان شخصية وصولية متعفنة من شخصيات الأوبريت.

- من الطبيعي أن تنطق الشخصية بما يلائمها وما يعبر عن فكرها لكنك تحاسبها معزولة عن مصدرها.

- قلت أنا مقتنع أنها تعبير عن لون من البشر. لكنني مستفز من تركيب العبارة بهذا الشكل.

لقد حدث لك ما استهدفه المؤلف وقد نجح في تبليغ رسالته  
وهي التقزز من مجرد العبارة فما بالك وهذا هو منهج حياة البعض  
أغلاً.

شرد وخفت أن يطول شروده أو يبدي عدم اقتناع لأنني في هذه  
الحالة سوف أشك في قدرته الفكرية.. وبسرعة قال:

- تفسيرك صائب.. وأخشى على نفسي أن أتحوّل عن رأيي إلى  
الإعجاب بهذه العبارة التي لا بد أن تكون على لسان شخص انتهازي  
وغيره.. متعفن بجينات ورثها عن سابع جد وسيوصلها إلى سابع  
حفيد.

- لا.. نحن الآن لا نتظاهر أو نثور على الحاضر فقط ولكننا نحاول  
تطهير المستقبل ذاته من أمراض ورثناها. لا بد نعمل «cut».

- نعم.. أنت اليوم متألقة.. يجب أن يكون هناك شعور عميق بأننا  
نعيش فترة مفصلية في تاريخ مصر المعاصر والنظام يوفر لنا بفساده  
كل أسباب الثورة.

- ليس هذا فقط بل إن الشعب المصري لم يسبق أن وصل إلى هذه  
الدرجة من التأهب وأوشك على أن يبلغ حدود الذروة في الغضب،  
وإذا ثار فلن يتوقف.

- مشكلة وحيدة تواجهنا..

- لا تقل الشرطة.. الشرطة الحالية أجبن مما تتصور مهما كان  
تسلحها

- الشرطة ليست جبانة ولكنها ضعيفة لأن الضباط والجنود يثقون  
أنهم يدافعون عن باطل وأنا على صواب لكنهم يطيعون الأوامر ولن  
يستمر هذا طويلاً.

- إذا ظل الشباب والصحف المعارضة محافظين على قوة  
الضغط.

- ليس هذا كافيًا. لابد من الحشود.

- سيأتي هذا اليوم.

- لا لن يأتي إلا بالعمل.

- كيف؟

- بالكتابة عبر الفيس بوك. برفع الوعي. بالمشورات. بالتجمعات.

إذا كنا ألفًا فعلى كل واحد أن يجتذب عشرة، وكل واحد من العشرة  
آلاف عليه أن يضم عشرة وهكذا، ولا يقتصر الأمر على القاهرة.

- أنا جوعان.

- وأنا أيضًا.

- هيا إلى مطعم هنا توجد ساندوتشات.

قال القصير قريبا منا .. طرقت له فانطلق إلى ترائبة بعيدة وجاءنا

الطويل.

سأل ناجي عن المتوافر من الساندوتشات .. قال: كبدة وشاورمة

ومحون ومكرونه بشاميل وفراخ مشوية و..

- ما رأيك في فرخة مشوية؟

- لا. أريد كبدة وشاورمة وسفن.

- إذن اختلفنا.

- اختلاف آني وغير استراتيجي.

- ما رأيك أني كنت سأطلب كبدة وشاورمة وسفن.

ضحكنا ضحكات غارقة في الصفاء والبهجة .. ضحكة تعني الفرح

والفرح الروحي والنفسي والمادي.

- كففك.

انطلقت الأكف تبادل التحية وتتفق على الاتفاق .. قلت له:

- لم تكمل كلامك عن أوجه الشبه بيننا.

- ذكرت أوجهها كثيرة.

- لم تذكر الأهم.

- وهو.
- الشخصية التي لا تقبل الهزيمة أو الانكسار.
- كفك.
- أسرعت أمد كفي فمد كفيه وسلمته الثانية..
- استقبلت كلماته بدهشة وفرح.. قال:
- هل تعلمين أن فمك له رسمة غريبة ومميزة.
- ابتسمت. هذه أول مرة يتحدث فيها عن جزء من جسدي. سألته:
- ما وجه الغرابة؟
- قبل أن ينطق أسرعت أقول:
- إياك والغلط، واعلم أن كثيرات يحسدنني على جمالي.
- صبرًا يا متأهبة دومًا للغضب.
- قل إذن ولا تستفزني.
- فمك غريب بعض الشيء ولم تقع عيني على مثله.
- إنجز.
- عندما يكون مغلقًا يشبه قوقعة صغيرة مغلقة، ويصبح عاديًا وطبيعيًا عندما تنفرج الشفتان.
- يعني لا يعجبك.

بالعكس. شيء مميز ولطيف في كل أحواله. انفرجت الشفتان  
أو اغلقتا. لم أجد له مثيلاً إلا فم الممثلة الأمريكية كاترين زيتا جونز.  
ابسمت ورقصت أعماقي ورحت أستحضر رسمة شفيتها. فعلاً.  
الولد ماجي نمر.. قلت:

- يقولون دائماً أنني أشبه أمي.

- يا رب اشفها هي وكل من مَرَضَ.

أعجبني دعاؤه. روح محبة للبشر. روح ثورية بحق. سألته:

- هل الحب شيء ضروري للحياة؟

- أهم من الهواء والماء.. لكن كل ما في العالم من حب لا يكفي  
لإسعاد ربع سكانه. العالم بحاجة لملايين القلوب المحبة.

- فمتى ينعم كل الناس بالحب؟

- عندما يكونون مخلوقات متساوية في كل شيء.

- وما الذي يمنع من تحقيق المساواة؟

- السلطة. كل أنواع السلطة.. سياسية أو عسكرية. دينية أو أبوية.  
الاقتصادية أو اجتماعية.

لم أستوعب تمامًا ما قاله. سألته عن الحب فأجابني تلك الإجابة.  
سألته عن السماء فحدثني عن القمح أو الفوسفات.. لاحظ عدم الفهم  
على وجهي فقال:

- السلطات المختلفة هي التي تصنف الناس حسب مصالحتها إلى خبز أسود وكرواسان. مسمار صديء وبروش ذهب. هاموش وبرفان. حصير ومسجاد عجمي. جميز وكريز. مش وسيمون فيميه. جبن قديم وكافيار.

هناك تجويع وحرمان لملايين البشر وقمة الرفاهية لبعض الكلاب والقطط.

بعد أن أكلنا عبرنا النيل مشيًا على كوبري الجامعة حتى قصر العيني ومشينا حتى كوبري آخر يبدأ من أمام مستشفى أبو الريش للأطفال وسلمنا الكوبري إلى شارع زين العابدين فالسيدة ومنه إلى الحوض المرصود وشارع الصليبية.

\*\*\*

ما رأيك يا بابا في ابنتك التي أكلت ضربًا في المظاهرة لكنها لم تنسك؟. ربنا يخليك يا بابا. أنت الباقي الوحيد لي، لكنك.. لكنك.

أظن أن أبي شخص غير مفهوم بدرجة كافية. أحسه طيبًا وحنونًا، لكنه في أحيان كثيرة يبدو غير مهتم بأحد ولا بأي شيء. هل يمكن أن يكون ثمة شخص في الوجود غير مبالٍ إلى هذه الدرجة. أظن أن مثل هذه الحالة تحتاج إلى طبيب نفسي. أنا لا أتصور أنه عانى في حياته. آخرون كثيرون قاسوا المرار الطافح والقسوة والتشرد والحرمان منذ ولدوا وحتى بلغوا أُرذل العمر ولم يبلغوا ما بلغ من اللامبالاة. كنت ألحظ أنه يتجنب سيرة أمي وفي أحيان أخرى أضبطه متلبسًا



بالظن إلى صورتها المعلقة في الصلاة ويطيل الوقوف أمامها وهو  
 يد من سيجارته. مسألة علاقته بالجيران والأهل لا أكاد ألمس لها أية  
 أسرار فنادرًا ما يسأل على خالي شهدي أو أولاده ولا زوجته غرام.  
 من عمله وبين ورشة الموبيليا في المناصرة مائة متر. ربما يسألني أحد  
 بالله: وما أدراك؟ لعله يذهب ويسأل ويزور ويهتم. لا. لا. كان حتمًا  
 يظهر أثر من خبر أو كلمة أو زيارة أو محاولة من جانبهم لرد الزيارة  
 أو الاهتمام. لكل فعل رد فعل مساوٍ له في القوة مضاد له في الاتجاه.  
 حاولت عدة مرات التجسس عليه من بعيد والتطلع إلى وجهه  
 وملاحظة سلوكه وهو في المقهى وبين أصدقائه. كان في كل الأحوال  
 مهتمًا ومشرقًا بل ومقهقها. أما في البيت فلا يتكلم ويكاد يدخل  
 متسللاً ويخرج متسللاً وينام متسللاً كأنه يسكن في بنسيون ويتهرب  
 من صاحبه حتى لا تطالبه بالأجرة، ولو اختفى قميص أو جورب يظل  
 يبحث في كل مكان، وكان يمكن أن يسألني لأني موجودة ويفترض  
 أنني أنا من غسلت ونشرت وجمعت وطبقت ووزعت الملابس  
 والموط والجوارب وكل الغسيل في أماكنه المعتادة، وهكذا يظل  
 يبحث عن المفقود منه حتى ألحظ حالته وحيرته فأسأله عما يبحث،  
 وأكتفي في النهاية بأن أؤكد لنفسه أن سبب ما هو فيه السجائر والخمر  
 التي أقبل عليها بالتدريج منذ سبع سنوات ثم تزايد إقباله على الخمر  
 وزادت ساعات سهره وغيابه عن البيت كما زادت بالتالي فوضويته  
 منذ مرضت أمي.

كنت في طفولتي ألحظ أنه مرتب جدًا ويقوم بذلك بنفسه، كما أنه بلا مطالب قدر الإمكان، وقد يطلب مني أو من سالي ما يريد ولا يسأل أُمِّي. ليست لأنها صاحبة مرض كما قال، لكن لأن المسافة بينهما منذ البداية واسعة ولم تتوافر أية مناسبة للتقريب أو تقصير المسافة والمناسبات ليست هي المسئولة وإنما لغياب الإرادة، كما يقول رجال السياسة عن الحكام المقصرين في حق شعوبهم بحجة الظروف أو قلة الموارد أو كثرة السكان، بل التقصير منهم وبتعمد ناتج عن افتقارهم للإرادة السياسية. منهم من لا يريدون التطوير ومنهم من لا يريد الديمقراطية لأن ذلك سوف يفتح أبوابًا تهب منها رياح تهددهم خاصة عندما يكونون ممن رتبوا مصالحهم على هذا الوضع.

الشمس في بيتنا دائمًا مشرقة لولا أن هناك غيومًا كثيرة مجهولة المصدر ومع ذلك لا تنتهي بمطر. لم نعرف مطلقًا معنى السعادة، وإن كنا قد عرفنا معنى الستر والاستقرار الوهمي فكل شيء تحت الصمت الشامل.. نعيش كأننا نقيم في كهوف. نتحرك في المتاح من المياه والدخل والكهرباء والغاز والملابس والطعام المتواضع.

أبي تقريبًا لا ينفق على البيت إلا القليل وهناك معاش صغير لأُمِّي وأكثر مواردنا تأتي من جدي وجدتي وبعدهما لا يتأخر عنا خالي شهدي الذي اعتاد أن يقول:

- هذا مالكم ونصيبكم وليس منة من أحد.

لو لم تكن هناك تلك المصادر كيف كان يمكن الصرف على تكاليف علاج أمي؟، ونصفها على الأقل يتحمله التأمين الصحي، وبعض المساعدات من خالتي ثريا. أما عني فدخلي محدود وهذا ما يدفعني للسيطرة على مصروفاتي. لست مستاءة وإنما أفعل ذلك بهيئة الرضا خاصة أنني لا أعترف بالبهرجة. كنت حريصة كل يومين أو ثلاثة أن أحمل لأمي أي هدية حتى لو مصاصة أو كيس بطاطس أو مدبل رأس جميل أو شريط لعبد الحلیم، وقد طلبت مني مرة شريطاً ليهوفن أو موتزارت. فابتعدت عنها بسرعة حتى لا تسيل دموعي أمامها. كانت تستدعي نبيل. فكرت أن أتهرب ولا أشتري الشريط أبداً حتى لا أشعل في روحها ناراً ولا تكف عن البكاء، لكنني في الصباح شعفت ورفضت معاندة مشاعرها فلتبك كما تشاء وإن كنت أقنعت نفسي أنها سوف تبكي في الأيام الأولى ثم تعتاد وقد يكون في ذلك بعض العلاج. فلتتعلق بقشة.

نحرص على الوحدة وتنام في السرير ولو لم تكن تريد النوم، وسواء مستيقظة أو غارقة في سبات عميق فإنها تلتزم بوضع واحد ودائم أن تنام على جانبها الأيسر ووجهها للحائط، وتفسح الطريق لعقلها كي يتعامل مع الذكريات. الجهة الوحيدة التي تتعامل معها في وحدتها، فقد جربت أن تتعامل مع الحاضر وتجلياته الكثيرة فلم يفهم معي وظلت روحها مفارقة للحاضر وغير منسجمة معه ولا تهفو إلا إلى الماضي.

في أيامها الأخيرة حرصتُ على النوم بالقرب منها. قد تحتاج ماء أو دواء أو تحلم حلمًا مزعجًا فألحق بها وأساعدها على النوم في وضع صحيح يريح جسدها. بعض طرق النوم تشجع على زيارة الكوايبس وربما تؤثر على لون الأحلام. وفي الصباح أحرص على غسل وجهها وكفيها وقدميها بماء دافئ وصابونة معطرة، وأغير لها ملابسها إذا رأيت ضرورة لذلك، وأحيانًا تصحو مشرقة فتطلب مني أن أغير ملابسها رغم أنها لبستها في المساء السابق مباشرة لكن ذلك يسعدني لأنه دليل ولو مؤقت على نفسية راضية وراغبة في الحياة ودليل لا شك فيه على بزوغ نبتة أمل وتفاؤل. كنت أطعمها بنفسني أسقيها الحساء بالملعقة وبالملعقة أيضًا أضع في فمها الأرز والمكرونة والملوخية والفاصوليا البيضاء التي تحبها وغيرها من الخضراوات. في مرة تركتها لأفتح الباب فأمسكت بالملعقة وحركتها في اتجاه الطبق فوق وانكسر. حزنت وبدا عليها الأسف لوقت طويل رغم أنني حاولت إقناعها أنه رخيص لا يساوي لحظة واحدة من حزن.. إلا أنها بقيت مستاءة وعدلت وجهها للحائط لفترة طويلة.

حدث أن طلبت كوبًا من الشاي فأعددت لها الكوب وكنا في الشتاء فطلبت أن تمسك به كي تستمد منه بعض الدفء وبعد لحظات وقع وانكسر فعادت للحزن إلى الدرجة التي دفعتها للإضراب عن الطعام والشراب.. في الصباح اشترت لها طبقين وكوبين من الخشب ولم أرض عن البلاستيك، واشترت من قبيل الاحتياط طبقين وكوبين

من المعدن المصقول الذي لا يصدأ خشية ألا ترحب بالخشب، وبعد  
 بومس حمل أبي إلنا عددًا من المصنوعات الخشبية للمنزل من  
 يدقه رمسيس صاحب ورشة الصناعات الخشبية. وضع الأشياء  
 أمام أمي في صمت ووقف ينتظر المكافأة. ابتسامة صغيرة ونظرة  
 حزين، وأمكته مع الصبر لحظات أن يحصل عليهما فتحرك باتجاه  
 باب الشقة إلى المقهى حتى لا يحتسب غائبًا.. كان عليه ألا يتأخر  
 بها أحضر من خشبيات لأمي فقد توقع أن تكون قد نامت ولن يحوز  
 المكافأة التي يتمناها.

مسألة تحريكها من سريرها مهمة صعبة لأن وزنها يزيد مع قلة  
 حركتها. لكن المهمة أصبحت أصعب بعد أن أصيبت بشلل شبه كامل  
 ولم تعد قادرة على التحكم في أعصابها بدرجة معقولة. كان علي أن  
 أساعدها على التبول والتبرز فأضطر لحملها حملاً وأضعها بأناة على  
 كرسي متحرك وأمضي بها إلى الحمام حيث تدور معركة بين ثقلها  
 وضعفي. بين محاولتي إتقان عملي من ناحية وضيق المكان وصعوبة  
 المشاورة من ناحية أخرى، وكان يحدث أحياناً ما هو أسوأ إذا كانت  
 الأرض مبتلة بماء وصابون. عندئذ يصبح رفعي لها أو تحريكها مأساة  
 بكل معنى الكلمة لأن الأرض زلقة وتتحرك بسرعة تحت قدمي.

في مرة قالت وهي تراني أتزحلق على البلاط الصابوني وتنفرج  
 ساق لي لتصبح كل ساق في ناحية:

- احذري بقعة الزيت. اتركيني على الكرسي وامسحي السيراميك جيداً وجففيه.

أنفذ كلامها فوراً ويتسلل الأسى إلى نفسي لأنها حكّت لي القصة التي لا تنساها مطلقاً.. أكون قد أعددت الماء الدافئ والصابون المعطر الذي أقربه من أنفها، وقبل البدء في العمل أطلب من الله العون لأخلع عنها ملابسها قطعة بعد أخرى وهذه مسألة صعبة للغاية خاصة أنها لا تقف، وإذا حاولت معها لتقف نصف وقفة تتهاوى. جسمها أصبح كالجيلي. اخترت لها بعد أن أخذت رأيتها لوفة ناعمة جداً فجعلتها لا يحتمل اللوف ولا حتى القماش العشن، وعندما اقترحت عليها أن نستغني عن اللوف رفضت، واقترحت أن تتمدد على الأرض ولا بد من اللوفة على اعتقاد منها أنها بهذا تخفف عني. ولم تكن تسمع لي بالتوقف إلا بعد أن أدلك كل بوصة في جسمها أينما كانت، بل تطلب تدليك رأسها وأظافر يديها ورجليها وتحت إبطيها ومواضع أخرى. ثم أجففها بفوطة تختارها مما أعرضه عليها وأصب العطر على كل جسمها حتى ما بين أصابع قدميها.. تتهد وتشم وتسقي رثيها وروحها بالعطر الجميل وأقرب الزجاجاة من عينيها لتعرف أنها ماركة مشهورة، وهكذا تنتهي المهمة المقدسة التي تتم عادة مرتين في الأسبوع، وكلانا راضٍ بنتائجها وعندما نصل بسلامة الله إلى السرير تناديني فأقترب فتمسك كتفي وتجرتني نحوها وتقبل رأسي.. آه يا أمي.. تسيل دموعي بصورة لا أستطيع التحكم فيها.

نصحتني الطيب أن تلبس بامبرز مثل حفاضات الأطفال مخصصًا  
لكبار السن والمصابين بالشلل حتى لا أضطر لحملها كل ساعة إلى  
الحمام أو وضع وعاء تحتها للتبول، وكى لا تنزعج من البلل إذا حدث  
بول لإرادي وهو لا بد سيحدث إن عاجلاً أو آجلاً. يقوم البامبرز  
بمهمته لنحو نصف يوم، وأقوم بتغييره مع أذان العصر، وفي المساء  
يمكنها أن تتصرف براحتها وتظل نائمة حتى الصباح ثم أخلصها منه  
والمس غيره.

في صباح أحد الأيام دخلت عليها كعادتي لأحييها:

- صباح الخير على الحلوين. وجهك اليوم مشرق وجميل يا ست  
السنات.

بصعوبة ردت بصوتها الهادئ البطيء. كلمة كلمة:

- ربنا يا بنتي يسعدك ويسترها معك ويجنبك أولاد الحرام.

- ماذا تحبين أن تتناولي على الغداء اليوم؟

بدون إبطاء أو تفكير قالت:

- نفسي في الفطير المشلتت والعسل والجبنة القديمة.

- اطمئني يا غالية. سيكون جاهزاً على الغداء.

ذهبت لأعد لها الإفطار.. على باب المطبخ توقفت فجأة، ثم  
رجعت على الفور فقد لاحظت أنها ترتدي جلباباً غير الذي نامت

به.. أنا لم أغيره لها فمن غيره. أبي لا يفعل هذا وهي لن تطلب منه على الأكثر ممكن أن يناولها الدواء أو الماء أو يجلس إليها صامتًا. قد يقول لها كلمات قليلة:

- أنت اليوم أحسن.

تهز رأسها. يتنهد ويسكت لحظات ثم يسألها:

- أفتح لك الشباك؟

ترفض بهزة من رأسها.

- أنت بردانة؟

- لا.

يخبي حيرته في كفيه ويقلبهما، ثم يقول كأنه يسأل:

- أنت غير راضية عني.

تنفي بإشارة من رأسها.

- مسامحاني؟

توافق بإشارة من رأسها. يسألها مجددًا:

- هل قصرت معك؟

تنفي بهزة من رأسها. يتكرر مثل هذا اللون من الحديث بين طرف ينطق وآخر أبكم. لكنني لا أعلم على وجه الدقة ما السر في فقدتها النطق ولو بالنعم واللا.



لا بد أن هناك سراً لن يكشف عنه أحد فيما أظن. لم تكشفه أمي  
وهي تتجه إلى دنيا ثانية، ولن يكشفه أبي.

من الذي غير ملابسها؟ لا بد من سؤال أبي. إذا وقع حدث  
غير وغريب فلا يجب استبعاد أحد ولا حتى المرضى والسجناء  
والمسافرين والعميان والمجانين والأطفال وربما القطط والكلاب  
والبيغاء إذا وجد ويمكن سؤال الأشياء أيضاً. لماذا أشعر أن أبي كل  
هؤلاء. لا يصح أخلاقياً أن أفكر في المسألة بهذه الصورة، ولا يجب  
أن أتجاوز حدودي فهو أبي حتى لو كان مجرد خيال مآتة.

أكد أنه لم يغير ملابسها ولم تغيرها أمامه، ولم يساعدها في شيء  
من هذا.. سألتها. لم تستطع الإجابة وأخذت تطرد بكفها ذبابة وهمية  
كأنها تبتعد عنها، ثم قالت بوهن شديد:

- ساعديني كي أنام.

قلت لها:

- لن تنامي الآن. سوف نتحدث قليلاً في موضوعات مهمة.

استغنت عن مساعدتي وقررت الاعتماد على نفسها وكانت تجلس  
على السرير ووجهها صوب الباب فمالت قليلاً بجذعها. أوشك  
أدراعها أن يخونها. توقفت في منتصف الطريق. صعدت إلى السرير  
بعيثة أقف أمامها سحبتها من قدميها لتبتعد عن الوسادة بما يكفي  
ليرتاح نصفها العلوي ثم هبطت إلى الأرض وصعدت فوق السرير

بحيث أكون خلفها وخلفي الوسادة وأمسكت بها من تحت إبطيها وهبطت بها تدريجيًا حتى نامت على ظهرها.. أشارت إلى الحائط طالبة أن أوجه وجهها نحوه. نزلت من فوق السرير وقبضت على ملابسها بيد من ناحية الكتف ويد من ناحية الردف وسحبته قليلًا باتجاهي وحاولت إدارة جسدها جزءًا جزءًا لتنام على جانبها الأيسر ويكون وجهها صوب الحائط.

دخلت المطبخ لأغسل الأطباق والملاعق والأوعية التي تكدست رجعت إليها لأطمئن على نبضها وتنفسها. تسلفت حتى لا أوقظها. وجدت بين يديها صورًا كثيرة. كان نبيل حاضرًا في معظمها وهي معه في بعضها. تنظر إليه وتتمتم بكلام لم أسمع. تتحدث إلى شخص مات منذ عشرين عامًا. بل ربع قرن من الزمان. من المؤكد أن هذه ليست المرة الأولى. عدت إلى المطبخ لأبدأ في تجهيز الغداء وكانت قد طلبت خبيزة وقلقاسًا مقلًا ودجاجًا. وافق أبي على القائمة وزاد عليها بابا غنوج. بينما أقشر القلقاس وأستعيد مشهد الصور وفكرة الجدار الذي يقوم بدور الستار وإشاعة الإحساس بالانفصال عن سكان البيت سألت دموعي. آه يا أمي. آه.. لا بد أنك تحملين أكثر مما يحتمل إنسان.

عزمت على أن أظل مستيقظة بالليل حتى أكتشف الفاعل الذي غير لها ملابسها. في المساء وحوالي العاشرة سقطت في بئر النوم العميق ربما من الإجهاد لأنني طبخت وغسلت الأواني والملابس ونشرتها

وظللت الشقة وحممت أمي واستعنت ببعض الكريم لتنظيف شعر  
أبنت بجسدها ووجهها كما أشارت إلى فتحتي أنفها وفوق شفتيها  
ولحمتها ووضعتهما لها كحلًا في عينيها وسويت حاجبيها بالمقص  
والمقاط.

عند الفجر استيقظت وتذكرت ما جرى لملابسها فأسرعت إليها.  
لوقفت مذهولة من هول ما رأيت. تجلس في سريرها ونصفها الأعلى  
عبار تمامًا وقد تخلصت من ردائها الليموني وكومته إلى جانبها  
وخلعت كذلك فانلة قطنية بيضاء تحرص على ارتدائها في الشتاء تحت  
الملابس، وانشغلت عن الدنيا في تقليب تلك الفانلة وتمسح عنها  
بعض الحشرات الوهمية ثم ارتدتها بصعوبة شديدة ولكن بإصرار.  
لبستها مقلوبة ثم خلعتها وأعدت ارتدائها فاكشفت إنها لا تزال  
مقلوبة. خلعتها ولبستها في المرة الثالثة على وجهها الصحيح. كانت  
المشكلة التي تواجهها في دخول الذراعين المشلولين في الكمين..  
سببت الرداء الطويل القطني واسع الرقبة، لبسته بصعوبة شديدة لكن  
إصرارها كان أشد.

ثمة شعور يختلط فيه الأسى بالدهشة. يمتزج فيه الألم العميق  
بسبب عجزها وإعجابي بإرادتها، وتعجبي للوعي الناتج عن اللاوعي.  
الفعل الذي تحركه قوى غامضة تكمن داخل الجسد وتعيش معه  
طويلاً حتى بعد أن يفقد القدرة على تحريك قشة أو الإمساك بها..  
لراجع الحواس حتى لا تكاد تفرق بين طعم وطعم، ولا تميز صوتًا

عن صوت. لم تحس بي وأنا واقفة في موضع غير منظور أراقبها وقد ضغطت على نفسي حتى لا تدعن لضعفي ناحية أمي فتسعى لمساعدتها. الرصد الآن أكثر جدوى. بقيت ثابتة وممسكة بالباب الذي فتحته ربع فتحة وبقي كما هو بمقدار دخول رأسي واكتشافي المشهد الغريب.

كيف شعرت أن ثمة شيئًا يزعجها داخل الملابس فقررت خلعها وتنظيفها وإعادةتها على الجسد المتداعي؟! كيف فعلت هذا وهي تنام بمساعدتي وتأكل بمساعدتي وتلبس بها وتشرب بها وتفعل كل شيء في وجودي وبمشاركة كاملة مني؟!.

آه يا أمي.. ربنا يشفيك ويخليك. الآن وأنت في أدنى حدود قدرتك تلهميني وتقوي إرادتي وتعلميني ما لا أدريه الآن. لكنني أحس أن هناك ما يجب أن أتعلمه وأحفظه عن ظهر قلب.

بحثت عن الصور وأنا أساعدها كي تنام. لم أجدها. رفضت كبح فضولي فمررت بيدي فوق الملاءة إلى أن أحسست بالصور تحتها بالقرب من الحائط. استطاعت أن تمسك يدي وترفعها بعيدًا. تجمدت يدي وتجمد عقلي.. كيف حدث هذا؟!.. طاقات الإنسان ستظل لغزًا ولن تنكشف جميعها إلا بعد عمر طويل.. طويل جدًا.

\*\*\*

## 9

في يوم الجمعة الثاني من شهر رجب تجمع منذ الصباح الباكر كل أفراد العائلتين وتحركوا باتجاه مقابر الإمام الشافعي لإحياء «طلعة رجب». عائلة الباشمهندس حسين البنهاوي وعائلة الحاج صبحي الجمل. مضوا حاملين كراتين الرحمة. وجدوا المقابر عامرة بالأحياء كما هي عامرة بالأموات. جاء المئات لزيارة ذويهم ممن رحلوا وما زالوا أحياء في النفوس والعقول. أولاد كثيرون صغار يجرون أمام المقابر ويشاركون في اليوم الذي يتعذر الاعتذار عنه، ولو أنني لم أكن فاحمسة للمشاركة، لولا أن أمي قالت:

- لا يصح يا زينب.

قلت لها وأنا أهز رأسي أسفاً على نصيبي:

- يكفيني ما بي يا أمي.

قالت أمي وهي تربت على ظهري:

- لهذا رأى أجدادنا أنها مناسبة للنسيان.

- ومن قال إنني أريد أن أنسى؟

- فرق كبير بين أن ينسى الإنسان الحزن وأن ينسى الشخص العزيز الذي اختاره الله إلى جواره.

سكت ووجدت كلام الحاجة صفة معقولاً. صحيح التخلص من الحزن لا علاقة له بالغالي. هل يمكن أن أنسى نبيل يوماً ولو بعد مائة عام ولو تزوجت بعده عشرة؟!!

ظهرت جوقة المساكين والفقراء ومن ليسوا من هؤلاء أو أولئك ولكنهم محترفو تكسب من المقابر وزوارها. نهضت السيدات من العائلتين وأنا معهم. فتحنا الكراتين وأخذنا نوزع الكعك «الرحمة» على روح الميت حديثاً زين الشباب نبيل صبحي الجميل، وعلى أرواح أمواتنا الراحلين قبله. كلما خرجت يد بالكعكة من الكراتين ومدتها لسائل قال صاحبها:

- رحمة ونور.

ويقصد بالكلمتين أن الكعكة تشجع على الدعاء للميت بالرحمة في الآخرة وهي نور له في قبره. وكم يحتاج الميت لهما جداً حتى لو كان قديساً طاهراً.

نبيل رحل منذ ثلاثة أسابيع. حانت «طلعة رجب» في المنتصف بالضبط بين رحيله والأربعين. راح وترك القلوب تبكي قبل العيون. كل النساء والرجال من العائلتين سيكون من لم ينجبوا مثله وربما لن

ياحبوا. تولاني البكاء مدة حتى دنت أمي ومالت عليّ وهمست:  
- كفاية يا بنتي عيونك صارت كاسات من الدم والكل عيونهم  
عليك.

مسحت دموعي وأنفي واستمر البكاء بداخلي يغرق روحي. لم  
أرد أن أقول لها:

- لا أحد يحس بما جرى لي.

قمت فمشيت بعيداً وأنا مثلهن في الرداء الأسود. رايات تعلن  
الحداد الظاهري وأنا سوادي مكس داخل قلبي المطعون.

قال لي أبي قبل أيام وقد لاحظ حالتي:

- ما بك ناتج عن عدم ذكر الله. الله هو المنقذ الوحيد، فكلما  
هاجمتك مشكلة اذكري الله.

- لا إله إلا الله.

ذكرت الله مرات ومرات وأنا أمضي بين المقابر التي لا نهاية لها.  
فدادين مكدسة بالمساكن التي يقيم فيها الموتى ويشاركهم الأحياء.  
هل هذا معناه أن الحياة ممزوجة بالموت؟. وأنه لا حياة بلا موت  
ولا موت بلا حياة؟. قال أبي لا أدري متى:

- خلق الإنسان أصلاً للموت ولكن الموعد يختلف من شخص

إلى آخر.

فلماذا جاء موعد نبيل مبكراً؟ استغفر الله. سامحني يا خالي  
يا عظيم يا رحيم.. اللهم أعني يا رب على النسيان. أعني على حزني  
البقاء لك وحدك. آمنت بالله.

عدت من جولتي. قدمت لي أم نبيل كعكة. شكرتها واعتذرت.  
قالت أمي لها:

- لم تدخل جوفها لقمة منذ حدث ما حدث.

قالت أم نبيل:

- ربنا يصبرنا ويرحمه ألف رحمة.

سالت على خديها دموع حارة وأخفت وجهها بين كفيها، ثم غلب  
عليها النشيج الذي انتفض له جسدها كله كأنها تصعق بالكهرباء..  
رفعت رأسي إلى السماء ولمحت الأولاد يركضون هنا وهناك في  
ملابسهم الملونة، الصغار فرحون بالنزهة ومغادرة المنازل. تركض  
البنات ومعهن تطير شعورهن معلقة بنسمات المكان الفسيح الذي  
يشمله الهدوء والسكينة المنقوشة بنبرات أصوات المقرئين لآيات  
من الذكر الحكيم أمام شواهد القبور. ومن ينتهي من قراءة «يس» تمتد  
يده فتقبض على نصيبه من النقدية وينتقل إلى مقبرة أخرى، ومنهم من  
يتعجل القراءة حتى يجمع أكبر قدر من رحمة الميت وكرم أهله.

رغم كثرة المقرئين الذين توافدوا على باب المقبرة وسلم  
بعضهم بعضاً آيات القرآن وتنوعت الأصوات والقراءات فقد أقبل



ال من الحاج صبحي والباشمهندس حسين وشهدي وكامل ولد  
صبحي الكبير والمرسي التالي بعد كامل وكذلك النسوة بالقراءة  
من المصاحف التي حملوها معهم . ولما حانت صلاة الجمعة عاد  
الجميع بعد قراءة الفاتحة والدعاء لنبييل وكل الراحلين.

\*\*\*

لقيت الخبر بكثير من الذعر . رفضته أعماقي بشدة . أحسست أن  
هل يموت مرتين . وأن هناك محاولة مقصودة لقصف عمري وسحق  
وهودي وانتزاع كل أمل يمكن أن يرى النور في مقبل الأيام . الشمس  
تسحب من السماء والنور يتراجع ليتشر الظلام من حولي . ارتعد  
عصي كله واندفعت أبتعد عن أمي التي أبلغتني بالنبأ .

أغلقت غرفتي عليّ .. مستحيل . لماذا لم يأخذوا رأيي ؟ لماذا  
بصرف أبي في مصيري كأنني سيارة قديمة مركونة عنده في الورشة من  
من ويريد التخلص منها؟ هل أصبحت كنبه أو كرسياً؟ مستحيل أن  
يكون آخر صبري مرسي . أبي يتفق مع صديقه الحاج صبحي لاتزوج  
ولده مرسي ! هل مرسي هذا له وجود في الدنيا أصلاً؟! من مرسي  
هذا الذي لا يحس به أحد . صامت دائماً وبارد؟ شكل نبييل وأكبر منه  
بستين وموظف في المحافظة لكن شتان . مرسي ! .. مستحيل . وجهه  
لا يكشف أية مشاعر . رأيت كثيراً وهو يجلس على الكرسي فيصبح  
جزءاً منه . مطلوب أن أتوجه بعد ثلاثة أسابيع . بعد الأربعين .. لماذا  
العجلة يا أبي؟ .. حرام عليك . حرام والله حرام . أكلت وجهي بأظفري

ولطمت . ناديت الدموع فلم تستجب . كنت سعيدة جدًا بعلاقة أمي وعم صبحي . أحس الآن أنها مصدر تعاسة وأذى ليس بعده أذى . قرار ظالم سوف يقضي على حياتي . صحيح أنني فقدت نبيل لكن البديل ليس مرسى . الحل الأفضل عدم الزواج مطلقًا . سوف أعلن رفضي وأقاوم القرار بكل ما أستطيع . لقد مضى زمن زواج البنات بالأمم والقهر ودون سؤالهن . رجعنا مائة سنة للخلف . علاقتك بصبحي لا تخصني ولا ترتب حياتي ولا تحدد شكل مستقبلي . لا يا حسين يا بنهاوي . لا . لا بد أن يكون هناك حل . لن يكون الحل إلا بيدك يا رب الكون . أنت الوحيد الذي سوف ينقذني من تلك المصيبة . لن يوقف المهزلة غيرك . أنت من أخذت نبيل فلا تعطني بديلًا له هذا الشخص الميت .

قمت وتوضأت . مضيت أصلي وأخيرًا سألت دموعي وكأنها بداية الفرج وإشارة أن الله سمع شكواي . سمعت طرقة على الباب فلم أفتح ولم أتحرك وواصلت الصلاة مجددًا . سمعت أمي تنادي شهدي وهي فزعة :

- تعال اكسر الباب . ربما جرى لأختك شيء .

طرق شهدي الباب طرقات خفيفة .. تصاعدت في الشدة حتى كادت تحطمه . لم أهتم . يريدون الآن كسر الباب بعد أن كسروا نفسي وسودوا حياتي . بلغتني محاولات شهدي لفسخ الكالون . فتحت الباب .

اندفعت أمي تسألني وهي تفتش في وجهي وجسمي. أعلنت  
لهما رفضي مرسي. حاولا إقناعي بقبوله بحجة أنه طيب ولا يحل  
ولا يربط. سوف تكونين أنت سيدة البيت وصاحبة الكلمة. زادت هذه  
الكلمات العاجزة البلهاء من رفضي.. توالى محاولتهما فسخ قراري  
لما حاولوا فسخ الباب. شعرت بالتقزز.. صرخت فيهما وطردهما  
خارج الغرفة وأعدت إغلاقها.

أبلغت أمي كل ما جرى بالحرف لأبي. قال ببساطة:

- أعطيت كلمة للحاج صبحي وانتهى الأمر. لا أحب دلع البنات.  
هذا هو عين الصواب. بعد أن طلبها مني الحاج صبحي لم أتقبل  
الموضوع في البداية ولم أكن مستعداً له. قلبت الموضوع في رأسي  
فما استطعت الوصول لشيء ينصر الفكرة. بالعربي كنت مرتبكاً  
ومهزوزاً أخشى الإقدام على خطوة غير محسوبة. مضيت أفكر حتى  
وأنا تحت سيارة وأنا أستمع لصوت كبرياتير وأنا غائص بنصفي  
والحل موتور ولم أصل لربع رأي إلى أن هداني ربي أن أصلي صلاة  
استخارة. بعدها شعرت براحة وطمأنينة وبدأ عقلي يقول لي:

- ولم لا. مرسي شقيق نبيل والاثنان ولدا صبحي. وكل الترتيب  
الذي تم لا يتغير منه عود كبريت. وإذا انتظرنا حتى يتقدم لها غريب  
سندخل في قصص وطباع مختلفة وحسابات جديدة وخسائر لأن  
الناس أمزجة وخاصة شباب اليوم وليس فينا من هو مستعد لكل  
هذا ولا تنسي أن الخبزة جاهزة. الزيت زيتنا والدقيق دقيقنا. ثم إنها

إرادة الله أولاً وأخيراً. تصرفني معها يا أم شهدي.. لا تريد مشاكل ولا فضائح. ولو تصرفت أي تصرف خارج، يمين بالله لترى وجهها لم تره من قبل. المسألة ليست حراماً أو فستاناً. هذا يعجبها وهذا لا. بيت الحاج صبحي وبيتنا واحد. لازم العقل يحكم. الدخلة أول خميس بعد الأربعين. انتهى الكلام، وأي كلمة زيادة مرفوضة تماماً تماماً. سامعة يا أم شهدي.

- سامعة يا خويا. ربنا يخليك لنا.

عادت أمي الحاجة صفية إلى غرفتي التعسة خافتة الإضاءة لتحاول التخفيف عني وتبث في روعي ضرورة الاقتناع بإرادة الله وحكمة أبي. كانت الدموع تسيل من عيني في صمت معتم وكثيب. أخذت تحكي وتفسر وتعظ وتدعو للإيمان والتسليم ولم يكن هناك في الحجرة من يصغي لا أنا ولا الجدران ولا أي مخلوق. استمرت وهي ذاتها غير مقتنعة تمتدح مرسي وطيبته وهدوءه، إلى أن قالت:

- من تخافين منه لن تجدي أحسن منه.. وعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً.. الله سبحانه من قال هذا فهل تكفر؟.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

مضت في مهمتها غير المقدسة تسعى لإبعاد الظنون عني حتى بدت لي كأنها شخص آخر غير أمي.. انفجرت قائلة:

- كفاية.. كفاية.. سيبوني في حالي يا ظلمة.

فرصها عقرب أسود كبير فصرخت:

- يا نهار أسود. ظلمة لأننا نريد أن نفتح بيتك. ظلمة لأننا نريد أن  
ندلي حياتك وبناء أسرتك قبل أن تعنسي.. إخص عليك يا زينب..

لم يكن بيدي غير أن جذبت شعري الطويل ونكشته وأنزلته على  
رأسه ولطمت.. رق قلب أمي وأخذتني في أحضانها ومضت تتلو  
المعوذتين عدة مرات:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿١﴾ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا  
وَقَبَ ﴿٢﴾ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٣﴾ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا  
إِذَا حَسَدَ ﴿٤﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿١﴾ إِلَهِهِ  
النَّاسِ ﴿٢﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٣﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ  
لِصُّدُورِ النَّاسِ ﴿٤﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٥﴾ صدق الله

العظيم.. زينب يا ضنايا توكلي على الله واعلمي أن مرسي شخص  
طيب ومؤدب وسوف يكون طوع يدك لا يرد لك كلمة وغير هذا  
هو موظف له مكانته في المحافظة، وابن عمك صبحي الذي تحببته  
والأهم..

قاطعتها قائلة بهدوء يغلي وقلب يوشك أن يموت:

- ريحي نفسك يا أمي. خلاصة الكلام إنكم يا أهلي يا من تتمنون  
بسلامتي وراحتي ظلمتوني ظلم الحسن والحسين، أنت لست أمي

وأبي ليس أبي.. أنتما أخوة يوسف الذين ألقوه في البئر، وأنا يوسف  
ظلمتوني وظلمكم سيتقل إلى أحفادي. تصوري.

اصفر وجهها ومصصت شفيتها، ورغم شرودها ورعبها من  
كلامي قالت بعتاب حزين:

- يا زينب أنت وسط عائلة. يعني العلاقة يحكمها الكبار، والحياء  
ليست دائمًا على مزاج العباد ويوم حلو ويوم مر. اذكري الله يا ابنتي  
وتوكلي عليه يجعل لك في كل خطوة سعادة وسلامة ويرزقك بالذرية  
الصالحة.

- شتان يا أمي بين نبيل والمرسي.

- ربنا من اختار ولسنا نحن.

- ربنا اختار نبيل وأنتم اخترتم مرسي.

- أخوة أشقاء.

- فرق كبير بين الهرم وكوم السباخ.

- حاسبي على كلامك. لأنه لا يرضي ربك ولا أحدًا من الناس.

ظهر الباشمهندس فسكت الكلام.. صوب نحونا نظرات حادة..  
نهضت وابتعدت باحثة عن مكان صالح للبكاء.

\*\*\*

# 10

عدت إلى البيت فلم أجد أحدًا. كنت أحمل في حقيبتي نسخة من صحيفة «الأهرام» وبها صورتني وحديث عن المسرحية، والمقال بعنوان «الشباب يعيدون الحياة للمسرح المصري». أود من كل قلبي أن أراها سعيدة أو راضية ولو لحظات. ليتني أستطيع أن أكون السبب في أن تغادر حالة اليأس والتشاؤم. بحثت عنها في الشقة وفي السطح. لم تكن هنا أو هناك. البيت بدونها مقبرة مع أنها نادرة الكلام والحركة والتفاد تكون غير موجودة، لكن نظراتها وأنفاسها وسطور بسيطة من كتاباتها تجعل للبيت طعمًا ورائحة وأنسًا وحضورًا حميمًا لا غنى

مستحيل يا ماما. هل كررت ما حدث من قبل؟.. المرة الماضية كان مولد السيدة فماذا استدركك للخروج اليوم؟

القيت بالحقيبة ونسيت المسرح والمقال الذي توقعت أن يسعدها. سقطت على كرسي الأنتريه وأنا في حالة مزدوجة من الحزن. تخلصت

من فردة الحذاء اليمنى بالأصبع الكبير في قدمي اليسرى، وتخلصت من الأخرى بإصبع قدمي اليمنى، ثم قذفتها بعيدًا بقرف وتنهدت من أعماقي. حاولت تهدئة ثورتي من أجلها.

- لا يجب أن أغضب منها مهما فعلت. مسكينة يا أمي.. حقا مسكينة..

ليتنا نستطيع أن نفهمها.

عدت أمسح صدري من كل ما فيه من الهواء.

لن أبحث عنها. سوف أنتظر ساعتين على الأكثر، ثم أتحرك. الوقت لا زال مبكرًا. الشمس غربت وتركت لنا نهارًا رماديًا يتأهب للظلمة. يحدث عدة مرات أن تأتي المصائب كبيرها وصغيرها بعد أن تقرر الشمس الرحيل. لا. ليس شرطًا. أحيانًا يحدث مثل ذلك مع الفجر أو الضحى. في كل الأوقات تدهمنا الحوادث. بحاجة إلى دش بارد جميل الآن حتى أستطيع التفكير. الصيف يملك مواهب مميزة قادرة على إشاعة الملل. أرجو ألا أكون مقصرة في حق أمي وأنا أتصرف بهذا الشكل الهادئ كأنني لا أحفل بغيابها وما يكون قد حدث لها. لا أعرف إلى أين ذهبت، لكنني على ثقة أنها في مكان آمن أو في مشوار قصير. إلى الحمام إذن.

ما إن خرجت حتى شعرت فجأة بالقلق عليها. لم أصبر. لن أستعين بأحد. قائمة الأقارب المتوقع أن تقوم بزيارتهم معروفة.



لمحت الدولاب في محاولة لتخمين ما ارتدت. كان شبشبها موجودًا وهذا أمر يدعو للاطمئنان. وكان كذلك جلباب البيت مرميًا على طرف السرير. بدا كأنه يود أن يبوح بشيء لكنني أهملته.

عندما هبطت إلى باب الشارع، وقفت أعيد ترتيب مسارات البحث وأحدد البيت الأول والثاني والثالث، وأعد الحجة التي يجب أن أدفع بها إلى كل من يسألني. اضطررت لإعداد عدة حجج فلكل بيت حجة أو كذبة تناسبه ولا تتسبب في القلق وإثارة الاهتمام بشكل مستفز. لا أنا أميل إلى هذا ولا أمي.

ظهرت في نهاية الشارع قادمة. كان شيئًا رائعًا أن تنقذني أمي من طريق الأبواب والسؤال عنها وارتكاب جريمة الكذب. ياه. كم هو القيل ومؤذٍ للنفس ومسبب للندم ولو بعد أيام وأحيانًا يظل ملتصقًا بالروح رغم مرور السنين.

رأيتني فتقدمت نحوي بسرعة لم أعدها منذ زمن. أخذتها في حضني. كانت مشرقة الوجه وفرحة. قبلتها كثيرًا على الباب كأنها كانت خارج البلاد في سفر طويل. حكمت لي بعد أن غيرنا ملابسنا أين كانت وقصتها مع السيدة شرويت.

- أنا جوعانة.

فرحت. نادرًا ما تطلب شيئًا. أسرعت أقول لها وأنا أكاد أغني:

- من عيني يا حبة عيني.. ماذا تحبين أن تأكلي؟

- كباب.

- حالاً.

- اعملي حساب بابا.

- من عيني.

طلبت الكباب بالتليفون، وقلت لها:

- نفسي أعرف من مدام شرويت وما حكايتها؟

تنهدت وأشرق وجهها من جديد. قالت:

- مدام شرويت قطعة موسيقى ساحرة. لا أشعر معها بالزمان ولا بالمكان. أحس فقط أنني لا أريد أن أغادر مكاناً أتنفس فيه عطر روحها وأسمع فيه نبض قلبها وعزف موسيقاها الجميلة. شرويت هانم دون أن تقصد كانت السبب الذي دفعني لأحب والدك. أقصد عمك نبيل.. مدام شرويت تعيش في الفيلا وحدها دون أنيس إلا البيانو وكلب لولو صغير أبيض اسمه «ساكي». يشاركها كل شيء...،...

- لماذا أسمع أنك زرتها أو زارتك.

- لم أزرها منذ عام تقريباً، على مدى الأيام الماضية كانت تخطر ببالي فقررت زيارتها اليوم. وحشتني جداً. أجد راحة غريبة في بيتها ومعها. رحبت بي وسألني عنك. عزفت مقطوعة جديدة لم أسمعها من قبل. أحضرت الخادمة الليمون وخرجت. شرويت هي عازفة

الموسيقى التي مر من أمام فيلتها عمك نبيل قبل أكثر من ثلاثين سنة وهو صبي واستمع لموسيقى ناعمة وجميلة تطير نغماتها خارجة من النوافذ بالليل ومتجهة إلى السماء فتغلغلت في روحه وأحبها ومضى وتعلم هذا الفن البديع وأصبح شخصاً آخر. وبعد أن تعلم وتمكن، ذهب لزيارتها وعرفها بنفسه وطلبت منه أن يعزف فعزف وشفقت له، وشفقت له زوجها القبطان نجم الدين السلحدار الذي تعلق صورته الكبيرة في صدر الهول. طول بعرض وشوارب بيضاء ووجه أحمر مستدير وعيون خضراء وابتسامة حنون برغم الزي العسكري الأبيض والصرامة الخفية التي تطل من الأنف والشففتين لكن الابتسام يمكن العثور عليه في العينين الجميلتين. لم يكن لديهما أولاد. تكررت زيارة عمك نبيل لهما، وبعد أن خطبني أخذني وعرفني إليه.. كنت أشفق على السيدة شرويت لأن نظرها كان يتراجع لكن عزفها كان سماوياً. فلما دون إنجاب نحو ثلاث عشرة سنة ثم وصل الدعم الرباني فحملت وأنجبت توأمين. ولداً وبتناً.

شرويت فقدت البصر تماماً منذ عشر سنين. كانت تعاني من مرض السكر الذي أضر ببصرها ومضى يتراجع ببطء شديد لكنها فقدته تماماً بعد حادثة أودت بزوجها وولديها. كلما سألتها عن الحادثة كانت تنهز وتغير مجرى الحديث بطريقة ذكية وغير حادة. صور التوأمين في كل مكان تقريباً وفي بعضها يظهر ساكي.. في آخر مرة قمت بزيارتها كانت مريضة. طلبت منها أن أبقى معها فرفضت وأكدت أنها

ليست بحاجة إلى خدمة زائدة. تقوم انتصار بكل المطلوب من الصباح إلى ما بعد الظهر.

اليوم وجدتها بصحة جيدة، وأسعدني استعادتها بعض بصرها. هي نفسها لا تعلم السر في ذلك فقد أيقنت بأنه لن يعود، وقد تكيفت مع غيابه ولم تجد حاجة إليه. تكلمت اليوم كثيرًا على غير عاداتها. كأنها فرحة بثقب النور الذي انفتح في عينيها. فتحت المكتبة وسحبت من رف كبير عددًا من الكتب المجلدة تجليدًا فخماً. فرشتها أمامي. تبينت أنها إلبومات لصور. أخذت تحكي لي عن فيها. خاصة زوجها الذي كانت تعشقه ويبدو حديثها عنه حديث المتيمة التي لا يخفت غرامها أبدًا، حكّت لي عن مهر لهما في باريس والهند وشيلي وكندا وتايلاند وجنوب إفريقيا والجزائر وكولومبيا.. قالت:

- لم أضف إلى الألبومات صورة واحدة بعد رحيل القبطان والأولاد. كانت كثيرًا ما تسأل عن نبيل الذي تعرف قصة رحيله المأساوية. تسحبنا رمال الذكريات المتحركة وشبه المتماثلة في بعض صفحاتها إلى الماضي لتبادل الحديث عن الأعراء الراحلين، وأجمل ما في الأيام ناسها، وبدون ناس الجنة ما تنداس.

قامت فعزفت كثيرًا لعبد الوهاب وبليغ والطويل، كما عزفت لأجانب، كانت تحدث البيانو بدون صوت وتنقل إليه مشاعرها ويكاد ينقل إليها مشاعره الغامضة ومكنونات قلبه المحمل بالأمانى والأشواق والهواجس الغامضة.

شرويت شخصية نادرة في إرادتها وحبها للموسيقى والجمال والهدوء. لديها اعتقاد راسخ أن القادم دائمًا أفضل. لا أستطيع أن أكون مثلها. عانت كثيرًا وارتفعت إلى الذرى وهبطت بشدة لترتطم والصخور والأعماق المجهولة، ومع ذلك تحسن الظن بالدنيا. أحسست وأنا خارجة من بيتها وهي تقبض بقوة على يدي إنها تضخ دماء متدفقة في عروقي.. دماء جديدة وساخنة غير دمائي الراكدة.. خرجت من عندها وأنا أشعر بقلبي يكاد يقفز بين ضلوعي. لديه مساحات يركض فيها. رأيت الناس أجمل والشوارع فسيحة، وثمة الحجار كثيرة تغني. الحياة تحتاج إلى أن يكون هناك من أمثال شرويت شهداء كثيرات. في مرة قادمة سنذهب إليها معًا.

سمعنا جرس الباب. قمت لأفتح. كان خالي شهدي بوجهه الباسم وأعضانه الدافئة. دخل المطبخ وترك كيسًا كبيرًا:

- كل سنة وأنتم طيبون.

سألته أمي:

- ماذا خبأت في المطبخ؟

- هل نسيت؟!.. رمضان كريم..

- كل سنة وأنت طيب يا شهدي. ربنا ما يقطع لك عادة.

- وأنتم طيبون.

- والموائد؟

- نفس النظام.

اعتاد أبي وعمي صبحي الجمل أن يجهزا عند قدوم شهر رمضان مائدة تكفي لإفطار مائة صائم كل يوم. على الموائد الكثير من اللحم والأرز والخضراوات والفاكهة والخبز والمياه الباردة. يحرص أبي والحاج صبحي وكذلك أولادهما شهدي وكامل ونبيل على تناول فطورهم مع ضيوف الرحمن حتى لا يظن أحد أن الطعام لا يناسب أصحابه وأنه يمكن أن يكون أقل درجة. وقد كان أبي والحاج صبحي يشتركان في ذبح عجل في العيد الكبير بعد أن يؤوبا من صلاة العيد ويقوم شباب العائلتين بتوزيع لحومه على الفقراء والأقارب.

هلت علينا روائح رمضان بأغانيه وأضوائه وفوانيسه ومدفعه وسحوره وصلواته وقرآنه وخيراته وزياراته وروحانيته.. رمضان الرحمة والمغفرة والعشق من النار.. رمضان الصبر وسعة الصدر التسامح وهدوء البال.

كنت أفرح كلما جاء رمضان لأن النور يملأ كل مكان وتعلو التسابيح والدعاء والصلوات. كنت أفرح لأننا كنا نلعب دون قيود حتى لو استمر سهرنا بالشوارع حتى صلاة الفجر مادمننا مع أخوتنا.. أفرح برمضان لأنني أشعر خلال أيامه أنني قادرة وكل الناس قادرة على الطيران والضحك واستعراض كل صور المحبة.. أفرح بقدوم رمضان لأن السيدة تبتهج ويلتف حولها مریدوها وعشاقها وتعالى

الأصوات بالذكر والابتهالات.. أفرح برمضان لأن الشياطين كما كان  
 يقول أبي يتم ربطها بالسلاسل حتى يتوافر الجو الملائم للعبادة  
 والاستقامة . ولما كبرت أدركت أن الإنسان ضعيف بدليل أن الله  
 يسلسل له الشياطين حتى يهتم بالقرآن والصلاة ويقوم الليل ويقبل  
 على التراويح والتهجد ويفرح بالصدقة.. قلت لأبي هذا فقال:

- يسلسل الله شياطين الجن أما شياطين الإنس فالتليفزيون يمنحها  
 كل الفرص لتفعل ما يحلو لها.

حاولت أن أكتف ضحكتي عندما تذكرت ما جرى في أحد شهور  
 رمضان منذ نحو عشر سنوات وكانت ريم في الرابعة عشرة.. كانت  
 صهرتها تطل على المنور، وعلى المنور ذاته تطل شقة جارنا منصور  
 طاهيل.. دخلت الغرفة لترتيبها في أول يوم صيام وكانت ريم تزور  
 بيتها ثريا لتسلمها الياميش ولوازم رمضان وفوجئت بأن حجرة نوم  
 منصور وزوجته لا يفصلها عن غرفة ريم غير متر واحد.. فوجئت  
 بالرجل معدوم التربية والدين وكان الوقت ظهراً يطلب من زوجته  
 لينة فرفضت وتراجعت فهجم عليها ونال قبلة وحاولت الهروب  
 منه لكنه قبض عليها وحملها حملاً على السرير والمرأة تسبه وتدفعه  
 حسب الأصوات التي كانت تثقب أذني وأنا مترعجة من أجل رمضان  
 والسيدة المقهورة التي كانت تقول له:

- حرام يا رجل.. ألسنت صائما.

- صائم.

- وكيف ترتكب أكبر معصية.
- الله غفور رحيم.
- إلا في هذا.
- خليك أنت صائمة وسأتحمل أنا الذنب.
- سأتحمله معك.
- يمكن نصوم بدلًا منه عشرة.
- لا يفيد.. لأنك بلا عذر.
- وحاولت مجددًا أن تفر فقبض عليها.
- تعالي هنا..

وظل في محاولاته وأنا لا أدري ماذا جرى لي.. كنت فضولية جدًا.. أريد أن أحضر نهاية العرض، ويبدو أنه اضطر لتمزيق القميص وأمسك بالثديين وهي تلكمه وتضربه بركبتيها، فيقول صارخًا وغير متنبه للشقق المتلاصقة:

- بالركبة يا بنت الكلب.. مهما تعملين لن أتركك.. أنا كل العفاريث ركبتي.

ازدادت حماسته لاستكمال جريمته وهو يحاول اغتصاب زوجته واغتصاب الشهر، إلى أن ساد صمت إلا أنفاسه اللاهثة والعالية، فتصورت أنه نال مأربه، وإذا به يقول لها:



ساحر الكتب

- ضيقت صيامي يا بنت الكلب ولم أصل لشيء.. تحرمي عليّ طوال شهر رمضان.

عدت أضحك وأنا أشفق على المسكين.. سباك الحي الذي فقد البصيرة. بعدها نقلنا غرفة ريم على الشارع، وقد أرضاها هذا بسبب البكونة.. لكننا كنا رغماً عنا نسمع الكثير من هذه المشاهد التي لم يكن فيها ما يغضب الله بعد انتهاء رمضان.

كان أبي والحاج صبحي لا يعودان من المسجد إلا في نحو العاشرة بعد صلاة العشاء والتراويح وبعد أن يمر على الفقراء والمحتاجين ويوزعان ما تجود به نعم الله الذي لا يغفل عن عباده. ويعود كل منهما لينام ساعات قليلة ثم يصحو للسحور والفجر وتلاوة الأوراد وقلباهما معلقان بخالق الأكوان سبحانه.. ليتني أستطيع أن أوم بعشر ما كان يقوم به أبي لعل الله يرضى عني ويلطف بي من هجمة المرض. لا شيء يخفى عليك يا رب. أنت أعلم بحالي مني.

\*\*\*

# 11

اكتشف منذ أعوام عمره الأولى أنه ليس محل اهتمام أحد خاصة أفراد عائلته.. والده الحاج صبحي المرسي هداية الجمل أعلن أن المولود القادم بعد محمد كامل صاحب الاسم المزدوج سيكون على اسم أبيه حتى لو جاء بنتا. ليكن المرسي أو المرسية، وهي وحفظها وهو وحظه.

المرسي طفل هادئ يتمتع بحواس قوية جدًا تفوق ما يتمتع به أخوته سواء كامل أو نبيل أو وداد. عيناه واسعتان وكحيلتان وسمعه شديد أما شمه فحساس جدًا للروائح ويميز بين الآلاف منها حتى لو كانت على بعد خمسين مترًا.. الغريب أنه يتعرف على جودة الطعام بشمه لا بتذوقه، والأغرب أنه يعرف مرارة الثمرة أو حلاوتها من شمها، ويستطيع أن يقيس كمية الملح بالزيادة أو النقصان في الطعام، ومدى نضجه أو دسمة بالشم، وبالطبع هو مرجع في معرفة ما إذا كان الطبخ أصبح حامضًا أو في الطريق إلى ذلك، وكان وهو على السلم

قال أن يدخل الشقة يقول لأمه إذا فتحت له مشيرًا إلى وداد أخته  
الصغرى وآخر العنقود:

« اكتشفي علي وداد فقد تبرزت علي نفسها.

حدث في مرة أن خجل من مصارحة أخيه نبيل الذي استمنى في  
المصام مع أنه نظفه جيدًا.. ولم يكن رأيها فيما يخص حاسة الشم  
بموضع نقاش. لكنه تأخر في الكلام ولم ينطق غير بضع كلمات  
وهو في الرابعة من عمره يمكن أن ينطقها طفل لم يبلغ الثانية بعد.  
وكالما عزم أبوه علي أن يعرضه علي طبيب تخاطب أو أعصاب قال له  
استدفاؤه وأولهم حسين البنهاوي:

« لا تتعجل. الذكور يتأخرون في الكلام عادة عن البنات. ولا داعي  
الطلب الآن فقد يكتب له حقنًا أو أدوية تؤذي الولد أو تدفعه لكرامية  
الطلب. دع كل شيء للطبيعة. وما ستدفعه للأطباء وزَّعه علي الفقراء  
والطلب منهم الدعاء لولدك.

في المدرسة يميل إلى الجلوس في آخر صف، وربما كان السبب  
في ذلك أنه قرر ألا يتدافع ليحتل موقعًا متقدمًا فلم يبق له إلا الصف  
الأخير فرضي به واعتاد عليه خاصة أن أحدًا من التلاميذ لم ينازعه  
عليه.

مرسي خجول ويكره الصراع بشتى درجاته. كما أنه لا يتحمس  
المشاركة في الإجابة علي أية أسئلة حتى لو كان يعرف إجاباتها،

ويفضل أن يهبط في المقعد حتى لا يراه المدرس، ويحاول وضع رأسه بالضبط خلف رأس من يجلس أمامه حتى يغيب وجهه فلا يسأله أحد عن شيء... يكره الأسئلة ويكره الإجابات ويكره الوقوف والجلوس والمواجهة. ولذلك لم يشارك في الألعاب ولا في الإذاعة ولا الغناء في حصة الموسيقى ولم يقبل على تعلم العزف. وهو لا يشعر بالسعادة إلا عندما يكون في حالة انفراد وعزلة.

عزم ألف مرة أن يقول لمن يناديه: المرسي.

أنا في الحقيقة اسمي المنسي وقد أخطأ موظف السجل المدني الذي يقيد المواليد ولم تتنبه الأسرة لذلك فنادني: المنسي.

لكنه لم يفعل، مفضلاً عدم الدخول في نقاش سخيف سينتج عن الموقف بكامله ولا جدوى منه.. بعد أن بلغ الثانية عشرة وأنهى مرحلة القبول الابتدائي ترسخ لديه أن النقاش مضيعة للوقت ومجهد للعقل ويؤدي للتوتر والخلاف. ولذلك لا يحاول التعبير عن نفسه مهما كان الموقف يقتضي ذلك، بل مهما تعرض لظلم يتعين عليه أن يدفعه، وهو لا يميل إلى البوح أو الفضفضة حتى لو أوشك على الاختناق بما يمور بداخله. وقد تغلغلت في أعماقه فكرة أنه من وجهة نظر الناس غير موجود، أو موجود لكنه كائن غير مرئي. وكم أحب أن يشاهد فيلم «طاقية الإخفاء» ولم يمل من رؤيته عشرات المرات، إلى درجة أنه عندما بلغ الخامسة عشرة لم يستطع أن يمنع نفسه من البكاء

عندما لاحظ أن العائلة كلها تشاهد الفيلم وتضحك وتتابع باهتمام  
بما كان نائمًا وكان عليهم أن يوقظوه منذ الدقيقة الأولى. لما كبر  
وشاهد الأفلام الأجنبية صار يبحث عن الأفلام التي لا تظهر بعض  
الخصائص، إذ تمارس الهجوم والدفاع والهروب والسرقة والقتل  
والحب وهي غير منظورة في أغلب المشاهد. عندئذ لن يستطيع  
مخلوق على الأرض أن يحركه من أمام الفيلم. وبعد انتهاء الفيلم  
يشعر بالرضا ويتنفس من أعماق أعماقه وينزل إلى الشارع ليتمشى  
ويجري ويضحك ويضرب الحصى بحذائه ويعانق عواميد النور  
والشجر ويرقص مع الريح حتى لو لم تكن هناك أية ريح. ثم يرجع  
إلى البيت لا يرد على أحد ويدعي النوم إذا تطلب الأمر رفضًا للكلام  
والطعام ومكتفيًا بما تلقاه من الفيلم.

إذا ضاعت مسطرتة سرق مسطرة زميله في الفصل وأنكر أنه  
أخذها. إذا لم يكفه مصروفه لا يطلب من أبيه أو أمه، لكنه يتسلل إلى  
محافظة أي منهما ويلتقط جنيها أو نصف جنية ويمنع نفسه من الطمع  
حتى لا يغلق الباب تمامًا فيفقد النبع. يدخل المطبخ في البيت فيأكل  
ما يشاء من اللحم والفاكهة وإذا سأله يهز رأسه نفيًا، واعتاد الأهل أن  
يصدقوه، أو اعتادوا على وجه الدقة ألا يسأله لأنهم لا يتوقعون أن  
تكون له علاقة بأي شيء، وقد كان منذ صغره يتلصص على النسوة  
في حجراتهن وعلى البنات إذا انكشفت أفخاذهن ثم يدعي النوم  
العميق.

اعتاد أن يشعر بالغيرة من معظم أبناء الأسرة والزملاء في المدرسة لأنه يلاحظ جرأتهم ولباقتهم وذكاءهم والأعبيهم وحضور بديهتهم وضحكهم وقدرتهم على الإضحاك وكثرة الكلام وانطلاق خيالهم وما يحفظونه من قصص وأشعار وما يدبرونه من حيل لمعاكسة الأساتذة أو أولاد المدارس الأخرى. لكن غيرته من نبيل زائدة، وبعد أن مات تسلل إلى غرفة والدته وجمع عددًا كبيرًا من صورته وكانت في صندوق على التسريحة.. أخذها وأخفاها لأن أمه كانت تقضي معها الوقت الطويل تنظر إليه وتقبله وتذرف الدمع، ودائمًا تقول:

- يا حبيبي يا بني. اتخطفت يا ضنايا وانقطف عمرك بدري.

لا يسمعها أو يرد عليها إلا الدموع ورجفات القلب المكلوم.

حصل بصعوبة على دبلوم التجارة ولم يرض أن يكمل تعليمه ولا أن يعمل بالورشة في المناصرة مع أبيه وأخيه كامل. لا ينسى له والده أنه تركه وحده في الورشة وهو صغير وكان العمال قد ذهبوا للغداء ونبهه والده بعدم ترك الورشة لأي سبب حتى يلحق جنازة جارهم الشيخ مدبولي ولما عاد اكتشف اختفاء طقطوقيتين غاليتهما الثمن وعده صاحبهما سكرتير عام المحافظة أن يرسل من يأخذهما عصر اليوم. فتش الرجل طويلًا فلم يعثر لهما على أثر. سأله والده:

- هل تركت الورشة؟

برد مرسي بفتور وغموض:

- لا.. لم أتركها.

بدهش الرجل ثم يعود للبحث عن الطقطوقيتين الجميلتين الصغيرتين. قطعتا موبيليا على درجة عالية من الفخامة. كان الكثيرون من أصحاب الورش يلمحون العمال وعلى رأسهم الحاج صابر يعملون فيهما باهتمام بالغ خاصة الأويما والرخام وحليات الذهب. فصل الحاج صبحي بالسكرتير العام وأنبأه بسرقة القطعتين وطلب مهلة أسبوعًا لإعادة تصنيعهما لكنه ظل لشهور يلون الحزن خاطره.. حزن مشوب بغضب من ولده الذي حرص على ألا يتركه وحده في الورشة بعد ذلك.. لم يعاقبه لأنه كان يعرف أنه على الدوام شارد وكثيرًا ما يفتقد التركيز وينسى.. تصور بسهولة السيناريو الذي حدث. لابد أن أحد اللصوص الراصد للقطعتين أرسل من ينادي المرسي ليشاهد الحاوي أو أي شيء يجذبه فترك الورشة وما هي إلا ثوانٍ اختفي خلالها القطعتان. لام صبحي نفسه، لكنه بسرعة قال:

- ما كان يجب أن أتأخر عن جنازة الرجل الصالح صديق العمر الشيخ مدبولي.. قدر الله وما شاء فعل. الحذر لا يمنع من قدر.

بعد عشر سنوات اضطرته الظروف لبيعته بالمرسي إلى البنك ليصرف شيكًا بمبلغ ألف جنيه ولسوء الحظ كان هناك لص يقف في ظاهور الصرف ومعه ورقة مطوية يدعي للواقفين أنها شيك، لكن عينه

كانت تراقب من يتسلمون الأموال ومقاديرها وطبيعة شخصياتهم ولاحظ أن هذا الشاب خفيف مضطرب يأكل أظافره ويتلفت كثيراً بعد الصرف تبعه وما أن خرج حتى اختطف حقيبته الجلدية الصغيرة وقفز فوق دراجة نارية انطلق بها شريكه المتأهب. وقف الضحية مذهولاً. ضاعت أموال أبيه. لم يلحظ أو يحس بأي شيء. اللص اقترب منه ولاحظ أنه يضع الحقيبة على صدره ويقبض عليها بشدة كما نبهه أبوه. قال له:

- لو سمحت يا أستاذ انظر في هذا الشيك وقل لي هل يصلح للصرف؟

عندئذ فك المرسي يداً وأمسك بالورقة الممدودة. في أقل من ثانية كان قد اختطف الحقيبة الصغيرة واختفى. لم يلتقط رقم الدراجة هبطت يده متدلّية إلى جواره ولا تزال ممسكة بورقة بيضاء، وهبطت روحه إلى قدميه وكاد يتبول في ملابسه. دقائق كثيرة لا يدري من أين تأتي تطرق رأسه. قلبه يدق بقوة. عقله توقف. ماذا عليه أن يفعل؟ .. ما الذي سيقوله لوالده؟ .. لا بأس أن يكذب، لكن ما هو الكذب الذي يصلح في هذا الموقف الصعب؟ . قالوا قديماً:

- كذب مساوٍ ولا صدق مشوش.

لم يجد حلاً إلا الاختفاء كما اختفت النقود. مضى يسير في الشوارع ربما يهتدي لحل. لم يكن هناك في الشوارع التي اخترق



فيها العشرات أي أثر للحل . انتهى إلى حتمية الاختفاء وسوف يقلبون الأرض بحثًا عنه لا طلبًا للنقود ولكن رغبة في أن يعود . استعرض في رأسه كل شخص من الأقارب أو الأصحاب يمكن أن يتواري عنده لمدة يومين على الأقل . شرط وحيد في الملجأ أن يكون صاحبه مجهولاً أو بعيداً عن قائمة أصدقاء الأسرة المقربين . لم يعثر على أي شخص يمكن أن يتوافر فيه هذا الشرط لأنه بلا أصدقاء حقيقيين . ذهب إلى مسجد السيدة .. شعر براحة نسبية . حاول أن يقلب الموقف من جديد .. لم يجد أية فرصة للخروج من المشكلة .. أحس رغبة في أن يمدد جسمه .. المكان طري وهادئ . انتهى المصلون من أداء صلاة الظهر وخلا المسجد .. تنفس بعمق وأناخ رأسه على ساعديه وبعد لحظات انقطعت صلته بما حوله وبما جرى له .

بعد نحو ساعة استيقظ ومسح بنظرته المكان الساكن والودود . شعر بالجوع الشديد . فكر أن يمد يده لأي عابر . هناك الكثيرون ممن يمنحون الشحاذين طمعاً في الجنة مع أنه يعلم جيداً أنه لن يكون مسلماً إليهم . دار حول المقام وحاول أن يحكي للسيدة ما جرى :

- أنا يا سيدة يا طاهرة ..

قبل أن يقول أية كلمة انتفض جسده وسالت دموعه ثم تهاوى . كان يريد أن يطلب منها أن تبحث له عن حل .. تعلق بلسانه عبارة :

- أنا جوعان يا سيدة .

حدث ما يشبه الماس الكهربائي في نفسيته ما بين طلب المساعدة والهبوط إلى درجة طلب الطعام. هانت عليه نفسه إلى درجة مزرية، حاول أن يقنع نفسه أنه ليس عيبًا التصريح بضعفه وجوعه للسيدة. فللمرء بلا حول ولا قوة ولا عقل يحدق في السقف. هب واقفًا فجاء ولا م نفسه لأنه لم يقرأ الفاتحة للسيدة ولم يسلم عليها ولا على أحد من آل البيت خاصة والدها كرم الله وجهه. قرأ الفاتحة وقال لها:

- سامحيني يا أم هاشم. أنا مرتبك لأنني رجل ملو هدومي كما يقولون ويسرق مني شاب في مثل سني مال أبي وأصبح في لحظة واحدة لصًا أو خائنًا أو فاشلاً بدلًا من أن أدخل على أبي مرفوع الرأس منتصرًا أسلمه ماله وثمان عرقه وعرق العمال.

بدون أية إشارة أو مقدمات تذكر صفوت أمين الشرطة زميله في الابتدائي الملحق بقوة قسم السيدة وكان قد حصل في السنة الماضية على مكافأة من مدير الأمن لمطاردته للصوص سرق مبلغًا كبيرًا من المال من سائحة كندية وقبض عليه واستدعى السائحة وسلمها مالها وحرره محضرًا للسلارق واحتجزه، وفي اليوم التالي نشرت الصحف صورته وهو يتسلم المكافأة، وكان قبلها بأسابيع قد تقدم لخطبة ابنة زغلول الحلواني الذي طلب فرصة للتفكير، وكلما مر به طلب الحلواني فرصة ثانية وثالثة.

مضى مرسي يستحضر أهم سمات صفوت وأولها إرادته وحبه للعلم وصبره على ظروفه القاسية.

كان المرسي أعز أصدقاء صفوت حتى الإعدادية، ثم تفرقت  
 بهما السبل ومع ذلك كان يفرح جدًا كلما التقاه. سأل نفسه: لماذا  
 لا يزوره في القسم؟.. مجرد قضاء وقت حتى لو لم يخبره بالحادث..  
 استحسن الفكرة.. رحب به وكان على وشك الخروج.. أصر على  
 اصطحابه إلى بيته الذي يقيم فيه وحده بعد زواج كل أخوته ووفاة أمه  
 قبل شهر.. حكى له ما حدث بالحرف. طلب منه أوصاف الخاطف.  
 عرض عليه أن يحرر محضرًا يشكو فيه السارق. رفض المرسي. قال  
 له صفوت:

- لن يحدث أي تحرك لاسترداد حقك إلا بمحضر.
- أنا لا أريد مشاكل مع أحد.
- ليست هذه مشاكل بل قضاء عليها.
- لا يا صفوت أرجوك. انس الموضوع. جئت فقط لأراك وأنفس  
 من روعي معك.
- كيف تقبل أن تفقد مالك ثم لا تأخذ أي إجراء.
- أنا.. في الحقيقة.
- لن أعرفك إذا لم تحرر محضرًا. أنت لا زلت كما كنت أيام  
 الدراسة.. سنحرر المحضر الآن وسوف نسترد مالك وتحرر له قضية  
 ويلقى العقاب الذي يستحق. البلد لا بد أن تتطهر من هؤلاء.

حرر محضراً بكامل بيانات وشهادة المرسي وتفاصيل ما جرى  
وملامح اللص. سأله صفوت:

- أليس في وجهه أية علامة مميزة؟

بعد لحظات بينما نظراته تدور في الغرفة وتمسح الجدران قال  
المرسي:

- ليس غير شامة فوق حاجبه الأيسر وأثر لجرح قديم طويل ورفيع  
على صدغه الأيمن، وهو أسمر اللون وشعره أكرت وطويل.

سأل صفوت بعض المساعدين عما يمارس السرقة على دراجة  
نارية في المنطقة.

وعدوه بالبحث وغداً على الأكثر تكون البيانات جاهزة.

اقترح عليه البقاء معه يومين على الأقل حتى تهدأ المشاعر الثائرة  
أبدى مرسي رفضاً متكلفاً لكن صفوت ألح بشدة. بات المرسي  
ليلته في بيت صفوت الشامي وفي الصباح استيقظ فلم يجده.. دار  
في الشقة الصغيرة ووجد كتباً كثيرة في القانون. علم من صفوت بعد  
ذلك أنه التحق منتسباً لكلية الحقوق حتى يتمكن من الترقى. في اليوم  
التالي أحضر الجنود اللص من حي الخليفة ووضعوه في الحجز.  
أرسل الأمين صفوت جندياً يستدعي مرسي من بيته ليتعرف على  
اللص. جاء واندهش عندما وجده هو الذي سرق الألف جنيه. أخذوا  
أقوال اللص الذي أنكر وقال إنه لا يعرف هذا الشخص. وضع الأمين

المن واسمه الهن تحت التحفظ لحين عرض الموضوع على سيادة  
المن المباحث، ولما حضر النقيب أمرهم بوضعه في الحجز لحين  
رفع المبلغ. أو عز صفوت إلى جنديين يتمتعان بصحة جيدة أن يجبرا  
المن على الاعتراف والتحدث لأهله لإحضار المبلغ خلال ساعات  
قبل تحويله إلى النيابة.. أبدى مرسى انزعاجه من خطة صفوت الذي  
صرخ فيه فجأة قائلاً:

- أنت تسكت خالص. لازم يقول حقي برقبتي. لا بد لهذه المهزلة  
من نهاية. الناس تتعرض كل يوم لخطف وضرب وسرقة وتزوير.  
وكفهم الفقر الأزلي الذي يعيشون فيه.

حاول المرسى أن يتكلم. قبل أن يلفظ بكلمة عاد صفوت يصرخ  
فيه:

- لو سمحت دعنا نمارس عملنا وتفضل اعمل جولة ساعتين أو  
ثلاثاً وسوف يكون هناك جديد إن شاء الله.

عاد مرسى يدور في الشوارع حتى وصل شارع قصر العيني ومنه  
إلى النيل. مضي يراقب الزوارق التي تنتقل بالأحبة والعائلات. تمنى  
أن تتاح له الفرصة بعد انتهاء الأزمة أن يستقل زورقاً ويستمتع بالنيل  
البيدع ويشاهد عن قرب أبنيته وفيلاته وفنادقه الفارحة على الجانبين.  
سوف يصل إلى النافورة التي تتوسط النيل ويدور حولها. اكتشف أنه  
محروم من أشياء كثيرة وأنه أحكم إغلاق الباب على نفسه. إنه بحاجة

إلى أن يمارس الهوايات ويستمتع للنكات ويغازل البنات ويسهر الليل مع الأصدقاء. واجه نفسه..

- لكن أين هم الأصدقاء. سوف يكون صفوت من اليوم فصاعداً صديقي. رجل يوثق به ويعتمد عليه.

قاربت الساعة التاسعة. رأى أن يعود إلى القسم ليستكشف الجديد. دعا الله أن يكرمه بالنجاة من هذه الورطة التي يمكن إذا لم تحل أن تفسد عليه حياته الفاسدة أصلاً. أشار له صفوت بالجلوس ومسح فمه بكفه بما يعني ألا يتحدث. طلب له شيئاً.

قبل الساعة العاشرة مساءً بقليل وصل أصدقاء وأهل الهن. قدموا المبلغ للأمين. استولى الدهول على مرسى. وهمست أعماقه:  
- بركاتك يا ست.

عانق صفوت الذي أغلق المحضر وطلب منه مرسى العفو عن اللص فرفض.. قال لا بد من رأي رئيس المباحث. طلع مرسى مع صفوت إلى النقيب الذي وافق بعد توسل شديد من مرسى، طلب من صفوت عمل محضر صلح لإغلاق البلاغ حتى لا يُحول الجاني إلى النيابة. شكر الهن الأمين وشكر مرسى ودنا منه هامساً في أذنه:

- سأبيع من جسدك الكيلو بجنيه. صبرك عليّ.. سلام.

عاد مرسي إلى بيته وحكى القصة كاملة لأبيه، ثم مد له يده بالألف  
 هبه. وانشغل بالتفكير في اللص الذي هدده بالذبح. في اليوم التالي  
 دار صفوت وشكره وشكر زملاءه وأخبره بما قال الهن، فقال الأمين:  
 - لا تقلق فقد تضمن محضر الصلح توقيعه على تعهد ألا يتعرض  
 لك بعد ذلك بأية صورة وإلا تم تحويله للنيابة واعتباره سارقاً لأن  
 المحضر الأول سيتم فتحه بالإضافة إلى أي عدوان أو تعرض لك.

\*\*\*

# 12

تنقلنا بين أقسام الشرطة أنا وراضية زميلتي في المسرح وزوجها المحامي وصديقه نقيب الشرطة من قسم الدقي للبحث عن ناجي. كان أبوه وأخوه وأصدقاؤهم قد بحثوا عنه فلم يعثروا له على أثر ولم يجدوا له اسمًا في أي مكان. في مباحث أمن الدولة بلاطوغلي أنكر ضباطه وجنوده معرفتهم بشخص يحمل هذا الاسم، وفي مباحث أمن الدولة بجابر بن حيان بالدقي المجاور للمدرسة الألمانية أكدوا أن هذا الاسم لم يمر عليهم. وفي مباحث أمن الدولة بمصر الجديدة لم يسمعوا به.

من التاسعة صباحًا حتى الثالثة عصرًا على مدى ثلاثة أيام، ركبنا التاكسيات والميكروباصات ومشينا على الأقدام وطلعنا سلالم إلى طوابق عالية كثيرة مسدودة بالبشر والدموع والأسئلة والحيرة والتخبط. هرج ومرج وأرواح هائمة تسأل عن أرواح ضائعة ومصائر مسلووبة. مقرات أمن الدولة عالم آخر يزدحم بالضباط والمحامين والمكاتب والأوراق والملامح الجهممة والأصوات العالية الخشنة والصراخ



أحياناً وشفق الأبواب والعيون الحمراء التي ألهبتهما شلالات الدموع،  
 وعيون حمراء من القسوة والوعيد والرغبة في الردع والترهيب..  
 فلما وجدنا في بعض الكشوف اسم ناجي استبشرنا خيراً لكن بقية  
 الاسم تختلف وأحياناً كانت عيناى تسبق الأصابع التي تمر على  
 القوائم المحتجزين، وأجد ناجي أحمد فأصرخ فرحاً ثم يصدمني لقب  
 العائلة المختلف. كنت أنقب عن اسم ناجي أحمد رمضان الورداني..  
 الحبيب والأخ والصديق والشريك. النافذة العريضة المطلة على  
 حدائق البهجة. ناجي طعم آخر للعالم الممتدة الكثيرة. الدنيا المملة  
 والمفتقدة لأي أمل. دنيا لا تعرف الحماس والتحدى والضحك.  
 نفسي أضحك مع أخوة وأحباب لسنوات طويلة. نفسي أفرح بأولادي  
 الذين سأصنعهم على عيني وأخلق منهم منارات للحياة. نفسي أنام  
 وأصحو على الجمال في كل قول وفعل. في كل شارع وحارة وميدان  
 وفي عيون الأطفال وملابسهم. وفي قلوب الأمهات والمدرسات  
 وفي التليفزيون والقطارات والمستشفيات. نفسي تكون كل بلكونة  
 معرض زهور والمدارس حدائق، وتختفي المحاكم وكلاسات  
 السيارات.. تختفي الأمراض والدموع والجوع والفقر. أتمنى أن  
 يختفي من الحياة كل المنافقين والكذابين واللصوص والأهم من كل  
 هذا أن يختفي الذل والإهانة والقمع والقهر والصمت الإجباري. أما  
 الآن فأود من كل قلبي أن أجد ناجي الورداني. الحبيب الذي جعلني  
 أعمل على الحياة وأتمسك بها وأدافع عنها وأن أعشق الوطن والحرية  
 والعدل والكتب والفنون.

في ليلة تواعدنا على حضور ندوة يتحدث فيها عدد من لقاء المسرح عن بيتر بروك وهو مخرج ومفكر مسرحي كبير يتعدى تجاهله. استمتعنا معرفيًا جدًا بالمحاضرة والأسئلة واشتباك ناجي مع محاضر مغرور في حوار مهم ولكنه استفز الحضور في بعض مراحلها وسمعت من الخلف من يعترض على ناجي الذي يحاصر المحاضر بعد الندوة دعاني ناجي لتناول الكشري بالشطة. كان يعرف أنني أحب وأجيد صناعته لكنه في الأغلب لا يكون بنفس الطعامة التي يتميز بها ما تقدمه المطاعم. أكلنا وعزمت ناجي على «فخفخينا» في شارع جامعة الدول العربية. سألته ويبدو أنني كنت سخيقة إلى حد ما:

- من المهم أن تعرف الفتاة طبع من تهوى.

انبسطت أساريه وتهللت، وقال:

- هذا هو الكلام.

- بمعنى.

- بمعنى الدخول مباشرة في الموضوع.

- بمعنى.

- بمعنى الرغبة في التعرف العميق على الطرف الآخر.

- تمام.

- تفضلي.

- ماذا تعرف عن نفسك من حيث الطباع الأساسية. مثل.. هل أنت  
 بطول أم كريم. مغرور أم متواضع. شجاع أم جبان. عصري أم محافظ.  
 عصبي أم واسع الصدر. تحب المال أم تهمل المعنويات أكثر. أناني  
 أم تحب لغيرك ما تحب لنفسك.

ابتسم ناجي ثم ضحك وما لبث أن قهقه عاليًا. ابتسمت واندهدشت  
 أم قلت:

- الضحك من أجمل المنح الإلهية. الطبيعة ذاتها تضحك ولكن  
 ما السبب؟

عاد ناجي يضحك، بينما توقفت عن الضحك واكتفيت بالابتسام  
 والدهشة، ثم انتقلت إلى مط الشفاه. قال ناجي أخيرًا:

- كنت أعتقد أن معرفة الطباع لا تكون نظريًا عبر الأسئلة، وإنما  
 بالممارسة والمعاشة والاكتشاف.

- يا أستاذ. قصدت أولًا توفير الوقت والتجارب، وثانيًا لأتعرف  
 من خلال رأيك في نفسك مدى وعيك بحالك، وحالك كما تعلم  
 يصعب على الكافر.

انفجر ناجي ضاحكًا من جديد.. لكنه حرص على ألا يستدرجه  
 الضحك طويلاً إلى درجة إزعاجي، فقال:

- حلًا للمشكل. هل يمكن أن تجيبي أنت أولاً على حزمة الأسئلة التي أعددتها، وليكن دوري تاليًا؟

رمى ناجي الكرة في ملعبى فاستهلكت بعض اللحظات وأنا أرتشف من كوكتيل العصير والفاكهة، ثم قلت:

- أنا مثلاً عصبية بعض الشيء، وأعترف بأن الماديات شيء مهم لأي إنسان لكنها يجب أن تأتي - إذا قررت أن تأتي - بطريق مشروع وليس على حساب الكرامة. أنا لست مغرورة ولست متواضعة. أظن أنني لست أنانية. أحب لغيري ما أحب لنفسي. أو من بالتطور التدريجي ولا أو من بالطفرات إلا في حالات التوقف الطويل عن النمو حتى يتم تعويض ما فات. لذلك أو من بالشورات لتحقيق هذا الهدف. أو من بالإرادة. فلن يكون الإنسان حرًا إلا إذا أراد أن يكون. أو من كثيرًا بالجوهر ولا يشغلني المظهر.. الجوهر تصنعه الثقافة والعلم والقيم. كثيرون يهتمون بالمظهر كصورة وحيدة للشخصية، مع أن الريش الجميل ليس كافيًا ليصنع طائرًا جميلًا.

- رائع.. رائع جدا.

- رأيت أن المسألة أسهل من أخذ الحقنة.

عاد ناجي يضحك ويتوقف ثم لا يتمالك نفسه. حاولت أن أنهى الحالة فقلت:

- حان دورك يا أستاذ.

- قبل الحديث عن دوري. أود أن أعرف رأيك. هل تتحركين في الحياة حسب المبادئ أم حسب المصالح؟

- حسب المبادئ بالطبع.

- ألا تتغير المبادئ؟

- الثابت منها لا يتغير في الأغلب.

- أظن أننا عندما نتكلم فكلنا أصحاب مبادئ وعندما نعمل فكلنا أصحاب مصالح.

شعرت ببعض الارتباك. ماذا يقصد؟ هربًا من الحيرة قلت:

- أعترف أنه يحدث أحيانًا بالنسبة لي ولكن في نطاق ضيق جدًا.

تنفس ناجي بعمق وقال:

- هذه المسألة تحدث لنا جميعًا وأكثر مما نتصور. سواء في الأمور الصغيرة أو الكبيرة.

- نحن شعوب لا زالت عاطفية. تخضع للمدح والذم. للحب والكراهية، وليست أحكامها موضوعية بالدرجة المطلوبة للتطور.. يخالط معظم الناس بين مشاعره ورأيه.

- عندك حق، لكن الناس في العادة على دين ملوكهم. وعندما يتم اختيار حكام موضوعيين سيكون الشعب موضوعيًا، ولو كانوا أصحاب مبادئ سيتمثل الشعب بهم. فانظري لحال حكامنا الذين

يرحبون بأي نصيحة أمريكية ولا يرفضون طلبًا لإسرائيل. إنهم يتحركون في إطار المصالح.

- مصالح من؟.. ليتها مصالح الوطن.

- يتصورون ذلك.

- مصالح الوطن تبدأ بالكرامة ثم بحقوق الإنسان بكل ما تعنيه الكلمة.

- وما رأيك في القدر؟

- لا يعنيني.

- ولا أنا.

- أنا أو من بالإرادة. إذا الشعب يومًا أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر.

- والموت.

- لا يعنيني.

- ولا أنا.

- والسجائر.

- لا تعنيني.

- ولا أنا.

ضحكنا معاً، ثم نظر ناجي فجأة في ساعته، وقال:

- سامحيني لا بد أن أمر على نورهان أختي في سانت تريزا.

- أنت تهرب من سؤال الطبايع.

- أنا مثلك بالضبط.

- بالضبط بالضبط.

- نسخة بالكربون.

- كفك.

ارتطمت الأكف الأربعة في المواجهة ثم تصافحت. قلت وأنا

الف وأهندم ملابسي:

- لماذا تنوي المرور على نور في هذا الوقت المتأخر؟

- للاطمئنان على ابنتها. كانت بالأمس في حالة سيئة جداً وطمأننا

الطبيب.

- يمكن الاتصال بالتليفون مؤقتاً وغداً...

- مستحيل.

- أنا أيضاً تأخرت ولم أعد شيئاً لأبي.

- سلام.

- سلم لي عليهم جميعاً.

تركته وأنا أفكر في سالي التي لم أسأل عنها منذ شهرين ولم تسأل. غداً أزورها وأبقى معها ساعة أو اثنتين. خالتي أيضاً وحشتني. وصلت البيت بصعوبة أجر أقدامي ونصفي السفلي الثقيل. خلعت حذائي قبل صعود السلالم. ارتميت على السرير. لحظات ثم تذكرت أبي. كنت قد أخرجت اللحم من الثلاجة. وَعَدت أبي أن أطبخ له الملوخية والأرناب والكشك. أسرعت إلى الحمام. أخذت دشاً لأمه منه بوصفه مفتاح باب اليقظة. بدأت العمل. أبي الحزين الصامت الشارد تعبر صورته خيالي كثيراً سواء كان حاضراً أو غائباً. أبي الذي يعيش على هامش الحياة.

\*\*\*

هل هو الذي أراد هذا أم أراده الله أم دفعته الظروف في هذا الاتجاه البائس؟ .. طريق واحد مترب ويائس.. أحيانا أشك.. كل شيء جديد بالشك. لا شيء على الأرض يقيني.. الشك وضع غير مريح، لكن اليقين حماقة. وأنا أظن أن أبي هو الذي رسم لنفسه هذه الصورة حتى هذا الرأي أشك فيه. أنا أشك إذن أنا موجود.

أنا متأكدة. لا لست متأكدة ومع ذلك فأنا متأكدة أن أبي سيصبح عاقلاً يوماً ما ولكن بعد فوات الأوان.

منذ ولدت وأنا ألمحه سائراً في طريق ليست به أية معالم. ولم يحاول فيما أعلم تغييره بأية وسيلة. ربما لأنه يفتقد الإرادة. لا أريد أن



القول يفقد الإحساس فربما كان مكتومًا أو مقموغًا. الإرادة أصل كل الأعمال حتى الحقير منها، وبدون الإرادة هناك الموت أو على الأقل العجز والذبول وكلاهما موت.

كان لنا أستاذ في المعهد مثل أبي. هادئ جدًا وشارد ولا يشارك في أي نشاط أو حوار، ويكاد لا يتحمس للإجابة على أسئلة الطلاب بأسهل طريقة أن يحيل صاحب السؤال إما إلى كتاب له أو لأستاذ آخر أو لناقد غربي.. زوج خالتي ثريا فيه شيء من ذلك، لكنه ليس كإبي. ربما كان السبب عدم قدرته على الإنجاب.. أنت لم تخلق نفسك ولم تكتب قدرك أو تصنعه. الإنسان يستطيع أن يغير قدره الذي لا يعرفه ويعيد خلق نفسه ويحيى ملكاته، ويكتسب مهارات ويحولها إلى ملكات، وإذا لم يفعل فهو يخون إنسانيته ويتخلى عن المنح التي وهبها الله له. الحيوان هو فقط الذي يتحرك في دائرة ضيقة رسمها القدر له بدءًا من النوع والقدرات إلى الظروف، لكن الإنسان لديه عقل يستطيع به أن يكسر حواجز النوع والظروف والمواصفات الشخصية.

الواجب يحتم عليّ أن أبذل أقصى ما في استطاعتي لتوفير بعض الراحة لأبي حتى يرضى عن الدنيا ويعيد الارتباط بها. سوف أحاول استرداده وإعادته إلى البيت. لم يعد لي غيره على الأقل في فترة غياب إبي. أرجو الله أن يفك سجنه قريبًا إذا كان لا يزال حيًا.

أبي مذوعيت للحياة وأنا ألاحظ توحده وهامشيته حتى أضحي  
يؤثر التهميش ويسكن إليه ففيه الأمان.. لم يتنبه أحد ربما طوال حياته  
إلى أن يدمجه في الأسرة. الكل انشغل بأحواله وأولاده وأطماعه  
ومستقبله. من كان مثل أبي يسهل على الآخرين نسيانهم. الزمان نفسه  
ينساهم، والمكان أيضا. ليس لهم بصمات ولا مواقف ولا خدمات  
ولا أدوار مميزة. وهم أنفسهم يشجعون على هذا النسيان. ويبالغ  
الآخرون في نسيانهم بأن يتأمروا عليهم بالحفر لهم ودفنهم أحياء في  
آبار أو سراديب حتى لا يفكرون يوما في انتزاع أي حق من حقوقهم  
من هؤلاء وعلى رأسهم أبي فكيف أتمكن من دمجهم في الحياة وإعلاء  
شأنه وكسب الالتفات حولهم. كان يمكن أن يشارك في نقابة موظفين  
أو عمال ويتولى الدفاع عنهم ضد الرقابة، لكنه حيي ومتواضع وغير  
مستعد للمواجهة. ربما لم يخلق لذلك. من الغريب أنه مختلف تماما  
عن أخوته، فمحمد كامل الأكبر يخشاه الجميع وفي «المنصورة» حي  
الموبيليا ذائع الصيت له اعتبار كبير، وقد كان كذلك عمي نبيل، وحتى  
عمتي وداد أصغر أخوتها تزوجت من صاحب سوبر ماركت وهي التي  
تديره وافتتح فرعًا آخر في السكاكيني هو من يديره واقترحت عليه أن  
يفتح فرعًا آخر في مصر القديمة كي يديره ابنهما زياد الذي أو شك  
على التخرج من كلية الحاسب الآلي. لكن أبي مشغول بالفراع  
يشعر الجميع بذهوله وهو على المائدة أو في عمله وفي الطريق

لأنه يفكر في مصير العالم، ويسخر منه الذي يعرفه جيداً ويعرف أنه لا يفكر في أي شيء، بل وحسب كلامه لأمي في لحظة صفا:

- أشيائي ذاتها تسخر مني وتهزأ، فأنت تعلمين أنني أخلع الساعة وأضعها على الكومودينو وعندما أنتهي من ملابسي وقبل أن أغادر أمد يدي إلى الساعة فلا أجدها، وأبحث عنها إلى أن أعثر عليها في جيب جاكيت آخر لم أكن أرتديه. وحافضة نقودي المفروض أنني أتركها في الجاكيت وعندما أتأهب في المساء للخروج أحاول الاطمئنان أنها في مكانها فلا أجدها، وبعد البحث أجدها على تسريحتك أو في درج الكومودينو. الأعباب أنني في إحدى المرات لبست نفس الجاكيت ونزلت دون أن أطمئن عليها وفي آخر الليل وقبل أن أعود بحثت عنها كي أحاسب على الطلبات فلم أجدها، وعندما عدت بحثت عنها فلم أجدها. تركتها للصباح حيث وجدتتها في جيب خلفي لينظفون لم يسه من فترة. ونفس الشيء عمله معي الأحذية والجوارب والقلم الجفاف الذي لا أمشي بدونه.

- الآباء ليسوا كيانا هشاً حتى لو كانوا عقبة. الآباء جدار نستند إليه ولا أغنى عنه حتى لو كنا بغير حاجة إليهم. إنهم جدار معنوي مهيب ويمكن الاعتماد عليه ولو كانوا مجرد مجموعة من العظام في قفة. الآباء يصلحون لأي شيء ولو كانوا فقط أكتافاً للبكاء عليها مثل حائط البراق.. لا تعجبني تصرفات أبي لكنني لا أتخيل الحياة بدونه. لماذا لم يحضر حتى الآن؟!!

في العادة يأتي في الظهيرة ليتناول غداءه أيًا كان ثم يتمدد في قيلولة قد تتجاوز الساعة ويدخن السيجارة مع الشاي في بلكرولة صامتة. وضعت فيها مؤخرًا بعض الزهور التي لا تلفت انتباهه حتى لو غزاها الذبول. يذهب بعد القيلولة في كثير من الأحيان إلى صديقه رمسيس وهو ليس صديقًا بالمعنى المفهوم ولكنه نتاج العادة. ارتاح كل منهما للآخر بحكم الطيبة والبعد عن المشاغبات وإيثار السلام والعزلة بعيدًا عن الأشقياء من الطلبة. ظل زميلين طوال فترة الدراسة واعتادا أن يلتقيا وانبهر مرسي بموهبة رمسيس في صنع القطع الخشبية الدقيقة. وبعد أن كبرا وتركا الدراسة تأكدت مواهب رمسيس وغرامه بفن الحفر على الخشب وتميز بمرور الأيام بمهارة نادرة في تشكيل التحف الخشبية البديعة وكانت صديقته الأولى والأهم يقضي معها ليله ونهاره. يسهل على أبي زيارته في أي وقت ليحده في صومعته عاكفًا بدأب على أدواته وأخشابه محاولًا صنع ملامح أشكاله الدقيقة التي باع منها كما يقول نحو ألف قطعة بعضها انتقل إلى عشرات البلاد في العالم وفي بيتنا وحده ثلاث قطع منها. برز رائع يضم صورة لأمي وتمثال السقا على يمين الداخل من باب الشقة وهيكل لنجفة صغيرة تتدلى في الصالة. كنت قد طلبت من أبي أن يبث فيه الحماس كي يفتح ورشة أو يتفق مع جهة ما حكومية أو أهلية لإنشاء مدرسة للصغار كي يتعلموا فيها هذا الفن وتنتشر هذه الهواية ولا تنتهي بموته. لا أدري إذا كان استجاب أم لا، ولا أدري إذا كان

أبي قد أبلغه أم لا . ولا أدري إذا كان رمسيس نفسه مستعدًا لهذا أم لا ،  
 نفسى أفكر أن أزوره وحدي وأدعوه لهذا ، ويمكن أن تكون البداية  
 إرسال صحفي لإجراء حوار معه ونشر صور لتحفه . ليس جميلًا أن  
 تكون قادرًا على امتلاك زهرة فقط ولكن الأجمال أن تزرع الزهور ،  
 وليس جميلًا أن تكون متعلمًا فقط ولكن أن تكون قادرًا على تعليم  
 الآخرين حرموا منه .. إنه مصطفى كامل الذي أحبه وأقدر دوره الوطني  
 حين قال : ما استحق أن يولد من عاش لنفسه فقط . تحزنني وحدة  
 رمسيس ومعاناته العيش بلا أنيس . أذكر جيدًا زوجته السيدة «وديدة»  
 وكنت أتخيل من فرط دقة ملامحها أنه الذي صنعها كما يصنع قطعه  
 الخشبية . غير مستبعد أن تكون من الخشب دبت فيها الحياة ، لا بد أن  
 كان صحيحًا إلى حد ما فقد أغراها أخوتها في نيو جيرسي بأمريكا  
 أن تزورهم وسافرت بالفعل منذ عشر سنوات . طلبت إليه أن يلحق  
 بها فرفض . مرت سنة ثم عادت تطلب إليه القدوم إلى أمريكا ففرص  
 العمل كثيرة وأرباحه من موهبته ستكون كبيرة لكنه لم يهتم حتى بالرد ،  
 وتوقفت المراسلات والاتصالات إلى أن نسيت تمامًا ونسيها وربما  
 أغدته الهواية من الانشغال بغيابها .

انتظرت أبي حتى الثانية عشرة إلى أن وقعت أمام التليفزيون  
 وأطفأته ومضيت إلى السرير عازمة على أن أنام يومين على الأقل ثم  
 أعلق بحثًا عن ناجي .

\*\*\*

أصر ناجي على حملي من باب المصعد إلى الشقة ثم إلى حملي النوم وأنا أضحك تدغدغني البهجة وأكاد أطيرو. لم يمنعني فرحي من تأمل الحالة التي بدت لي كعنوان الكتاب. العتبة الأولى من عتبة العمر والحياة المشتركة. المقدمة الافتتاحية للسيمفونية. يجب أن تكون هذه هي البداية لكل زواج خاصة إذا كان العريس لديه القدرة على رفع عروسه عن الأرض.. يعتقد البعض أن هذا الأداء الجمالي المثير نفسيًا يمهد لاستيلاء الزوجة على الزوج.. ليس صحيحًا على الإطلاق.. لو كان الزوج ضعيف الشخصية لابتلعت زوجته دون أن يحملها، لكن الحب والتوازن بين الشخصيتين لن يسمح بالجور. ظللت معلقة الساعدين والكفين برقبتة لا أتمنى أن ينتهي الطريق ويأتي موعد الهبوط. أود أن أظل في حالة طيران وأن يكون طائري مستعدًا لحملي ومستعدًا لتوفير الحياة الهائلة لنا طول العمر. نزلت على مدرج السرير البمبي الذي استقبلني بحنان. تلمست كفي سطوعه الناعم ورقته وطراوته واستمعت روعي لوعوده وتأهب جسدي لمعانقته والتقلب عليه. وضعت رأسي على الوسادة اللدنة. تمددت لأجرب حلاوة الاسترخاء في حديقة النوم التي عني بها ناجي عناية خاصة، اخترت معه كل قطعة فيها باهتمام خاص من الستائر وهي طبقتان ثقيلة تركواز وخفيفة كريم إلى لون الجدران البيج مرورا بالأثاث البني المعشق بالصدف والمرايا الصغيرة والكبيرة والمفارش الوردية الثقيلة والملاءات الساتان وقمصان نومي وبيجاماته وشبشبتي وشبشبه ينامان معًا متجاورين يتبادلان أطراف الحديث الهامس الذي

لا يسمعه إلا العشاق. يود السجاد الذي يتمددان عليه أن يطير بهما إلى بلاد بعيدة ليس فيها غير العصافير والشجر والعمود الفواحة ونهر صغير وزورق لحبيبين هما ريم وناجي، ثم يكتشف الحبيبان أن الجنة الصغيرة التي اختارها بساط الحب لهما وبقيها فيها في خلود الهناء معها يومان فقط.. ثم يتوالى وصول الأحبة ويزداد فرح العشاق بالمشهد الإنساني الفريد. قلت لناجي عندما لاحظت في عينيه لمحة من الأثر عاج:

- جنة من غير ناس ما تنداس.

عندنا لنستكمل سعادتنا في غرفتنا. ها هي أدوات ماكياجتي المرصوفة على تسريحتي إلى لوحة الأنثى العارية ولوحة للأطفال العرايا الذين يوشكون على القفز من اللوحة إلى أحضانني. يا لروعة الأطفال. كان الله في عون من حرموا منهم. كف الطفل وحدها كفيلة بالسعادة عائلة، أما ضحكته الفضية البريئة فهي قادرة على محو كل ظلام العالم.

أخيرًا يا رب أجد مستقرًا بديعًا يحيطني ويرعاني ويسعدني ويسيني كل العذابات. لا يأس بعد اليوم ولا ضياع ولا تعاسة. انتهت فترات انتظار ما لا يجيء والسير بين المقابر والجثث والأحلام الموءودة وصناديق القمامة والبيروقراطية والعقد والفساد وغياب الضمير. ها أنا ذا في دنياي التي صنعها ناجي وأنا معه بالطبع نبدأ

حياة مختلفة ومستقلة، وعلينا أن نحميها من القبح والظلام والدمع  
والحرمان والملل والتفكك.

بدأ العازف برشاقة يعزف اللحن الجميل ويخلع عني وعنه الأرواح  
الاستعراضية البراقة. يتمشى بأنامله على جسد البيانو المشوق إلى  
الأنغام واكتشاف العالم. يلمس المفاتيح برهافة.. انضمت إلى أصابعه  
شفتاه ونبض قلبه وجسده المشبوب والساخن إلى درجة الارتفاع  
كلمات هامسة لها فعل السحر تتجاوز أحيانا حلاوة القبلات. هل هذا  
هو الزواج؟ نحن لا زلنا نحاول لمس مياه البحر السابحة فوق رمال  
الشاطئ. مياه تتقدم بنعومة ثم تتسلل عائدة لتتقدم بقوة. الدفء يسري  
تدريجياً في بدني حتى توشك النار أن تندلع فيه. أنفاسي تتلاطم  
والقبلات تدغدغ لحمي وأعصابي كأنها تفك أزرار ثوبي الوحيد  
العري الجميل المختبئ في العري الجميل. شمس الكلمات غريبتنا  
وما عادت الأنيس في درب غير معبد. بعد لحظات مجنونة وغامضة  
أصبحت كل الدروب معبدة. كل عضو يأخذ طريقه ويطبغ بصمائه  
على مثيله. كل عرق ينبض وكل إحساس يهفو وكل شوق يتعالى لهبه  
وكل غرام يتعق وكل نزوة تدمدم وتتغلغل. كل الأعضاء والأعصاب  
تتحد وتتداخل وتغيب في بعضها حتى تفقد وجودها المادي ليشتغل  
وجودها الحسي. ناجي يا حبيبي ومنيتي وحببي الوحيد والأبدى  
ودنياي وأهلي وميلادي وسمائي وأرضي وغذائي وشرابي وملهمي



واللهي ومعلمي وسيدي وقلب قلبي وروح روحي. أيها العازف  
لا تتوقف عن إبداع الحانك. يا صانع الفطائر اهرسني واعجني ثم  
أعد صياغتي وأدخلني في موقدك. أنضجني على نار محبتك العارمة  
وهالي في صورة أخرى ترضيك.

صرخت بأقصى ما أستطيع فقد كان أبي فوقني وبدخلي.  
صرخت.. صرخت وأنا أرى العالم بأجمعه ينهار.. ينهار.

\*\*\*

## القسم الثاني

# 1

كنا واحداً وعشرين شاباً حشرونا بعضنا فوق بعض في عربة نصف نقل كحلية اللون من عربات الشرطة ومعنا ثلاثة جنود برشاشات، توقفت السيارة أمام مبنى عتيق في ميدان لاطوغلي. أسرعنا بالنزول بعد أن كدنا مع الحر نتحول إلى عجينة واحدة من اللحم والعرق. صعدنا سلالم المبنى دفعاً بقبضات أيدي الجنود.

- تحرك يا بهيم منك له.

قبضات متنوعة في الثقل وفي المواضع التي تصيبها وكلها في ظهورنا، هاجمتنا ونحن قرب نهاية الدور الثاني صرخات وتأوهات عالية وطويلة تخرج من أعماق الأعماق تدل على آلام مبرحة تحاول تبليغ شكواها إلى السماوات. جسمي ارتعد وأوشك على التشنج، لا بد أن المعتقلين يتلقون ضربات قاصمة بأدوات ثقيلة. تقطيع أجسادهم بسكاكين لا يسبب هذه الأصوات.. سيشوي الله أجساد المجرمين يوم جهنم.

تواصلت الصرخات الكثيرة القادمة من وراء جدران عديدة  
ومفرقة. ثقبت قلوبنا وزلزلت أرواحنا. ما أن وصلنا إلى الدور  
الرابع في المقر الرئيسي لمباحث أمن الدولة حتى تمنينا أن نسقط  
على الأرض طلبًا للراحة بعد أن تكسرت أعمدتنا الفقرية وتحطمت  
أفئتنا. طلب منا الضابط الوقوف للعد والتسجيل. أدخلونا جميعًا  
في حجرة كابية متهرثة الجدران. الصراخ لا يتوقف. وضع معظمنا  
الأيدي على الأذان. البعض حاول أن يعلق فلم يجد الكلمات ولم  
يجد لسانه. الكل متوتر والأيدي تخبط بعضها. النظرات زائغة. الغرفة  
فارغة تمامًا إلا من روائح مقززة لا تحتمل. ربما كانت هنا دلاء كثيرة  
مملئة ببول طال تخزينه. لا توجد مقاعد ولا أسرة. بقينا واقفين.

لا أدري ماذا جرى لي. أحسست كأني مصاب بالجرب. جلدي  
ياكلني فأهرش في قفائي ورأسي. جلدي يأكلني في كتفي وصدري  
فأهرش حيث أحس بالقرص الخفيف المتواصل والمتحرك بسرعة  
مثل فأر يحاول الهرب. بدأت الصرخات تخفت تدريجيًا حتى  
توقفت. ياه.. توقف الهرش واختفى الجرب. عادت الأعصاب إلى  
مواضعها إلى حد ما وظل الترقب سيد الموقف.

لحظات قليلة ثم دخل علينا ثلاثة جنود ضخام الجثث. لم أكن  
أفهم أن الإنسان وصل إلى هذا الحجم، أكبرهم رتبة يحمل رشاشًا  
والاثنان يحملان أكياسًا سوداء.

قال الأعلى رتبة والأضخم:

- أهلاً بالشباب.

لم نرد ربما من هول المفاجأة. فاستطرد:

- نورتم لاظو غلي.

أخرج كل جندي من كيسه بعض الأقمشة السوداء ومضى يلفها حول العيون. عصابة من قماش خشن جداً وله رائحة بشعة لعلها بول أيضاً. ربطها الجندي على عينيّ بشدة حتى شعرت بالاختناق والعمى. لما انتهت مهمة تعمية العيون أمروا أن نتوزع على أربعة صفوف. كل صف به خمسة، والأخير به ستة. سرنا مغمضي العيون وراء الجنود. عند باب الحجرة الأولى دخل الصف الأول، وعند الثانية دخل الصف الثاني وهكذا. وسرعان ما بدأ حفل الاستقبال.

بعد أن دخلت الغرفة الثانية وأغلق الباب إغلاقاً محكماً نزلت على كل أعضاء جسمي الضربات. أظن أن عشرة على الأقل كانوا يضربونني. تيقنت أنهم مجموعة من الأخوة الجزارين انطلقوا ينتقمون مني لأنني من وجهة نظرهم قتلت أباهم وأمهم، وربما زوجاتهم وأولادهم أيضاً، وسرقت كل ما يملكون.

زعت اثنان من رفقائي الأربعة وسمعت بكاء ثالث هو أصغرنا جميعاً. كدت أبكي من أجله.

صرخت فيهم:

- نحن مصريون مثلكم يا أولاد الكلب.

قال أحدهم وهو يوجه ضربة قوية إلى رأسي:

- إذن لا بد من ضربك حتى تنسى يا ابن الشرموطة.

ظلموا يكيلون اللكمات ويوجهون الضربات ويصفعون بالأكف.. لم أستطع الاحتمال. حاولت توجيه أية ضربة لكنني لم أكن أرى أحدًا وكانت محاولتي تؤدي دائما لمزيد من الضرب.. فاض بي الألم وتنبهت أنني كنت أتأوه بشدة ولم يكن الضرب يتيح لي فرصة أن أسمع صوت ألمي الفادح. مضى السفلة يقذفون الأقدام المسلحة بالأحذية الثقيلة في مؤخرتي وجنبي وصدري ووجهي ورأسي حتى ارتطمت عدة مرات بالجدران الصلدة. الصراخ يتوالى والآهات تمزق القلوب. أحسست بالدم يسيل من وجهي ثم سقطت على الأرض فتابعوا قذفي بالأحذية وعجن بطني وصدري ثم رفعي عن الأرض ومعاودة اللكم والصفع والتركيز على الصدر والبطن والظهر والمؤخرة إلى أن تهاويت مغشيًا عليّ. استيقظت على أصوات الألم وصراخ الرجال من شدة ما يتلقونه من ضرب وتكسير عظام. مرت سنوات من الضرب والسحق وأظن أن الدفعة الأولى من الضاربين استبدلوا بدفعة ثانية وربما ثالثة.

بقينا ثلاثة أيام نتلقى فطورنا في الصباح بالصورة ذاتها التي تم استقبالنا بها ثم يوزع على كل فرد بعد أن يفيق من الغيبوبة - إذا المواق - رغيفًا متحجرًا ومتربًا كان فيما يبدو منشورًا على سطح المبنى عافته العصافير والفئران وقطعة من جبن نصف متحجر، وفي

المساء نتلقى طريحة أقل من الضرب مع كثير من البصق و الشتائم الموجهة للوالدين والأخوات مع رغيف مقدد وطبق صدئ به عدس مملوء بالحصى. كان علينا أن نشرب من دلو به ماء تطفو على سطحه شوائب كثيرة لم أحاول معرفة طبيعتها لكن بعضها كان يتحرك، وفي يد الدلو كوز مربوط بحبل، ودلو آخر للتبول لم يتم التخلص منه طوال وجودنا في لاظوغلي. قاومت الظمأ طويلاً إلى أن اضطررت للشرب من الدلو. لم أجد ما أنتشل به الشوائب. كان قد نفذ منذ اليوم الأول كيس المناديل الورقية الصغير في تجفيف بعض نقاط الدم التي سالت من أنفي وفمي وقدمي.

تناقشت مع زملائي في الغرفة في مشكلة الماء. وافقوا على اقتراحي بأن نمر بالكوز على سطح الماء بالعرض ويبطء لنجم أكبر قدر من الشوائب العالقة ونشره على الجدران، فتخف إلى حد ما. جربنا مرة ثم اقترح جميل أن نغسل به وجوهنا بدلاً من رميه. وافق الجميع بعد أن اقترح ثالث أن يكون ذلك بمس الماء والمسح على الوجوه. المهم شربنا الماء مع ما تبقى من الشوائب.

في اليوم الرابع بدأ معنا التحقيق كل فرد على حدة.

كانت لجنة التحقيق مكونة من نقيب وجندي للضرب وجندي للتسجيل. دهشت لأنهم خصصوا لي كرسيًا ولم أنل هذا الشرف منذ وصلت قبل عدة أيام مرت كسنيين، كان الكرسي مطلوبًا بالطبع حتى أكون أمام عيني المحقق وهو يوجه لي الأسئلة ويستطيع تأمل

فلا محي إذا كذبت أو سخرت أو أبدت أية إشارة، ولكي يتمكن  
جداي الضرب من ممارسة مهامه بعناية وإتقان.

سألني النقيب عن اسمي، قلت بمنتهى الأدب:

- ناجي الورداني.

نهدت متمسكًا بالصبر وإن كشفت نظراته المتوعدة عن أنه يكبح  
غضبها هائلًا. قلت في سري: لماذا الغضب يا باشا ونحن لم نبدأ  
بعد؟ قال:

- اسمك رباعي يا رمة يا بن الرمة.

نهدت كبحًا للغضب. المفروض أن أقوم وأمسح بكرامة أهله  
الأرض. لا أحد يسب أمي. إلا أمي. للأسف سبوا كثيرًا. لا أعرف  
حتى الآن السر في العداة الشديد الذي يكنه معظم رجال الشرطة  
خاصة الضباط للأم. هل السب فقط هو محاولتهم إهانة الرجال؟ لم  
أجد الفرصة لا للغضب ولا لتفسير عقد الضباط المدربين على هذه  
السفالة. قلت:

- ناجي أحمد رمضان الورداني.

سيادة النقيب المنتسب لجهاز قدر مثله أسمعني قائمة طويلة من  
الانتهامات التي لا يقل العقاب عليها عن الإعدام.. اعتداء على ضابط  
الشرطة أثناء تأدية عمله. سب الضابط بألفاظ فاحشة. البصق عليه وعلى  
الجنود. اختطاف سلاح ميري. توزيع المنشورات المعادية للنظام.

المشاركة في تكدير الأمن العام.. قيادة المظاهرات دون الحصول على موافقة الجهات المعنية. إلقاء زجاجات المولوتوف على قوات حفظ النظام والتسبب في إصابات عديدة بين الجنود. إطلاق هتافات تزدري النظام لاستعداد الجماهير ضده. رفع لافتات تتضمن السبب للقيادة الأعلى، ولافتات أخرى تتضمن رسوماً وكلمات مسيئة للقيادة الأعلى وللكبار المسؤولين. تحطيم بوابات وأسوار ونوافذ عدد من الممتلكات العامة. إشعال النار في ثلاث سيارات نقل جنود خاصة بالأمن المركزي. تحطيم وتدمير عدد من السيارات الخاصة. جر العابرين في الشوارع لإجبارهم على التظاهر وترويع الأمنيين. تعطيل حركة المرور. الانتماء لحركات وجماعات غير قانونية. التحرش ببعض الفتيات العابرات بحجة دفعهن للمشاركة.

سألني النقيب الوسيم:

- ما قولك فيما هو منسوب إليك؟

حاولت أن أجيب مباشرة بالنفي أو بغيره فلم أستطع. لم يكن يدور في ذهني غير أن هذه التهم لا يمكن أن يقدم عليها شخص بمفرده ولا العشرات. ولم أستطع أن أمنع نفسي ولتكن العاقبة ما تكون من قولي:

- أظنك نسيت جرائم ياباشا؟

قبل أن أكمل كانت صاعقة قد نزلت على سلسلة ظهري فقصمته. وقعت ووقع فوقني الكرسي الذي كنت أجلس عليه. حاولت أن أقوم



بسرعة قدر الإمكان حتى لا يسب الضابط القذر أمي، نهضت بصعوبة  
لقد أحسست أن ظهري انقسم نصفين وعمودي الفقري تفكك بحيث  
الفصل عنه الحوض ونصفي السفلي كله. أعاد النقيب سؤاله، قلت له  
بأكثر لهجة مهذبة في غير موضعها:

- أرجو سعادتك أن تنسى مؤقتًا أنك تمثل جهاز أمن مهمًا، وتقييم  
الالتهامات الموجهة لشاب يريد أن يبني مستقبله وهو خريج جامعة  
وتمثل مسرحي و..

- أولًا لا يجب أن أنسى عملي وجهازي يا حثالة المجتمع، ثانيًا  
أنا أنفذ الأوامر ولست أنا من حدد الاتهامات، ثالثًا التمثيل يكون في  
بكم وليس هنا، رابعًا عليك يا بن الجزمة الإجابة فقط على الأسئلة.  
التفت فجأة للجندي الثاني وقال له بعبارة حادة:

- أنت تتفرج علينا، لماذا لا تسجل؟

والتفت إليّ وقال:

- خلصنا في يومك الأسود وإلا أجلت التحقيق معك أسبوعًا  
لشرطنا هنا في الجهاز ونزيد لك الوجبات.

- تفضل سعادتك أنا تحت أمرك.

- ما رأيك في التهم المنسوبة إليك؟

- يا فندم أنا فعلاً اشتركت في مظاهرة احتجاجًا على الانتخابات  
المزورة.

قاطعني بحدة:

- وأنت مال أهلك؟ .. أنت ممثّل .. مثل يا سيدي براحتك . هناك  
من يتحملون كلامكم الفارغ . ما ذنب البلد؟

- والانتخابات .

- لو كل واحد انصرف لعمله وأخلص له سيكون كل شيء على ما يرام .

- يا فندم .

- مرة أخيرة وإلا علقتك .. ما رأيك فيما هو منسوب إليك؟

- لا أعترف بأية واقعة منها غير أنني حاولت بالتظاهر التعبير عن رأيي بشكل سلمي تماما .

- اعترف الآن بشكل سلمي تماما وإلا ستعترف بشكل غير سلمي  
بالمرة .

اختر مصيرك بالصورة التي ترضاها لنفسك ومستقبلك .

- كيف أعترف سعادتك بأمر لا علاقة لي بها وأقسم بالله  
العظيم .

- لسنا في محكمة وحياتكم .. إذن لن تعترف .

أحنيت رأسي ولم أجد ما أقوله وإن كنت أفكر فيما يمكن أن  
أعرض له .

لكنني لم أسمح لنفسي بالضعف والاستسلام. أعرف يقينًا أنني  
سوف ألقى ضربًا مبرحًا وتتحطم عظامي ، لكنني لن أخون نفسي  
ولا الناس المعذبين والمقهورين.. لقد اتفقت مع الزملاء على الثبات.  
الثبات.

تعرضت ورفاقي للضرب الشديد وقد زادت الوجبات بالفعل كما  
صرح الضابط، وتأكدت لنا رغبتهم في الانتقام ليس منا فقط ولكن  
من كل من تخطر بباله ولو لحظة فكرة المقاومة. إنهم يرفضون مبدأ  
هدم الإذعان. لا يتخيلون أن أحدًا من أبناء الشعب المصري يمكن  
أن يقول للسلطات لا، حتى لو كانت بسيطة وقليلة الشأن. ومن هنا  
يشعرون بالخطر المحقق بهم. ولا يتصورون غير حتمية أن يسحق  
الكل من لا يقر بارتكابه جريمة المقاومة لأنه ببساطة يرفض فلسفة  
الظلام العبقريّة في خلق حالة توافقية بين كل المتناقضات وقيم بينها  
السياسي نادر. لذلك لا بد أن يعاقب بشراسة من يفكر في هدم البناء.  
ليس مهمًا لو مات الآلاف من أجل الحفاظ على النظام والسلطة  
وهيبة الدولة التي توفر الاستقرار الوهمي للملايين، وقد كان يمكن أن  
يتم لها الانقسامات والحروب والأنظمة الشيوعية العفنة أو الإسلامية  
المعقدة. إنهم يحمون البلاد ضد الأعداء بكافة أشكالهم ويثقون أن  
الأعداء لا ينقضون علينا من الخارج فقد تم تحييدهم وترتيب رشوتهم  
وإبعادهم، أما الأعداء الحقيقيون المتجددون فهم كل الخارجين على  
النظام من أبناء البلد.

في أحد الصباحات التعسة دخل جندي الضرب الذي حضر التحقيق وقال:

- لن تتناولوا فطوركم اليوم لأنكم ستنقلون إلى السجن.

سأل رمزي نصيف بحذر:

- قبل أن نعرف نتيجة التحقيق؟

- نتيجة التحقيق أرسلناها للسجون التي ستنقلون إليها عصر اليوم.

مال الجندي وفك الكوز من دلو ماء الشرب واغترف من دلو البول وسكبه في الدلو الأول مرتين وخرج. حركة بسيطة جدًا لم يصاحبها سب ولا ضرب أداها الجندي بهدوء مع ابتسامة خفيفة وكأنه يتمنى لنا ليلة سعيدة. حركة تدل على ضمير يقظ وإحساس، فالجندي لاحظ أن دلو الشرب ناقص ولا يجب تركنا ظمأى فصب فيه كوزين من الدلو الثاني بشع الرائحة.

توقعنا والسيارة المغلقة بإحكام تمضي في طريق المعادي أن يكون مستقرها اللعين في سجن طرة، لكننا تجاوزنا سجن طرة ومضت السيارة بسرعة أكبر لعدة كيلومترات حتى بلغت مبنى ضخماً فتوقفت أمامه وأمرونا بالنزول. كنا سبعة. سور عال يصل ارتفاعه إلى نحو ثمانية أمتار. ويكاد يكون طوله بلا نهاية. تبدو جدرانها خشنة جدًا. سأل رمزي السائق عن المكان، قال:

- طول العمر لك. هذا سجن العقرب.

اصفر وجه رمزي ومؤكد اصفر وجهي لأنني كنت قد سمعت  
من صديق صحفي. استقبلتنا بوابة ضخمة مصفحة من الخارج  
والداخل لا يخترقها الرصاص. وزعونا على الزنازين. عنابر ضخمة  
ومهيبة. جدرانها سميكة جدًا. مبان لا بد أنها ابتلعت كميات هائلة من  
الأسمنت والحديد قادرة على أن تعيش آلاف السنين شاهدة على  
وحشية العهد.

أدخلوني زنزانة فيها تسعة معتقلين كانوا جميعًا يتأوهون فقد تلقوا  
وجبة الغداء منذ قليل. قلت:

- السلام عليكم.

لم يرد أحد. اثنان فقط حركا رأسيهما في وهن شديد. أدركت  
الحالة المأساوية التي يعانيناها. سقط قلبي في قدمي. جلست في  
موضعي.

كنت ظمآنًا جدًا ومجهدًا جدًا لم تلمس شفّتي قطرة ماء منذ  
الأمس. في الصباح ناداني جندي فخرجت من الزنزانة. قال:

- اخلع كل ملابسك إلا قطعة واحدة. تبعته إلى الخارج. وجدت  
لثلاثة جنود معهم عصي تلمع في أشعة الشمس. قالوا:

- ستوجه الآن للتحقيق.

قلت بقدر قليل من الدهشة:

- تم التحقيق معي في لاطوغلي.

قال أحدهم:

- لاطوغلي مخصص للأطفال. هيا بسرعة نم على بطنك  
ستزحف إلى غرفة التحقيق.

نظرت إلى الأرض كان هناك ممر بعرض مترين مفروش بالحصي مسنن الزوايا. انحنيت ببطء فتلقيت أول ضربة من العقرب. أدركت بصورة ما أن لاطوغلي فعلاً للأطفال. سقطت على الحصي. هممت أن أرفع جسمي وأعتمد على يديّ وقدمي فلم أستطع، ولما تنبهوا لما أنوي عمله كسرت ظهري ضربة حذاء ضخمة أو ربما تم الضرب بالفردين معا. زحفت ببطء نحو باب. بدأت أقوي عزيمتي وأتعامل مع خناجر الحصى التي تنزقت من يدي وتثقبه. خمسة وثلاثون متراً حتى غرفة التحقيق. كنت أرحف كالتمساح الصغير المطعون. لكنني تعلمت كيف أتعامل جسدياً مع كل ألوان العقاب حتى الآن. عندما وصلت وأمروني بالوقوف أمكنني أن أرى بطني وصدري وفخذي وقد تحولت إلى غربال تتساقط من ثقوبه قطرات الدم. فتح الجندي باباً حديدياً مصفحاً. تلاه بعد مترين باب خشبي ربما كان من سمكه مصفحاً أيضاً. طلع عليّ هواء شديد البرودة حتى أنني ارتعدت وتداخلت لكنني كنت راضياً به وتمنيت أن يدوم قليلاً. لمحت ضابطاً يجلس على مكتبه الفخم. الحجرة مزينة بالأعلام وبراويز ذهبية بداخلها شهادات وعلى المكتب أقلام فخمة ودفاتر أنيقة وكسوة

عادية. دفعني الجنود فجأة وبمتهى القسوة نحو باب آخر. اجتزته  
 فإذا حجرة تفح لهيباً وبها أدوات ومقابض. دفعني الجندي وأمسك  
 بمصا تبرق لمس بها كتفي فانخلع قلبي وصرخت بشدة. مر بها على  
 صدري وبطني ورقبتي.

فقدت نصف وعيي ثم لكمني فأوقعني. دخل الضابط وقال  
 للمتمين:

- سنجري التحقيق في مكنتي ثم توقع عليه. عدم توقيعك يعني  
 موتك. لا وقت لدينا. واضح؟

لا أدري لماذا قلت:

- واضح.

خرج الضابط بعد إشارته للجندي أن يتبعه. جرنى الجندي إلى  
 غرفة الضابط المكيفة. قال الضابط على الفور:

- وقع.

سألت وأنا أو شك على فقد بقية الوعي:

- علام أوقع؟

ضرب الضابط المكتب بقبضة قوية زلزل صوتها الجدران وزعق:

- وقع:

تلقت حولي فسقطت الصاعقة على ظهري.

انحنيت ووقعت وشعرت بالانهيار. تهاوى جسدي لأفوق من  
الزنزانة.

فجأة همست:

- أين أنت يا ريم؟ .. أين شباب الحركة. أين شباب 6 إبريل؟ .. أنت  
على كل ظالم يا رب.

قال معتقل تجاوز الستين على الأقل:

- الحمد لله أنك بنفسك صححت النداء. لا تنادي البشر. توجه  
فقط إلى ربك..

سألته:

- منذ متى وأنت هنا؟

- منذ تسعة وعشرين عاما وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوما وخمسين  
ساعات. لم أكن هنا منذ البداية. جئت مع افتتاح هذا السجن عام  
1993. قضيت قبله اثنتى عشرة سنة بين مزرعة طرة وأبوزعبل والوادي  
الجديد في سجن بطن الحوت.

تنهدت ودهشت. توقفت حواسي لحظات. أشار لي على  
المعتقلين الآخرين. أقلهم قضى عشرين عامًا، وبعضهم أنجب ابنته  
ثم دخل السجن وعمرها عام والآن لديها أولاد وهو لا يزال هنا  
ولا يعرف عن أهله شيئًا ولا يعرفون.



سألته عن سجن العقرب. قال. هذا السجن بدأ إنشاؤه عام 1991  
 بعداً لاقتراح من حسن الألفي وزير الداخلية ومساعد حبيب العادلي  
 اللذين وافقا على مذكرة قدمتها بعثة من الضباط قضت شهوراً للتدريب  
 في أمريكا. استغرق بناؤه عامين. يتكون من أربعة عنابر تأخذ شكل  
 حرف H. كل عنبر يضم نحو خمسة وسبعين زنزانية مجموعها 300  
 زنزانية للسجناء وعشرين زنزانية مخصصة للتأديب. كل عنبر معزول  
 تماماً عن باقي العنابر ويغلق ببوابات مصفحة من الداخل والخارج  
 أي كأن السجن يتكون من أربعة سجون كل منها منفصل تماماً عن  
 الآخر، وهناك ستة مكاتب للتحقيقات مكيفة الهواء وملحق بكل منها  
 غرفة تحتوي على أدوات الصعق الكهربائي. وسجن العقرب مبني  
 على الطراز الأمريكي الذي لا يسمح بمرور الهواء، ويستحيل الهرب  
 منه ولو باستخدام الدبابات.

- أين أنتم يا شباب 6 إبريل؟ وأين أنت يا ريم.

دنا مني سراج الدين.. المعتقل منذ سنوات.. تدهشني أحواله..  
 مهتم دائماً.. يتصرف بعفوية واطمئنان كأنه في بيته. سألته عن السر..  
 قال:

- الأرض كلها مكان واحد ومتشابه. والدنيا ممر.. كومة من قش  
 إن أجلاً أو عاجلاً ستزول.. الدائم الوحيد والثابت هو الخالق.. مالك  
 الملك ذو الجلال والإكرام.

- ألا تغضبك الأوضاع المتناقضة والظروف المجنونة التي يحشرنا فيها المستبدون؟

تنهد وقال وهو ينظر عبر النافذة.. المربع الصغير من الضوء تعطل منه صفحة صغيرة من السماء:

- فرصة للعبادة.. تقرب إلى الله بتحمل شرور عبیده. نحن لا نرى غير الله.

- كتب الله علينا أن نحيا وللدنيا حقوق.

- الدنيا ساعة زمن واحدة فتقرب إلى الله بمقاومة المنكر طلباً للجنة الخالدة.

أمسكت رأسي حائرًا ومندهشًا، وفجأة سألته دون أن أفكر طويلاً:

- هل أنا برأيك كافر؟

أجاب بسرعة غريبة وكأنه كان ينتظر السؤال:

- بل غافل وتابع:

- الدنيا بكل ما فيها من إغراءات وملاهي لعبة أعطاها أب لطفله سيملها بعد ساعة ويلقيها، أو ستختفي من أمامه. أمثالك يا ناجي يجب أن يتبهاوا.. الصلاة. الصلاة.

\*\*\*

## 2

حاولت مجدداً أن أصرخ فلم أستطع. كان مرتكزاً على ركبتيه ومرفقيه وكالكلب يلهث بل كعشرة من الكلاب. اجتهدت أن أدفعه بكل قوتي بعيداً عني فلم أقدر. الدهول يربكني ويكبح طاقتي. يبدها. فقدت التركيز تماماً. الحالة مرعبة إلى أقصى ما يتصور بشر. كان منشئاً بصورة غريبة كأنه على وشك الغرق في عرض البحر وما أن عثر على شخص حتى قبض عليه بكلايب وأظافر وكل ما يمتلكه من قوة وعضلات وأعصاب. حاولت ضربه بفخذي فلم أتمكن. عاودت دفعه بيدي فكانت قوته تتضاعف وتمسكه بي يزيد بشكل محموم. حاصرتني رائحة خمره التي كانت تنتشر وتتركز وتنفذ في أنفي وكل خلاياي كلما لهث. لم يتوقف لسانه عن قول:

- أنت السبب يا زينب.. أنت السبب يا زينب.

لم أفهم المراد ولا الحالة المجنونة وهو يقبض عليّ مثل قبضة عنكبوت على فراشة.. يلتصق بي كالخفاش. سببته وبصقت في



الختفى الحيوان القذر من الغرفة وبقيت وحدي أخمش وجهي  
والنسي وأنفي ورقبتي. أضرب صدري بقبضتي. لو هاجم العمارة  
والبرال وهدمها ما كان تأثيري لهذا الحد. لو ضللت الطريق في السفر  
والسفررت للنوم في العراء ما كانت حالتي كما هي الآن. مستقبلي  
تله تزلزل وتهدم وتعري. لو دهستني سيارة وبقيت مقطعة الجسد  
محلقة اليدين والساقين ما كان حالي كما هو الآن.

رفعت الأغطية فجأة وتجولت عيناى بما فيهما من هلع تفتش  
في المشهد المسموم والمرعب. كانت قطرات من دم على بنطلون  
الرجامة والكلوت والملاءة. زاد رعبى وإحساسى بالجريمة البشعة.  
أكد هذا كابوس شيطاني.

سمعت أن مثل ذلك حدث في حالات نادرة ومعظمها خارج  
بلادنا لكن أن يحدث لي من رجل المفترض أنه الراعي الوحيد لي.  
صروحت:

- خيانة. خيانة لا عقاب لها إلا جهنم. وجهنم يجب أن تبدأ  
الآن.

على عجل ارتديت ما يسترني لا أذكر ما هو. قفزت إلى المطبخ  
وسحبت سكينًا. مضيت إلى غرفة الرجل الغريب. لم أجده. سمعت  
صوته في الحمام وهو يقول:

- ماذا فعلت؟ أين كان عقلي؟ ابنتي الحبيبة. ابنتي. مستحيل. كره  
أصلح ما فسد؟.. أنا أستحق القتل. فعلاً أستحق القتل.

طرقت عليه الباب بشدة وأنا أصرخ.

- اخرج بسرعة وإلا سوف أفتح باب الشقة وأصرخ وأجمع كل  
السكان في العمارة وفي الشارع.. اخرج بسرعة من البيت كله.

بيطء فتح الباب ولمح السكين الكبيرة في يدي. صرخت وأنا  
أحرك السكين في عدة اتجاهات:

- اخرج بسرعة.

وضع قدميه في حذائه بدون جوارب وتحول إلى الباب وتوقف  
صرخت فيه:

- اخرج بسرعة. أقسم بالله العظيم لأفضحك في كل بيت وكل  
شارع وفي المقهى وفي المحافظة لو لم تغادر الآن فوراً.

في ضعف وهوان قال:

- سامحيني.

صرخت مجدداً وأعلى من كل مرة.

- لن أسامحك ما دمت حية، لن أسامحك حتى بعد أن يقبض  
عزرائيل روحك وأتمنى أن يكون هذا قريباً جداً. هيا.

أحني رأسه وخرج. أغلقت باب الشقة بالكالون والترباس وعدت  
إلى غرفتي. لم أقرب من السرير وإنما جلست منهارة ومذهولة على  
الرسى التسريحة. أنظر لحطامي وحطام الغرفة. تقدمت من السرير  
ورفعت الأغطية. تأملت المشهد الدامي. مشهد العار والفضيحة. كانت  
القطرة سكينًا تطعن قلبي بقسوة، وبصقنة تنطلق في وجهي وتلطخه  
ولا يبدو أنها يومًا ستزول. لم يستطع عقلي أن يستعيد ما جرى ولا أن  
يرتب الأحداث وأين كنت قبلها وكيف دخل غرفتي الرجل الغريب  
والزل بنطال البيجامة وسحب الكلوت إلى ما فوق قدمي؟!.. حاولت  
مرات استنفار ذاكرتي كي تعيد علي الظروف ولماذا كنت على هذا  
الحجم من الغياب وانعدام الإحساس حتى يدخل ويرفع و..و.. لم  
يستطع عقلي أن يساعدني بأي شكل ولا بأي درجة ولو بثقب في  
عجم رأس دبوس من نور كي أرى ما يتعين عمله وأنا أمضي عريانة  
في نفق الفضيحة المعتم. عقلي تجمد تمامًا وربما اختفى هاربًا بجلده  
من جبل العار.. مكتفيًا بالنظر إلى كل شيء وهو ينهار. لا أمل. لا حياة.  
لا عمل ولا مواجهة. المتاح فقط إذا كان ممكنًا الاختفاء والهروب.  
مزلة وانكسار. ضياع وتلاشي. لقد أصبحت يتيمة لا أم ولا أب. الأب  
مات وهو حي.. لا حل إلا الانتحار. نعم.. أخيرًا وصلني نبض عقلي  
وسرّب إليّ من تحت ركام السقوط حلًا مثاليًا. دبت فيه الحياة وألقى  
إليّ بطوق النجاة. كلمة واحدة يكمن فيها سر الخلاص.

.. الانتحار. ما دام لم يعد هناك أمل ولا عمل ولا حياة ولا قدر ولا مستقبل ولا طريق. مادامت الذات تم محوها وأنا لازلت أنتفس فما قيمة إنسان بلا ذات ولا هوية. الحشرة لها وجود أفضل منه الدودة والنحلة أنفع. الفراشة أشرف. الكلب مخلص وأمين. إنسان بلا ذات جيفة وقد فقدت ذاتي وفقد الرجل الغريب مبرر وجوده فليذهب كلانا إلى الجحيم.

امتنعت عن الطعام لمدة ثلاثة أيام. تجرعت القليل من الماء ونمت الكثير من الساعات كمن تشملها غيبوبة. لم أفتح الباب مطلقاً مهما سمعت من طرقات. لم أفتح التليفزيون. قلبت طويلاً ففكرت الانتحار. استعرضت كل الطرق ولم أستقر على واحدة. استبعدت الموت حرقاً، فقد تشتعل النار في الشقة وكل المبنى، فضلاً عن الألم الناتج عن هذه الميته البشعة بما فيها من صراخ وتشويه والركض بحثاً عن الخلاص مما يعانيه البدن، وقد كنت دائماً كلما ذكرت النار في الآخرة عقاباً للعاصين في الدنيا أصاب بالهلع من مجرد تخيلها وخاصة أن بعض الواعظين قالوا إنها ستكون أضعاف النار الدنيوية. فكرت في الموت خنقاً بالغاز، لكنها ميته قد تأخذ وقتاً طويلاً أو لا تفلح لأسباب تقنية أو بشرية أو إلهية.

سم الفئران ربما يفتك بمعدتي وأمعائي. إذن فالسقوط من فوق السطح إلى الشارع فكرة تعتبر إعلاناً عن فضيحة، والموت قتلاً بالمسدس غير متيسر. لا يبقى غير السم. سم مخصص لوضع



أهمية لإنسان تعس لدرجة رفض الحياة. يمكن الحصول عليه من الصيدلية، لكن الصيدلي قد لا يوافق. لم يبق غير الشنق وسوف أعجز عن تنفيذه.. إلى هذا الحد الموت صعب!! كنت إلى وقت قريب أفسر أن الموت مثل الضغط على زر الكهرباء.. لكنه فيما يبدو ليس سهلاً في كل الظروف والأوقات، وليس يسيراً على كل نفس.. أخيراً تذكرت الغرق في النيل. فمن مزايا النيل رغم أنه شريان الحياة فهو البوابة الذهبية للانتحار. إنه يوفر القتل السريع دون عودة. موت ناعم ورحيم بلا فضيحة بل ربما بلا ظهور للجثة.. لا فضيحة ولا ألم.. ها هو من جديد عقلي يعود للعمل. الانتحار غرقاً في النيل في منطقة عالية تمامًا من الحركة وبعيدة عن العابرين.

مرت الأيام وأنا أدهش لتراجع نسبي في فكرة الانتحار لتحل محلها بعودة فكرة العودة للبحث عن ناجي.. فكرت طويلاً لكنني لم أجد نفسي في حالة مزاجية مناسبة للخروج والحديث إلى الناس أو مجرد رؤيتهم ومشاهدة الحياة والتوبيسات والبيع والشراء والسيارات.. كما أنني غير مهياة للأسئلة وغير مستعدة تمامًا لأي حوار مهما كان من النقيت به من الأقارب والأصدقاء.

كلما استدعيت ما جرى وعشرات المرات في اليوم الواحد استدعيت أو استدعيني أشعر بالرعب والتقرز. العالم يتقلب. المياه تتسرب تحت العمارة. بلدوزر ضخمة يضرب بسكينه كل عمارات الشارع وعمارات الحي. السماء ترتدي السواد فجأة وتوشك على الانقراض. إنها

لا بد علامات الساعة. كل شيء على وشك الانهيار والسقوط. الياسه ستبتلعها المحيطات. لن أكون وحدي من ستلد كلبًا إذا حملت. ستلد النساء جميعهن كلابًا وسناجب وسلاحف وخفافيش، وقد ينبهن دفاتر وأقلامًا وآلات كاتبة وحواسيب وتليفونات. قلبي تبعثره الرياح عقلي تنقر فيه غربان جائعة وحمقاء.

بعد عدة أيام توالى الطرق على الباب. عزمت على ألا أفتح لمخلوق. رأيت أن أطل من العين السحرية لأرى من هذا المُلح السخيف. لكنني تراجعته في آخر لحظة خشية أن تكون سالي.. وحشتني جدًا ولا بد أن أفتح وأخذها بين أحضانني. تراجعته وتقدمت. الجرس والطرق متواصلين.. تقدمت وتشجعت ونظرت. حمدت الله.. كانت آني.. اسمها الأصلي أنيتا أحب صديقاتني. ما كان عليّ أن أحاول معرفة الطارق. ليس عندي ما أقوله لها. حالتي لا تسمح بأن أتعرف على أي جديد. لن يفيدني أي جديد ولن يغير أي شيء مما عزمت عليه. رحمت وجئت عدة مرات. اشتقت إليها. سأقول كنت مريضة ومرهقة. لن أفتح لها. لماذا لم تتصل؟.. كان هذا أفضل من قدومها وقطعها مشوارًا طويلًا. تسكن في مصر الجديدة وأنا في السيدة. تذكرت أنني فقدت الموبايل، والخط الأرضي بدون حرارة منذ عشرة أيام. لا أدري ما السبب. ألم يدفع الرجل الغريب الفاتورة؟ توالى الطرق لعدة دقائق. سمعتها تسأل أحدًا على السلم لم أتبين إجابته. جلست على كنبه الأنتريه في الصالة. لاحظت أن الشقة قدرة.

لمست لقراري عدم فتح الباب. انتهت علاقتي بالحياة والناس. بعد لحظات رأيت ورقة تتسلل من تحت عقب الباب.

«عزيزتي ريم. لم أرك منذ مدة. أتمنى أن تكوني بخير. الموبايل لا يبرد. ولا الأرضي. كلاهما مرفوع من الخدمة مؤقتًا أو مغلق. المخرج يريدك بشدة على الأكثر يوم السبت. اتصلي به في أقرب وقت. دمت في سعادة.. أنيتا إسكندر».

لم تقل أنني لماذا يريدني؟. ولماذا أسأل؟.. الأمر برمته لا يعنيني. ماذا سأفعل فيما عزمت عليه؟ شعرت فجأة بالجوع. دخلت المطبخ. وضعت السخان على النار. سأشرب شايًا. مع بعض البقسماط. لم أجد البقسماط. درت أبحث عنه. دخلت حجرة الرجل الغريب. فكرت أن أشعل فيها النار. أو أجمع كل ملابسه في كومة واحدة وأحرقها. أخيرًا استقر رأبي على ترك كل شيء كما هو على أن أغلق الغرفة وأخفي المفتاح.

رن جرس التليفون في الثانية عشرة مساءً بصورة مرعبة. انتفضت ودهشت. ظل يرن حتى توقف. لحظات وعاد يرن من جديد. لن أرفع السماعة حتى لو ظل يرن طول الليل. فجأة خطر على بالي ناجي. أسرع برفع السماعة. كان الرجل الغريب يطلب بعض الملابس حتى يذهب إلى العمل ويعتذر بشدة ويبيدي عميق ندمه وقال إنه لم يكر في الانتحار وإنه يرفض أن أقتله حتى لا يضر مستقبلتي. أغلقت السماعة. عاد التليفون يصرخ في الشقة في عز الليل.

- أرجوك.. أصبحت متعفنًا. أريد بعض الملابس وليس معي ما أشتري به. دفعت كل ما كان معي في سداد فاتورة التليفون، وأنت لا تريد أن تفتحي. لا أريد أن يحس بمشاكلنا أحد من السكان. كان يمكن أن أحضر وأظل أخبط وأدق وأنادي عليك من الخارج ومن الشارع. فكري في كل هذا.. أنت عاقلة. دعيني آخذ بعض الملابس في هدوء وأنصرف في هدوء. لقد استأجرت غرفة اليوم وسوف ترتاحين مني.

أغلقت السماعه. أخرجت مفتاح غرفته من مكمته ووضعته في فتحته بالباب. فتحت ترباس باب الشقة ودخلت حجرتي وأغلقتها من الداخل وأطفأت النور وبقيت متيقظة. بعد أقل من نصف ساعة سمعت حركة بالصالة. أرهفت سمعي. دخل غرفته وأغلقها عليه.

- أرجوك يا ريم. سامحيني. أقبل يديك ورجليك. أنا غلطان ونادم. طوال النهار والليل أطلب من الله أن يرحمني من عذاب النفس. أنا مجرم وأعمى البصيرة.

لم أهتم بما يقول. ولم أفتح إلى أن قال بصوت مشوب بالدمع:

- هات جنيهين. أريد أن أشرب شايًا في المقهى أو أي مكان

لم أفتح وفكرت أن أخرج وأبصق عليه وأطرده.

- إذن اسمحي لي أن أصنع كوبًا من الشاي.

لم أردد. بعد لحظات سمعت صوت إغلاق باب الشقة.. نهضت  
 وسحبت السكين من تحت الوسادة وفتحت باب غرفتي بمنتهى  
 الهدوء والحذر، فقد يكون قد أغلق الباب من الداخل. لا أثر له.  
 أغلقت ترباس باب الشقة.. عدت أشعر بالجوع. سألقت بيضتين  
 أكلتهما مع قطعة من خبز جاف ثم أويت إلى الفراش وسرعان ما  
 ابتلعني نوم عميق. صحوت منه على الرجل الغريب فوقى وبدخلي.  
 فهدت الوعي.

\*\*\*

### 3

عندما أفقت لم أجده في الشقة. أسرعت إلى باب الشقة. كان الترباس مخلوعًا ومعلقًا بمسمار واحد. لم أستطع أن أصرخ. اندلعت في جسمي النار. مضيت أضرب الأشياء في الصالة بيدي وقدمي. كسرت أكوابًا وحطمت أباجورة وأوقعت كرسيين ومزقت شلتتين من شلت الأنتريه ومزقت الحشو الإسفنجي. ضربت يدي في الحائط. لمحت وجهي في المرآة وشعري المنكوش وملامحي المجنونة وعيوني الحمراء.. اندفعت برأسي في المرآة. ضربت وجهي البشع حطمته. فبدا في المرآة المكسورة على حقيقته مشوها وممزقًا مرعًا ولا يستحق الحياة. كيف دخل هذا الشيطان؟.. هل يمكن أن يكون قد خلع الترباس قبل خروجه؟. لكنني تأكدت منه بنفسي.. الكلب الحقير. قال إنه طلب من الله أن يخلصه من العذاب. الكلب الحقير. نادم أشد الندم ويطلب الصفح. الكلب الحقير يفكر في الانتحار لأنه مجرم وأعمى البصيرة. الكلب الحقير. عدت أخبط الأشياء وأسقطها. من المطبخ اختطفت المكنسة ومضيت أحطم وأكسر إلى

ان نهاويت على الأرض وبدأت أبكي حظي التعس والمصيبة التي  
 ارهاى بي أقرب الناس.. من اعتدى عليّ ولوث شرفي للمرة الثانية..  
 الشخص الوحيد الذي كان يجب أن يدافع عنه بحياته وبكل ما يملك.  
 لكنه ارتكب جرمه مرتين أي مع التعمد والقصد والإصرار وتجاوز كل  
 العتبات والكذب والتحايل.. هل يمكن أن يكون في الدنيا مخلوق  
 بهذه الصورة؟.. أجبني يا رب. لا يجب أن أسأل أحدًا سواك فأنت من  
 علمت وسويت ..

فجأة نهضت.. قررت التراجع عن فكرة الانتحار. كانت فكرة  
 عبثاء وحمقاء. فكرة لا تصدر إلا عن العجزة والموتى. لا بد من قتل  
 المغتصب الذي كفر بكل القيم ولم يرع حرمة أو عهدًا ولم تتحرك في  
 أممائه ذرة من ضمير. المغتصب الذي ارتكب كل أنواع الخطايا في  
 جريمة واحدة. زنا وقتل وسرق وكذب وخدع واحتال وهتك وقتك  
 وشرب وهرب وخان الأمانة وتخلى عن الوصاية وتخلى عن الأبوية  
 وعن المسئولية.. كل مخدوع حتمًا يفكر في شراء مسدس.. لم أكن  
 أقدر أن المسدس مفيد للبشرية إلى هذه الدرجة.

لا يجب أن أصبر أو أحتمل أو أرضى بقضاء الله فمستحيل أن  
 يكون هذا قضاءه. لا للاستسلام ولا للخوف أو الاستكانة ولا للصمت  
 ولا للتفوق. لا بد من التمرد ومواجهة ما جرى بالعمل والنزول إلى  
 الحياة. لن أسمح لنفسى أن تتكوم كالخرق البالية ولا الانتظار بينما  
 ينهك عرضي وكل ما أملك دون أن يصدده شيء. هناك من يمتص

دمي وشبابي وحياتي ويمحو مستقبلي.. لا وألف لا.. قراري الأول الذي لا رجعة فيه. إذا لمس باب الشقة سأقتله ولتكن النتيجة ما تكون ومع ذلك لا بد من تغيير الكالون والترباس.

في الصباح الباكر لم أخرج إلى أي مكان إلا بعد أن غيرت الكالون والترباس وعلقت قفلاً من الخارج حتى لا يدخل بأية طريقة وأنا غائبة، وفكرت إذا ما توافر بعض المال في تركيب باب من الحديد لا يسمح بالاقتراب من الشقة. اتصلت من الكشك بالمخرج. قال إنه يريدني لدور «نورا» بطللة مسرحية «بيت الدمية» لإبسن، وقد حصل على موافقة للعرض على مسرح السلام بشارع قصر العيني، وأضاف أن العقود جهزت وكذلك المقدمات المالية.

- هيا إلى إدارة المسرح لتستلمي دفعة التوقيع. هل لديك فكرة عن أجرك؟

- لا. ليست لدي أية فكرة.

- عشرة آلاف جنيه.

منعت نفسي من الصراخ.. قلت لها فقط:

- يبدو أن زمن العمل المجاني قد انتهى ودخلنا زمن الاحتراف. لم أرد أن أواجهه بالحقيقة المرة وهي أنه مخرج متوسط الموهبة ومحدود الثقافة وقد أفسد مسرحية «الأم شجاعة» بالإضاءة والرقص



والثروة التي أضافها ليطول مدة العرض، كما أن الديكور كان فقيرًا  
ومرئياً.. صحيح الظروف كانت صعبة والمناخ غير مشجع والعقبات  
الكثيرة لكنه ما يزال في نظري مخرجاً محدود الموهبة، ولن أستطيع  
أن أصدمه برأيي لكنني على الأقل لن أشكره على بطولة المسرحية  
ومكافأتها أو أقول ولو بيني وبينه أنه مخرج عظيم أو حتى جيد. ولن  
أسمح لنفسني حتى بالقول إنه مجتهد لأنه لم يبذل أي جهد لانتشال  
المسرحية من الوحل الذي أغرقها فيه، وسوف أكون أكثر جراءة في  
الاعتراض إذا ارتكب ما ينتقص أو يسيء إلى هذا العرض لأنه لن يضر  
العرض فقط ولكن سيضرني شخصياً.

سعدت لأن أنيتا ستكون معي في العرض ولكن ناجي لن يكون  
فيه. سألت عنه بعض من التقيت بهم من الشباب فلم أصل إلى أية  
معلومة ذات قيمة إلا أن منهم من أبلغني أنه قرأ مناقشة للداخلية  
ولبعض الشخصيات المهمة لسرعة التدخل للإفراج عن الشاعر  
والممثل الموهوب ناجي الورداني. أحسست أنني عاجزة عن فعل أي  
شيء طالما يدي خالية من موبايل. فوجئت بدفعة التوقيع. كانت ألفي  
جنيه قبل الخصومات التي بلغت أربعمئة جنيه. ألف وستمئة جنيه  
الآن في جيبتي. أكبر مبلغ امتلكته في حياتي.

التهمت من أقرب مطعم تشكيلة متنوعة من الساندوتشات.  
اشترت موبايل يؤدي المطلوب وزيادة لكنه ليس ثميناً، واشترت  
لعصاً ودجاجاً وفاكهة ولبناً وكل ما يلزم للطعام والشراب، واحتجزت

مبلغًا يزيد على خمسمائة جنيه لتشكيلة بسيطة من الملابس الرخيصة نسبيًا ولكن الأهم أن تكون ذات ذوق رفيع ويمكن أن يتم ذلك من وكالة البلح أو العتبة.. نظفت البيت وأكلت كما لم آكل من قبل. وبدأنا البروفات. وقامت إدارة المسرح بعمل حملة دعاية للمسرحية التي قيل إن وفدًا ثقافيًا دنماركيًا سيحضر افتتاحها. وكانت الدعاية تتضمن صورة للبطلة ريم الجمل. رفع ذلك الأمر معنوياتي التي كانت قد بلغت الحضيض، لكن الفرحة بالفرصة لم يمنع من البحث عن فرصة للانتقام. زرعت أمي في نفسي منذ سنواتي الأولى الاعتزاز بالكرامة والدفاع عن الشرف والمقاومة ورفض الخضوع لأي شيء. الجوع ولا فقد الكرامة. الحفاظ على الكرامة لا يتحقق إلا بالاستغناء.

ولست أدري السرف في أن بيتًا من الشعر لا يزال معلقًا في ذاكرتي منذ الصغر.

إذا لم يكن من الموت بد... فمن العار أن تموت جبانًا.

عزمت على قتل الغريب بالرصاص. سألت عن أنواع المسدسات وطرق استعمالها وكاتم الصوت والمسافة المثالية بيني وبين المراد قتله ومن الذي يمكن أن يدريني. لكنني وجدت صعوبات في الإجراءات، لا بد من رخصة رسمية من وزارة الداخلية، وحتمية وجود ضرورة فعلية وجادة أو خطر لا بد من اتقائه. سألت عن الأبواب الخلفية فقيل لي من عدة مصادر أن معظم من يعملون بالأبواب الخلفية لهذه الأمور لا يوثق بهم.. لذلك أرجأت موضوع قتل الرجل الغريب بالرصاص.

ورأيت مؤقتًا ضرورة عمل التحصينات الكافية. لن أرد على التليفون الأرضي مهما كانت الأحوال. أرجأت مؤقتًا عمل الباب الحديدي. سألت عن ثمنه فوجدته يتكلف كثيرًا.. خرب الله بيوت من يتاجرون في الحديد وفي لحوم البشر.

طبقًا للخطة الجديدة قررت أن أعيش وأقاوم وأمارس حياتي بصورة عادية ويظل هاجس الانتقام قائمًا وملحًا، مع البحث بهدوء وروية عن الأسلوب المناسب. لأول مرة منذ أسبوعين أفتح التليفزيون. في فيلم السهرة شاهدت فيلمًا ممثلة أجنبية يعجبني أداءها هي جنيفر لوبيز كانت تقوم بدور زوجة وأم لطفلة تلاقى العنت والضرب وسوء المعاملة من زوجها. جربت كل الوسائل لمنعها عن إيذائها فلم تبلغ مرادها. استعانت بالأهل والأصدقاء لإيقافه فلم يفلح. لجأت للشرطة فلم تفلح لأنه صديقهم. هربت بطفلتها إلى أماكن كثيرة وكان أعوانه يصلون إلى مكانها عبر آليات عديدة حتى تحولت حياتها إلى جحيم ومن هنا قررت العودة إلى البيت ومواجهة مصيرها مواجهة مباشرة دون الاستعانة بأحد فما حك جلدك مثل طفرسك.. ذهبت إلى أحد الأندية الرياضية وتعلمت الكونغ فو وأتقنت حيل الشجار العنيف وكيفية مقاومة شخص أكبر منها حجمًا وأقوى بدنيًا مثل زوجها. ما أن انتهى الفيلم حتى وجدت بغيتي ووصلت إلى الحل المناسب جدًا.

مع ضحى اليوم التالي كنت في أحد الأندية أسأل عن يعلمني الكونغ فو وفن الدفاع عن النفس والقتال بدون سلاح، مع مهارة استعمال السلاح الأبيض. اقتضى الأمر شهرًا ونصف الشهر مع التركيز الشديد والتدريب اليومي بما فيه اللياقة البدنية والجري والنظام الغذائي.

لم تمنعني كثرة البروفات وحماس المخرج والممثلين وقرب موعد العرض وكذلك التدريبات اليومية من المشاركة مع شباب حركة 6 إبريل في ثلاث مظاهرات، واحدة على سلم نقابة الصحفيين وكانت من أجل إطلاق سراح المعتقلين من شباب الحركة وثانية أمام مجلس الدولة من أجل الدعوة لوقف تنفيذ اتفاقية تصدير الغاز للكبان الصهيوني قاتل الأطفال. وثالثة أمام قصر العروبة احتجاجًا على الجدار الفولاذي الذي يقيمه النظام على الحدود المصرية الفلسطينية في مواجهة غزة لدعم الحصار عليها.. لم أتأثر كثيرًا بكلام مهذب من ضابط شرطة برتبة رائد. اقترب مني وابتسم ثم قال:

- أنت الآن ممثلة لك اسمك ومنتظرك مستقبل كبير لا يجب أن تضعيه بمشاركة بعض الفارغين والعاطلين.

لم تعجبني طريقته الثعبانية فقلت:

- ليسوا فارغين ولا عاطلين.

قال بتحدٍ أكثر ربما ليستفزني:

- هم ليسوا فارغين فقط أو عاطلين بل وجهلة لأنهم لا يعلمون شيئاً عن كواليس السياسة. هناك أمور تحت التراييزة.. فلا تسألوا عن الميأ إن تبد لكم تسوء كم.

أنا متأكدة أنه لا يحفظ من القرآن غير هذه الآية لأنها ردا جاهز وتصور هو وأمثاله أنها قادرة على إسكات أي معترض بحجة جهله بأسرار السياسة والحكم.. لا بد أنها تستخدم في مناسبات لا حصر لها دفاعاً عن الحكام العباقرة المهمومين بالتفكير في صالح الوطن دون أن يضطروا للكشف الكواليس. لم أعره التفاتاً ومضيت أهتف ضد حكم الخونة. كانت الصورة السياسية للنظام أمام شعبه والعالم مجلبة للعار ولم تحدث في أية دولة.. الغريب أن وسائل الإعلام اهتمت بدعوة ضيوف يتمتعون بدرجة عالية وغير مسبوقه من النفاق ومضوا يؤكدون أهمية القرار وضرورته لحماية التراب الوطني.

جاءني عقيد وقال الكلام ذاته، وأضاف:

- أنا مستعد أوصلك بسيارتي لأي مكان تريدينه حفاظاً عليك. أرجوك لا بد أن شعري بقيمتك. أنتم المثقفون والفنانون كريمة المجتمع والنظام بكل مستوياته يحترمكم.

كدت أضحك بصوت عالٍ من كلام رائع يقوله ضابط شرطة متخصص في الضرب والإهانة واعتقال المناضلين وأصحاب الرأي. تذكرت أبي فجأة. ما الفارق؟.. أبي اغتصبني وأقسم أنه نادم.. أبي الذي يتعين عليه حمايتي هو الذي محاً تماماً شخصيتي وضيع

مستقبلي، ومثله فعل ضابط الشرطة. اعتقل ناجي وزملاءه وسوف يعتقلني ويتحدث عن احترام النظام للمثقفين. اندفعت وأنا أرى فيه صورة أبي:

- أرجوك أنت. دعني وشأني. أنا جزء من الحركة وأي تصرف منفرد خيانة.

- يا آنسة.. أنت لديك منبرك. هذه المظاهرات قد تكون ملائمة لمن لا منبر لهم ومن حقهم أن يعبروا.

- كلامك جميل يا حضرة الضابط. ما دام التظاهر من حقهم فلماذا تقمعوهم؟

- لأنهم يخرجون عن السلمية إما بسبب السلطة أو بتخريب الممتلكات الخاصة والعامة.

ضقت ذرعًا بالضابط الذي يحاول تحسين صورته هو ووزارته اللعينة. وقبل أن أبتعد عنه بدأت آلة الضرب في العمل بكل قسوة. زادت القوات فجأة واشتدت الملاحقة وتعامل الجنود مع الشباب بمنتهى العنف بعد انتهاء المدة التي منحوها لنا حتى نتفرق دون أن يحدث شيء. صمد البعض وركض البعض وأسرع عدد إلى مداخل العمارات لكن الشرطة كانت لهم جميعًا بالمرصاد. أحسست بأنني مجهدة وغير قادرة حتى على الهتاف. رفضت فكرة الابتعاد وفضلت الجلوس على الرصيف قريبًا من المتظاهرين. استمر الشباب في

المقاومة والمهاجمة والكر والفر لأكثر من ساعتين، ولما ثقلت الضربات وأسقطت الكثيرين منهم بدأوا يبتعدون ويتفرقون. انشغل البعض في نقل المصابين الذين لم تصل إليهم عربات الإسعاف عمدًا حتى ينشغل الشباب بجرحاهم، وقد تمكنت الشرطة من انتهاز الفرصة واصطياد بعضهم من الذين ردوا عليهم بقوة.

حكى لي مراد وهو شاب من 6 إبريل عما قام به وزميل آخر حيث تسللوا في اتجاه عدد من الجنود كانوا يرتدون ثيابًا مدنية ويحملون آلات تصوير ويقومون بتصوير البارزين من الثائرين. انقضا عليهم وأوسعاهم ضربًا وحطما الكاميرات، ولاحظ ذلك بعض الضباط فدفعوا بجنود للقبض على مراد وزميله لكنهما كانا قد اختفيا. لم يخطر ببالي من قبل ولا أنبأني أحد بموضوع الكاميرات التي يعتمد عليها جهاز الأمن في ملاحقة من يفلتون أثناء المظاهرة.

انقضت المظاهرة وأنا حزينة لأنني لم أشارك كما يجب. جسمي منهك وأشعر بالإجهاد الشديد. تذكرت الدورة. لم تزرني بالأمس. قلت لنفسي:

- أحيانا تتأخر بضعة أيام.

في اليوم التالي ترقبتها فلم تحضر، وفي صباح اليوم الذي جاء بعده وجدتنني نظيفة. داهمني القلق، ومع ذلك قلت:

- غدا إذا لم تأت فإن هذا لا يعني غير أن الفضيحة حلت والمصيبة وقعت.

ارتبكت برامجي بسبب الحالة النفسية.. اعتذرت مرتين عن البروفات. ادعيت المرض. مر يومان آخران. ليس ثمة مجال للمكابرة. لم أضيع وقتًا. أسرعت بالعرض على طبيب للبحث عن إجابة.. قال:

- لا شيء في الأفق.. غياب الدورة عدة أيام ليس دليلًا.

تابعت البروفات بتوجس.. فقدت الكثير جدًا من تركيزي وقد بدا واضحًا في نسياني وشروودي.. أنا بالفعل في مأزق لم أستشعره من قبل وربما فاق المأزق الذي عشته في الشهور التي سبقت وفاة والدتي.. كنا نعرف منذ سنوات أن المرض المتوحش لا يترك فريسته إلا جثة. كنا بشكل أو آخر نسعدون نرفع ونحاول تأخير اللحظة الفاصلة لكنها تشق طريقها نحو النهاية بكل ثقة وإصرار، وأظن أنني في مواجهة مماثلة وهذا القطار يشق طريقه نحوي ليدمرني وأنا حية.. لا يبطش بجسدي ولكن بسمعتي وشرفي. أمر لا يمكن احتماله. ومع ذلك فقد يحدث أن يغتصب شاب فتاة وتجري المحاولات الحميمة لإقناعه بإصلاح خطئه بالزواج، فيتزوج ضحيته في حفل بهيج ولو طلقها بعد شهور، فما حالتي أنا؟.. وكيف نقنع المغتصب كي يصلح ما اقترف بالزواج مني؟.. أهلي كثيرون لكن هذا الموقف يجعلني وحيدة وعاجزة وغير قادرة على الشكوى أو البوح، فلمن أشكو وماذا أقول؟.. يا رب إليك أشكو حالي الذي لا يخفى عليك.. فاسترني واهدني.



بعد شهر ذهبت إلي الطبيب، وبعد الكشف قال:

- تأكدنا أنك بالفعل حامل.

سرت في الشوارع أكلم نفسي ولا أعرف إلى أين أتجه.. لم أحس بسدي ولا بغايتي.. أمضي على غير هدى.. الشوارع مفتوحة وأنا أخرج من شارع إلى ميدان ومنه إلى شارع ثم شارع أكبر وبعده ميدان.. رأيت عدة مرات رجالاً مجانين يهتفون في الشوارع ويصرخون ويتحدثون إلى أشخاص بعينهم.. لا بد أنهم يعانون شيئاً مما أعاني، وأنا الآن قريبة منهم جداً.. لم يخطر ببالي أنني متجهة إلى بيتي أم إلى المسرح إلى أن فوجئت أنني أدخل المسرح، وسمعت أنيتا تصرخ في فرح:

- ريم وصلت يا جماعة.

- التفت إلي الجميع وابتسموا.

وقال المخرج:

- أوقعت قلوبنا.. الله يسامحك.. النهاردة البروفة الجنرال.

طلبت فنجانين من القهوة ودخلت الحمام واغتسلت وخرجت إلى حديقة المسرح الخلفية شاحبة الإضاءة.. وقفت معتدلة كأنني سأواجه موقفاً عصيباً في مباراة مصارعة مع منافسة قوية وساحقة. أخذت في الظلام أنفاساً عميقة عدة مرات، بل قفزت وأجريت بعض

التمارين الرياضية.. أبعدت من رأسي كل شيء يؤثر على أدائي  
وجدت نفسي أقول:

- ممنوع الاقتراب.. المسرح مقدس.. أنا أحبه وأحترمه وحياتي  
كلها له ولن يمنعني شيء في الوجود مهما كان عن تحقيق مجدي  
على خشبته وبين جماهيره.. ساعدني يا رب.

اكتشفت أنهم شكوا في وجودي كل هذا الوقت في الحمام  
فأرسلوا من يسأل عني وبينما هم في دهشة وحيرة دخلت قائلة:  
- أنا جاهزة.

بدأت البروفة وانطلقت وكنت أتحدث في بعض المواضيع المتأزمة  
بانفعال شديد وأنا أتمثل أعدائي وأتصور من يحاولون سحقني.. صفت  
المخرج طويلاً وأسرع يعانقني ويقول:

- رائعة يا ريم.. رائعة وأريد الأفضل غداً.. شخصيات مهمة جداً  
ستحضر.. الوزير والفنانون ورجال الإعلام وبعض الدبلوماسيين  
والسياسيين والضيوف الأجانب.. أنت التي ستقودين العرض ونحن  
معك.

عندما عدت إلى المنزل تسلمتني الظروف التعسة فقررت طردها  
وتأجيل التفكير فيها لما بعد انتهاء العرض الذي قد يقتضي شهراً  
وربما أكثر.. سيتعذر تمامًا قطعه بعملية إجهاض لا أحد يعرف  
بالضبط توابعها. وكانت ليلة الافتتاح ليلة من المجد كما قال المخرج  
الذي بدأ يكبر في نظري.

بعد شهر ونصف تقرر نقل العرض إلى الإسكندرية وتوقف العرض عدة أيام فأسرعت أطلب من الأطباء إجراء عملية إجهاض. رفض ثلاثة.. دفعني رفضهم لمعاودة التفكير في الحمل.. هل تكون هذه إرادة الله أن أحتفظ به؟.. وكيف تكون إرادة الله وهو سفاح وسلوك عدواني آثم ومحرم؟.. لا يمكن فكرة أن الراضين ينفذون إرادة الله حتى لو أصبحوا عشرة.. المشكلة تكمن فيّ أنا فأنا أحب الأطفال.. كم أتمنى أن يكون لي طفل أعبه وأسمع ضحكته ويتسم لي وجهي فتبتسم لي الدنيا.. طفل بريء وجميل أتابعه وهو يكبر كل يوم مع كل إشارة وحركة وكلمة. طفل يركض نحوي ويقع فأحمله بكل قلبي وروحي وأطير به فوق العالم. لكنه في هذه الحالة بالذات سيكون محملاً بالأسئلة والمشاكل والحرام والرعب من الخالق.. للطفل محرم وملعون منذ البداية.. قال أحد الأطباء مرة في التلفزيون إن الطفل الناتج عن لقاء محرم من الأب أو الأخوة يولد في العادة وبه بعض التشوهات أو العلل. لا وألف لا.. سامحني يا ولدي.. أنت طفل غير مرغوب فيك حتى من أمك التي لم يكن لها رأي في فدومك.. بيدي أقتلك فسامحني.. سامحني يا رب..

واصلت السعي لإجراء العملية حتى قبل أحد الأطباء وقام بإجرائها. أخفيت الخبر بالطبع عن الجميع. وقضيت عدة أيام في السرير بحجة الإصابة بأنفلونزا. حدد المخرج بداية العرض بالإسكندرية يوم تمام شفائي. وكنت أمارس الرياضة في الصباح الباكر مع شاب تعرفت عليه بنادي سبورتنج.

بعد ثلاثة أشهر أصبحت قادرة على ضرب أي شخص يفكر في مهاجمتي. لكن الشخص المقصود لم يظهر. ومن يتذكر العفريت يظهر له، فبعد يوم واحد من وروده على خاطري وجدته في ليلة من الليالي يندفع داخلاً من باب الشقة بعد أن فتحت وكان يجلس في انتظاري على درجات السلم. دخل بسرعة وأغلق خلفه باب الشقة. ارتبكت قليلاً ووضعت على ترابيزة الأنتريه كل ما أحمله والتفت إليه ودون تفكير وقبل أن ينطق بحرف بطريقته اللزجة المكسية بنعومة الثعابين هجمت عليه وأوسعته ضرباً.. بدا مذهولاً من اللكمات السريعة والسيقان الطائرة والأيدي المتحجرة. لم تلمح عيناه يدي وهي تختطف المطواة وتغزها في رقبتة. قلت:

- لو رأيتك في الشارع وليس في الشقة سأذبحك أمام الناس وليحدث ما يحدث.

تحركت يده اليمنى المرتعدة ببطء تمسح قطرات الدم التي أحسها ثقيلة تسيل من فمه وأنفه. لاحظت أن ذراعه اليسرى متدللية لا تكاد تتحرك. لمح نظرتي فسألني بصوت ضعيف مشوب بقدر من العتاب المقزز:

- أهكذا تفعل بنت بأبيها؟!!

- أنت لست أبي.

فتح عينيه مندهشاً وسأل:

- من قال هذا؟

- أنت.

- لم يحدث.

- فعلك.

تنهد وأحنى رأسه ثم قال بأسف يبدو حقيقياً لكن مناعتي أصبحت قوية ضد الأعيبه:

- فعلا أنت لست ابنتي.

- لا أصدق لكنني ألتمس لك العذر لأنك دخلت في المدة الماضية  
الأممًا مصرية وهندية كثيرة.

- أقسم بالله العظيم أنك لست ابنتي.

تركته وجلست على أقرب كرسي. توقف عقلي عن التفكير. لعنت الرجل الغريب. كل ما يصدر عنه قميء مثله. هل أطرده وأنقذ نفسي من أفكاره المتعفنة وخرافات السقيمة أم أصبر لأفهم. لكنني لست بمحالة تساعدني على تقبل أي شيء منه. الخمر دمرت عقله. لم يعد يدرك الفرق بين الأب والابن. أصبح خاويًا من كل المشاعر تجاه أهوته وأهله. لم يعد قادرًا على استيعاب فكرة الحرام. بعيد تمامًا عن الدين والخالق. شخص مريض. محروم بدرجة غريبة من الإحساس والأخلاق والنخوة. مسكين. مسكين حقًا لكنه غير جدير بالشفقة. تنهدت وأنا أتأمله وهو جالس على الأرض ككومة من المهملات

التي يجب التخلص منها. كومة لا يمكن تقديمها لأي إنسان فل تنفعه، وليس مصيره إلا صناديق القمامة. مع ذلك سألته:

- تذكر الخالق سبحانه وتكلم بما يمليه عليك ضميرك وإياك أن تهين أُمي لأنها أشرف منك.

ابتلع ريقه وقال:

- المرحومة إنسانة محترمة وشريفة ولا أسمح لأحد أن يمسها بسوء، لكنك لست ابنتي.

صرخت فيه:

- تنوي على جنوني. ما معنى كلامك؟.. ودعك من اللف والدوران.

- ورحمة أمك أنت لست ابنتي. أنت ابنة عمك نبيل الذي تزوجته أمك قبل أن تتزوجني لكنه مات، وأمرني أبي أن أحل محله على أساس أن العائلتين عائلة واحدة.

أمسكت رأسي غير مستوعبة ما أقسم عليه.

- لنفترض أنك صادق فمتى تزوج عمي أُمي؟

- كان العقد قد تم توقيعه قبل الزواج الفعلي بنحو شهر، ثم توفي عمك قبل الدخلة بيومين، وتزوجت أمك بعد وفاة أخي بشهرين وكانت حاملاً.

ركبتي العفاريت. نهضت فجأة وصرخت فيه:

- هيا اخرج فورًا لا أريدك لحظة .. أنت فقدت كل إحساس أو عقل. أنت كائن مريض.

قال ببرود لم أشهد له مثيلًا في حياتي:

- الله يسامحك.

صرخت: اخرج.

قال بهدوء مستفز:

- قارني تاريخ زواجي من أمك بتاريخ ميلادك. سيكون الفارق ستة أشهر وواحدًا وعشرين يومًا.

اضطرت للرد عليه دون رغبة في الحقيقة:

- قيل أني ابنة سبعة أشهر.

رد بثقة وبنبرة أعلى:

- غير صحيح. أنت مولودة كاملة مثل كل الأطفال. أنا بنفسني سألت الطبيب:

- هل المولودة بنت سبعة أشهر؟

قال:

- لا. المولودة بنت تسعة ومكتملة ووزنها مناسب جدًا..

سكت لحظات وهو يحرق في وجهي بجرأة وثقة، ثم قال:

- أتمنى أن تفكري وألا تكوني فريسة للغضب الذي يعمي العيون،  
تذكرني أنني أنا برغم كل شيء أبوك الذي رباك واعتنى بك. تذكرني  
خروجنا معاً وحضوري حفلاتك في المدرسة وترحبي بأصحابك  
والكتب الملونة التي كنت أحرص على شرائها وبها قصص كثيرة  
كنت تسهرين معها الليل. وكنت أنا من يأخذك إلى المدرسة ومن  
يشترى لك العسلية والحرنكش وغزل البنات والجميز والتوت وكعب  
الغزال. هل نسيت؟ لا. لا أظنك نسيت لأنك كنت تطيرين من الفرح  
عندما أضعها بين يديك وتقبليني في خدي وتعانقيني وتقولين:

- مرسية يا بابا. هل نسيت؟.. كنت أنا من يأخذك لتشهدني  
الأراجوز وصندوق الدنيا.

أتركك تتفرجين على الحاوي الذي يشرب الجاز ويشعل النار في  
فمه ويطلق اللهب ويفك السلاسل من حول جسده بعد أن يكبله أربعة  
رجال. هل نسيت زيارتنا للمولد سواء في السيدة أو الحسين وركوبك  
المراجيح والأحصنة الدوارة والسيارات التي تتصادم.. فاكرة لما تهت  
مني في المولد وظللت أجري وأبحث وأنادي وأصرخ ولما تعبت  
جلست على الرصيف وأخذت أبكي، وقرب الفجر وجدتك نائمة  
جوار خيمة الذكر. حملتك ومشيت حتى البيت وأنا أحملك وكان  
عمرك حوالي سبع سنوات. تعبت جداً في هذا اليوم لكنني ظللت  
أحملك حتى وصلنا البيت ووجدنا أمك رحمها الله تقف في الشارع  
تتلفت كالمجنونة في انتظارك. هل نسيت؟



لم أجد مؤقتًا ما أقوله. همست فقط لنفسى بأني إذن طالعة لأمي.  
من الأخرى ضلت الطريق إلى البيت في يوم مولد السيدة. عجز  
عقلي عن التفكير واسودت الدنيا في عيني، ووددت أن أرتاح من كم  
المصائب التي يصبها فوق رأسي. لا أكاد أذكر شيئًا مما قال لو كان قد  
حدث فعلاً لتذكرته. أظن أن بعضه حدث لكنه فيما أظن كان يهدف  
إلهادتي ونسيان جرائمه. كانت طريقته مملة. طول حياته ممل وتسبب  
في أن تكون حياتنا مملة وها هو يختم تاريخه الممل بجريمة بشعة لن  
ننسى من قتله. أخذت أحرق فيه بقرف كصر صار نصف ميت لا أجد  
الحماسة لدهسه.

تحرك نحو الباب وقبل أن يمسك بأكرة الباب التفت وقال:

- لك عندي أمانة.

- لا أريدها.

- ستندمين.

- لن أندم أبدًا ما دمت سأتخلص منك.

- الأمانة أرسلها إليك شخص عزيز.

لم أجد ما أقوله لهذا اللزج الذي لا يستفزني فقط بل يثير اشمئزازي.  
أخرج من جيبه ظرفًا وقدمه لي قائلاً:

- تفضلني ربما تعرفين كيف أحافظ عليك وأحترم مشاعرك رغم

أني لا أحب هذا الشخص ولا أحدًا من أهله.

أسرعت أقبض على الظرف وأقلب فيه. لا بد أنها رسائل من  
ناجي. اختلطت المشاعر للحظات. ساد صمت، أنهاه بقوله:

- بقي طلب صغير.

لم أرد بكلمة. قال:

- عديني أن تحتفظي بالمولود فهو ابني.

حدقت فيه مذهولة، ثم هجمت عليه أخمشه في وجهه وأكمه في  
صدره ثم بصقت عليه وطرده وصفقت الباب خلفه وصرخت:

- حقير.. حقير.

ارتميت على السرير تكاد رأسي أن تنفجر.. ماذا جرى لنا؟

تقلبت على بطني وظهري.. فجأة تهشم كل الزجاج وتحطمت  
الفايزات، وتهشم كل الأثاث واسودت الدنيا. مستحيل ما يجري  
لنا. طاعون ضرب العائلة. ضاق صدري. اختنق. لا يوجد بالفضاء  
أكسجين.. اندفعت أخلع ملابسي دون اعتبار بالنوافذ المفتوحة.  
مضيت إلى الحمام فتحت الدش على آخره.. بقيت مدة لا أدري  
طولها. لا أود أن أحرم جسمي المرتعد داخلياً من نافورة الماء. الماء  
لا يروي الظماً فقط، ربما يروي الجسد والروح.. لم أشعر بتحسن إلا  
قليلاً. ارتديت ملابس الخروج. اشتقت لسالي. أختي حبيبتى الباقية.  
الأمل الوحيد الذي ينبت بسرعة وجمال.. كانت وحدها بالبيت..  
تعانقنا طويلاً وبكيت على صدرها. أصبحت طولتي.. ألحت عليّ أن

بال معاً.. أسرع إلى المطبخ.. درت في حجرتها.. فتحت دولابها  
العرب الجميل. لفت نظري دفتر بغلاف أحمر جلد. فتحته.

عندما علمت أنني برج العقرب. شعرت بالأسف لأن سُمعته  
سببه ويقال إنه اسم على مسمى. غامض ويميل للتكتم وقد يفكر في  
الانتقام ويحاول الابتعاد عن النور. أنا متأكدة أن شيئاً من ذلك ليس  
من طباعي.. قرأت في الأبراج كثيرًا وبالذات هذا البرج، فوجدته بغير  
السوء الذي يشتهر به. لكن قصة العقرب الذي طلب من الأوزة التي  
تأهب لعبور النهر أن تحمله على ظهرها تقف كشوكة سمكة في  
حافتي فقد قيل إن الأوزة رفضت خوفاً من لدغة العقرب.. صارحته  
بأمرها قال لها: إذا لدغتك فسوف أسقط في النهر بالتأكيد وأموت.

فكرت في كلامه ورأت أنه منطقي ومعقول فوافقت على أن  
أحمله، وطارت به.. حدثها وحدثته، وعبر لها عن سعادته بالرفقة  
التي لن ينساها أبداً.. لما أوشكت الأوزة أن تبلغ الشاطئ الآخر  
وقد جمعت جناحيها الطويلين. لدغها العقرب ففرغت الأوزة من  
المفاجأة، وأدركت أنها خلال دقائق ستموت، فسألته:

- لماذا فعلت بي هذا وقد حملتك؟

قال العقرب:

- الطبع يغلب التطبع.. ولعل في ذلك حكمة».

ابتسمت.. لا بد أن أناقش سالي في الفكرة التي سيطرت عليها.

هممت بإغلاق الدفتر لكن السطور التالية والأخيرة في الصفحة،  
اجتذبتني:

«لكنني علمت أن بعض الشخصيات التي أحبها وتلفت نظري من  
برج العقرب مثل بابلو بيكاسو وبيليه والأمير تشارلز وهيلاري كلينتون  
ومارادونا وطه حسين ونيروز، لذلك رضيت بنصيبي، وأقنعت نفسي  
أننا لا نختار الكثير مما ورثناه. المهم ما يمكن أن نفعله بحياتنا  
ومستقبلنا.. المهم من يقول ها أنذا لا من يقول كان أبي».

تراجعت عن فكرة إجراء مناقشة مع سالي.. واستمتعت بسهرة  
جميلة معها أزاحت عني بعض الهم.

# 4

لم يستطع بأي درجة مساعدة زينب على احتمال مرضها العصيب ولا حتى بالتعبير عن مشاعره تجاه عذاباتهما. بدا في أغلب الأحوال كأنه لا يعلم ما بها أو أن أمرًا بسيطًا يشغلها. لم يدرك أن عدم تعبيره عن مشاعره وأساه مهذ الطريق لزعة العلاقة الزوجية المهيأة للتداعي لأسباب قد تكون معروفة وأسباب خفية تظهر ملامحها كالهواجس أو الأشباح. كان صامتًا أبدًا ولم يكن صمته يدل إلا على عجزه عن القيام بأي دور، لكنه كان ذا أثر مدمر بالتأكيد لأن زينب بوصفها فريسة للمرض اللعين الذي يكشف عن وجهه القبيح برفضه الإذعان لكل أساليب العلاج بحاجة إلى الأحاسيس الرقيقة والمؤانسة الودودة الخفيف هجوم اليأس المصاحب للتجربة الفريدة مع مرض هتلري لا يعرف التفاهم أو الحوار ولديه خطة محكمة غير قابلة للتوقف أو الإخفاق.

لم تكن حياتهما العاطفية قبل المرض حميمة بدرجة كبيرة، وإنما كانت مثل مجموعة من الأسماك الصغيرة جدًا تتحرك في مياه ضحلة.

علاقة رمادية لا تتعامل مع العمق ولكنها تميل نحو الهامش حيث الغالب والهدوء وسهولة القدوم والانصراف.. علاقة مكتوبة بقلم رصاص لا بالحبر أو بالحفر وليست موشومة. ثمة أمور وأحداث وأسرار أدت إلى أن تصبح العلاقة هشة مثل بنيان أقامه مقاول بلا ضمير فوق الأرض مباشرة دون أن يحفر عميقاً له ويرسخ قواعده، بل لم يهتم بشفت المياه الجوفية التي كانت تمتلئ بها أرضيته.

لا يدري أي منهما ما السر في أن العلاقة الجنسية ولو كانت متباعدة لم تستطع أن تقرب بينهما، وكان من المفترض أن توثق العلاقة وتعمقها كما اعتادت أن تفعل مع كل الأزواج حتى لو كان أحدهما من عائلة تكره عائلة الآخر بل ولو بينهما ثأر وإصرار عقائدي على الانتقام.

لم يصرح مرسى بوضوح - وهذه مشكلته المزممة - لزوجته بأن نبيل يقف دائماً بينهما، بل إنه حاضر بكثافة حتى في غياب مرسى، رغم أنه مات، وقد تعمدت السنون أن تمر بدأب وكان من المفترض أن تغمره بالنسيان لكنها لم تفعل شيئاً من هذا.. تراجع ذكر نبيل لدى أبويه وأخوته وما زال حيّاً في قلب زينب.

قبل نحو خمس سنوات من رحيلها تسلل المرض برهافة غير معتادة، ولم يتنبه أحد ولا هي لتسلله المحسوب، وكأنه كان يعرف الحالة النفسية لزينب إزاء زوجها والعالم فقد ظلت طوال حياتها تنظر إلى أبيها بالذات وتمسكه بزواجها من مرسى على أنه الذي دق أول

تسار في التابوت الذي تم دفن سعادتها فيه. لكنها نزعَت من الحسبة  
 روحها تمادت في عاطفتها مبكرًا مع نبيل إلى درجة التسليم الجنسي  
 غير المتعمد، متجاهلة تمامًا مستجدات الحياة العاصفة وهجمات  
 الموت الضارية بعد أن بلغت السعادة ذروتها وحملتها إلى عالم آخر  
 من البهجة والجمال والسحر، وفي المقابل كان هذا العالم سببًا في  
 بناء علاقة زواج جديدة مع مرسى منزوعة الدسم.. استمتع الأهل  
 بالفكرة العبقرية. زيتنا في دقيقنا. تلبس طاقة هذا لذلك.

لسل المرض دون أية إشارات وبدا كأنه امتداد جسدي وإن كان  
 غير منظور إلا إنه مكمل لحالة التقشف العاطفي، أو كأنه نتيجة لها،  
 فالوهن الذي يقعدها كان موجودًا بدرجة ما منذ البداية، وكان باهتًا منذ  
 السنوات الأولى لزواجها حماسها للإقبال على مباحج الحياة. لم تكن  
 من الأساس مهياة نفسيًا كي تغادر حمولها كما تفعل المرأة المسئولة  
 من بيت ورجل وأبناء. المرأة الطبيعية أو العادية خلقت في الأصل  
 وعند مولدها مشغولة بالتفكير في التطوير والتدبير، وكثيرًا ما تكتم  
 الناس الماضي لتتكيف مع شكل الأيام التي لا تتعطل عن الحضور  
 لأي سبب وسرعان ما تتحمس لتجميل المعالم والمشاهد التي تحيط  
 بها، فتسعى لتبديل الأثاث وألوان الجدران والستائر، وابتكار الأكلات  
 الجديدة والشهية، وتهتم بمظهرها وتصميمات ملابسها كي تتناسب  
 مع شبابها حتى لو كان نصيبها من الجمال قليلًا. لم تكن زينب معنية  
 بما تعنى به بنات نوعها خاصة أنها جميلة وعودها سمهري ورشيق

ولها طلعة بهية لافتة. لا تخجل عيون الشباب من الرجال والنساء والأطفال وكبار السن من التطلع إليها حتى لو كان ذلك اختلافاً وطمعاً في الاستمتاع بنعمة النظر إلى ما أبدع الله في خلقه، فكيف تشغل العيون عن تأمل شعر زينب الكثيف البني المسترسل الناعم وهو يغطي كتفيها وظهرها حتى بدايات الخصر النحيل؟! وكيف لو أن يتجاهلوا عينيها، فنصف وجهها عينان عسليتان مشرقتان بالجمال والألق؟! ورغم صمتهما يسيل منهما الكلام وتحلق الأفكار، وما كان أحد باستطاعته ولو كان أبوها ألا ينجذب لشفتيها الحمراء المرسومتين بدقة وافتنان كموجتين صغيرتين من عذوبة وحلاوة ورغبة متلهفة واشتياق يكشفان عن أسنان كاللؤلؤ المصفوف الأبيض الناصع، فإذا ضحكت ضحك العالم واضطرت الشياطين - مكدرة أن تضحك، ولم يكن مرسى يختلف عنهم كثيراً - لا نقصد الشياطين فقد كان منذ طفولته مغرماً بجمال البنات ورقتهن وما يثرنه من حلاوة ودودة ومشرقة.

وهو في نحو الرابعة عشرة أعجبه إنجي بنت والي صاحب محل الطرشي (المخللات)، وكانت دقيقة الملامح سمراء مليحة وهي خديها نغزتان تضيفان جمالاً لوجهها إذا ابتسمت لكنها كانت عرجاء فقد سقطت من فوق السطح على حجر فالتوت القدم وعالجها حلاق الصحة بالخطأ. بدأ التعارف عندما لمحها تبكي وهي خارجة من محل الطرشي، فسألها عما يبكيها. قالت إن أباها زعق فيها ودفعها من كتفها يطالبها بالعودة بسرعة للبيت. قال لها مرسى:



لا تحزني. أبوك يخاف عليك من حركة الشارع والأولاد  
الأنباء.

لغت عن البكاء، وقالت:

أنا أحب أبي جدًّا ولم يشتمني أبدًا ولا ضربني لكنه منذ ماتت  
أمي وتزوج زبيدة الملعونة تغيرت طباعه.

مد لها يده بمصاصة. رفضت. قال لها:

- أرجوك.

مدت يدها وتناولت المصاصة.. لعقت منها قبل أن تسأله عن  
اسمه، فذكره كاملاً كأنه يتقدم للجندية. ضحكت وذكرت له اسمها.

أصبح مرسى وإنجي مذتعارفا يلتقيان في الصباح وهما في الطريق  
إلى المدرسة، وإذا لم تظهر تغيرت وجهته من التعليم إلى الحب.  
يقضى على الفور إلى بيتها ويتسقط أخبارها ويسلم أذنيه لجدران  
البيت ونوافذه، وهو من دور واحد ويقع خلف مسجد فاضل باشا  
على يظمثن عليها، ولما أعلن لها عن صدمته بغيابها في المرة الأولى  
وضعت له خطة للسؤال عنها. أن يقول: بس. ثلاث مرات.

في إحدى المرات عاكسهما ولد مغرم بمعاكسة كل ما يمر به وهو  
من زملاء مرسى في مدرسة الحلمية. بالغ الولد في سخافته حتى  
غضببت إنجي وانتظرت تصرف مرسى لكنه لم يواجه الولد ولم يقدم  
على أية مبادرة لوقفه عند حده حتى انتهت صفاقة الولد بوصولهم

إلى المدرسة. في اليوم التالي حرصت إنجي على السير مع زميلاتها وحياتها مرسي فلم ترد، وانتظر على مضض خروجها في الظهر سألتها عن سر انصرافها عنه فواجهته برأيها، وأضافت:  
- إذا ظهر هذا الولد مرة أخرى فتصرف معه.

نظر مرسي إلى الأرض وقلب كفيه حائرًا، فأمسكته من ذراعه وقالت:

- وإذا لم تتصرف فسوف..

قاطعها قائلاً بوهن:

- لا تهتمي به يا إنجي.. المسألة لا تستحق. كلنا زملاء.

سارا صامتتين، وفي اليوم التالي لم يظهر الولد وسارا صامتتين ثم ظهر الولد وتحرش بهما ودفع مرسي في كتفه وسخر منه ومنها عندئذ قامت إنجي بتوجيه لكمة خاطفة للولد، وسرعان ما سال الدم من شفته. ورأى الولد الدم فأصابه الذعر. بُهت مرسي. كيف استطاعت إنجي أن تسيل الدم من فم الولد وهو أطول منه ومنها وكيف ليدها الرقيقة أن تلحق به هذه الإصابة؟! جرى الولد بعيدًا وسبهما معًا وأخذ يلقي عليهما الطوب وصرخ فيه الرجال العابرون ثم اختفى. سار العاشقان صامتتين وقد لمح مرسي خاتمًا كبيرًا في أصبع إنجي بدا كأنه من الألومنيوم.. قال لها إنه كان قد استعد للولد وما كان عليها أن تتصرف، وأخرج لها من جيبه حجرًا مديبًا سهر مند.

الذين في صنعه. في الصباح عادت إنجي للسير مع صويحباتها، وإذا  
بها مرسى حيته بصورة عابرة وسطحية فقد أصبح في نظرها ولدًا  
عزيرًا، ثم تمضي في سبيلها بوصفه كائنًا غير موجود.

كانت زينب تدرك أن صمته دليل على أنه لا يبالي بوضعها في حين  
كان مرسى يود لو يفعل شيئًا إلا أنه لا يعرف السبيل، ربما كان مشفقًا  
عليها لكنه لا يبوح، وكان مثلها يشعر بالخوف من هذا العدو الشرس.  
كل الأفكار التي عبرت رأسه ولو بطريق الخطأ كانت ملتبسة وتسببت  
له في مزيد من الاضطراب والعجز.

مشاعر زينب المرهفة مشغولة بالخوف من الموت. تحاول تصور  
الكله وطريقته وموعده وعلاماته وتساءل ربها عما إذا كان بالإمكان  
أن تعرف قبلها بشهور حتى تستعد وتحاول أن تشبع من رؤية بنتيها  
وهم وسالي. ولم تفصح لمخلوق عن أنها سألت الرب كثيرًا عن مدى  
إمكانية أن ترى نبيل في الآخرة فقد اشتاقت إليه.. أم أن ذلك يعتمد  
على الحساب ونتائجه. موقنة أن نبيل يستحق أن يدخله الله الجنة،  
ولكن أنها يمكن أن تكون ضمن من يدخلونها.

حاولت كثيرًا تقليد كتاب حياتها للبحث فيه عن الخطايا  
والأخطاء. لم تجد شيئًا من ذلك، وإن وجدت بسهولة كثيرًا من  
التفصير في حق الله.. يكفي عدم قدرتها على الصلاة وعدم إقبالها  
عليها.. لامت نفسها كثيرًا لكنها لم تجد نفسها مستعدة جسديًا على  
الأقل كي تلحق بالجنة ولو بالصلاة التي يمكن أن تشفع لها. المشكلة

أن نبيل هو الآخر أهمل الصلاة. صحيح أنه لم يرتكب أخطاء من وجهة نظرها لكن الموقف سيكون ملتبسًا بالنسبة له ولها. على كل حال إن الله غفور رحيم. هكذا يقول عادة من تحفل سنوات أعمارهم بالذنوب.

أما مرسي فبعد أن تأكد المرض أصبح يخشى فقدان شريكته وأم بنتيه. السيدة الطيبة التي لم تقل له يومًا كلمة نابية حتى لو كانت مقصورة بعض الشيء وتمنى عدة مرات أن يكون له أية قيمة عند الله كي يطلب منه أن يسامحها، وإذا لم يكن له وزن يذكر، فسوف يبلغ الملائكة عند أول لقاء حيثما كان أنه من كل قلبه يسامحها ويتمنى أن يلحق بها على خير راجيًا منهم أن يساعدوه حتى يختم حياته بصورة جيدة.

\*\*\*

# 5

عندما مرضت حاول مرسي أن يربي في نفسه الحس الأبوي  
لسامها.

الحس الأبوي الذي يختلف بالقطع عن إحساس الزوج تجاه  
زوجته، وكلمما حاول كزوج لمسها وتذوق طعم لحمها الأنثوي  
باللمس فقط تراجع. كان يخشى أن يؤذيها فهشاشة الجسد والروح  
والسحة حتى لو لم تكن موجودة حقيقة. وقد انزعج جدًا حد البكاء  
عدة أيام عندما خلعت في مرة أمامه غطاء رأسها، وقد كانت حريصة  
الآن تكشف رأسها أمامه. لقد أصابه الذعر عندما رآها صلعاء، مع أنه  
يعرف جيدًا أن العلاج الكيماوي ينتزع الشعر ويمحوه.

- شعر زينب اختفى. مستحيل!.. زينب الغالية ليست إلا شعرها.  
يعيد العبارات ذاتها كل يوم لأسبوع أو أسبوعين ثم تنهمر دموعه،  
بأكثر مما لو سمع أن العالم ينهار.

كثيرًا ما يسألها: أنا خارج، ماذا تريد مني؟ فتجيبه بعد أن تقبل كفيها ظهرًا لبطن.

- الحمد لله. لا أريد شيئًا.

- أرجوك.

- سلامتك.

- ساعديني لكي لا أشتري شيئًا لا فائدة منه.

تسيل دموعها وهي تقول:

- اطلب من الصالحين الدعاء.

كان يخشى أن يلمسها متصورًا أنها أصبحت كيانًا من الدفيل ولمسها يعني أن تتناثر أو تتهاوى. الجهل بالمرض والرعب منه جعلها غير قادر على المساعدة، والأسوأ أنه اعتقد في كثير من اللحظات أنه لم يعد راغبًا فيها رغم أنها لم تعد تعنيها على الإطلاق تلك الرغبات الجنسية التي هي من الأساس قررت ألا تعبأ بها وأن تقصدها قدر الطاقة لأنها تثير أحاسيس متباينة ومضطربة ومعظمها حزين وبائس، حتى أنها بكت عدة مرات بعد أن جامعها مرسى لأن العلاقة ذكرتها بالموت لا بالحياة. ذكرتها بالعذاب لا بالمتعة. وضعتها على طريق الضياع لا طريق الاستقرار والهناء. لكن المرض وضع خطأ أحمر إزاء أي علاقة جنسية مع مرسى. ومهما حاول بكلمات وديعة ومناسبة أن

بالحرب كان مزاجها المتقلب ينحو نحو التوتر والصدود ورفع جدار  
العصمت الذي اعتادت أن يحميها من أي محاولة للاختراق.

لساءل غير مرة:

- هل يمكن أن أكون السبب دون أن أقصد في إصابة مخها بهذا  
المرض؟. هل تكون العلاقة المجففة سببًا في استدراج العلة، ووضع  
أسها على سكة العلة القاسية؟

تدفعه الأسئلة إلى أن يستعرض كتاب حياته معها باحثًا بدقة  
والخلاص عن بصماته في إيذاء نفسيته. في هياج عواطفها وثورة  
الفعالاتها.

- ربما كانت بعض تصرفاتي أوصلتها إلى حالة من الاكتئاب  
الكامن ولم تصرح، وتغلغل الشعور التعس في النفس الرقيقة فتحول  
الألم النفسي إلى ورم. إنها بالتأكيد تعلم أنني لم أشرب الخمر إلا بعد  
معرفتي بالمرض بشهور، وقد اعترفت لها بذلك. أعيش حالة لا تخفى  
عليها. أنا مطعون ومهموم وعاجز عن المساعدة خاصة مع مثل هذا  
المرض، أنا حائر ومكبل ومعذب وأكاد لا أرى. أمشي على سطح  
بركة من الوحل والدنيا ظلام. رأسي مثل بطيخة حامضة ومتعفنة.

لا يزال يذكر يومًا من الأيام القليلة التي تنزهها فيها معًا وقضيا أجمل  
الأوقات. في ذلك اليوم ذهبنا إلى الهرم وأصر على أن تتركب الجمل

وهو معها. ودار بهما الجمل حول الهرم والرجل القصير الأسمر يفر  
 المسيرة ويغني وبعد كل موال يتحدث إلى الجمل، وفجأة وبعد أن  
 بدأ موالاً جديداً إذا الجمل يثور ويقفز عاليًا فتعالت صرخات زينب  
 انطلق في الصحراء بعد أن انتزع الحبل من المنشد القصير، وأخذ  
 يجري بهما ثم ألقاهما عند حفرة بعيدة ورجع.. بقيا على الأرض شامتين  
 محطمين. ولما لاحظت زينب أنها لا تعاني من أشياء خطيرة أو تدعو  
 للرعب تساءلت عن سر ما جرى. مط مرسى شفثيه معبراً عن جهلها  
 بالسبب ثم ضحكت زينب فضحك. وقف مرسى ومد يده لزينب  
 ليعينها على الوقوف. تحاملت زينب على نفسها وهي تتوجع وتمسك  
 بظهرها وجنبيها ثم اعتدلت وبدأت تنفض عن ثوبها الأصفر الجمل  
 طبقات الرمال. وكذلك قبل مرسى ثم نظر إلى الحفرة فوجد لها عمقاً  
 جديداً وتكاد تبدو بلا نهاية وأعماقها مظلمة. شهق ولم ينطق بحرف  
 أشار لزينب لتشاهد ما شاهده. جاءت ونظرت إلى أعماق الحفرة  
 فأصابها رعب مع وقف التنفيذ. قالت وهي تضرب صدرها بكفها  
 اليمنى:

- يا نهار أسود.

ظلت تحديق وهي في غاية الدهشة، لم تستطع أن تمنع نفسها من  
 أن تقول:

- حكمتك يا رب. الجمل رمانا على شفا الحفرة.



شربت كفاً بكف ثم عادت تنظر.

- لم يتبق غير سنتيمترات وتنتهي حياتنا تمامًا. لن يسمعنا أحد  
ولن نستطيع طوال عمرنا الخروج. أنا في حالة ذهول. هناك ولا بد سر  
وراء هذا الهياج الذي أصاب الجمل.

- أبي هو الجمل.

- أبوك ليس الجمل هو اسمه فقط.

سكت وظل يؤكد لنفسه أن أباه هو الجمل. هناك لا بد هلاوس  
المناحه بين الحين والحين.

عادت تقول:

- ما العمل الآن؟ كيف سنعود؟

- بسيطة. سنسير على خطى الجمل.

ابتسمت زينب ساخرة:

- أي خطى يا مرسى؟! الجمل كان يجري دون انتظام ولا يتخذ  
طريقاً مستقيمة.

- أقصد أن نسير في الاتجاه ذاته الذي جئنا منه. حملنا الجمل إلى  
الجنوب وعلينا أن نأخذ الطريق إلى الشمال.

وأشار لها بأصبعه.. تلفتت حولها وتلفت.. كل الاتجاهات متشابهة.. السماء واحدة وممتدة في كل الآفاق، والرمال أيضا، لا طير هناك ولا نبات أو بشر.. الحيرة هي فقط الشجرة العالية الجرداء القريبة منهما.. فقدا القدرة على النطق لدقائق.. لكنهما سمعا ديبيا خلفهما فتحولا نحو الحفرة ولمحا عجوزا يخرج منها متكئا على عصا. تراجعت زينب وهي تقول:

- هذا يوم غير طبيعي.

خرج الرجل ببطء وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة. بدا هرما. وقف أمامهما وقال:

- السلام عليكم.

رد مرسي التحية وسألته زينب:

- هل تعيش يا عمي في هذه الحفرة العميقة؟

كان لا يزال يحاول التقاط أنفاسه. قال:

- ليس في آخرها ولكن هنا على بعد حوالي عشرين مترا.

- وحدك؟

- معي زوجتي.

كانت زينب هي التي تسأل.

- لكن المكان خطير. الظلام والحشرات وانعدام الطعام والشراب.

- المكان آمن والطعام متوافر والشراب، أما الحشرات فهي من الأهل.

- فكيف تقضي وقتك؟

- أمشي في نور الله.

- بغرض؟

- مطالعة الأحوال.

- ليس في الصحراء أحوال.

- أستم من الأحوال؟

أدهشتهما العبارة. رأت أن تسأله:

- هل عرفت ما جرى لنا؟

- يجري مثله للكثيرين.

- هنا؟

- في أي مكان.

- ليس غريبًا؟

- لا.

- شعرنا بالفزع الشديد والدهشة من سلوك الجمل الغريب.  
- هذه هي الحياة ومن لا يُعد نفسه لسلوك الجمل يتحمل العواقب.

علت جبال الحيرة. عجزت زينب عن الاستيعاب وسبقها مرسى إلى الحالة حتى نسيا ما كان يجب عليهما فعله. قال الشيخ:  
- اجلسا.

جلسا وجلس الشيخ بمعاونة عصاه. أخرج من تحت طاقيته ففعلها من الجلد، وقال لزينب:  
- هاتِ كفك.

مدت له كفها اللدن مثل سمكة بلطية وهي تبتسم. وضع ففعلها الجلد على كفها، لاحظت زينب أنها باردة، وتنتقل برودتها تدريجياً إلى كفها. حط العجوز كفه المعروقة على الجلدة ولاذ بالصمت ينصت. ثم قال:

- أيامك خضراء وبعد فترة هناك بحر مياهه سوداء ستسبحين فيه ثم تنتقلين إلى أيام خضراء ونهر عسل.  
رفع كفه وقال لمرسي:  
- هاتِ كفك.

قالت زينب:

- لم أفهم شيئاً مما قلت.

- ليس عندي غيره. أنا أقرأ المكتوب على الجلد.

مد مرسى كفه ووضع الشيخ جلده فوقها ثم قال:

- ستتزوج فتاة لم تولد بعد وهي ابنة عدوك.

ضحكت زينب حتى أوشكت على الوقوع على ظهرها، وضحك

مرسى وأوشك أن يقهقه ثم هب واقفاً. أخرج عشرة جنيهاً وقدمها

للرجل الذي قال وهو يعود إلى الحفرة:

- طريق السلامة.

أعاد مرسى الورقة النقدية إلى جيبه وانطلق يضحك. قالت له

زينب وهي لا تزال تضحك:

- لماذا لم تقل له إنك متزوج بالفعل وهذه زوجتي؟

ضحك مرسى وأمسك بزينب واحتضنها. ضمها إليه. قبلها طويلاً

ولم تمنع أن يقبلها مرات ومرات. كانت تريد أن تفتح باباً جديداً يطل

على حديقة الحياة رغم ما فيها من عثرات. خطر ببالها عدة مرات أن

ترد ما عليها لزوجها من حقوق، وألا تكون عرضة للومه أو عتاب

أهله بالتقصير، وبأنها السبب الأول بل الوحيد لما يشوب حياتهما من

العاسة قد تنتقل إلى الأبناء. حاولت بالفعل لكنها كانت لا تدري السر

في كل هذا الصدود من جانبها، وما السرف في شعورها الدائم بأنها تأكل من طعام بارد لا مذاق له.

دعاها كي يتناولوا الغداء في النادي الأهلي. ليس عضوًا فيه لكنه سأل عن صديق قديم يعمل محاسبًا في النادي. استقبلهما الصديق وأجلسهما على النيل حيث اختار لهما منضدة عليها مفرش فطاني أزرق مخطط بخيوط بيضاء تحت مظلة زرقاء تنتشر عليها نجوم بيضاء، وأصر أن يكون غداءهما على حسابه. قضيا وقتًا طيبًا كان أنيسهما النسيم العليل والزوارق العابرة تحمل أفواج العشاق وتبلغ آذانهما أغان جميلة وموسيقى شجية تعزف على أوتار عديدة لحالات عديدة من أحوال العشق والعشاق.

تمشيا معًا حتى برج القاهرة.. صعدا وشاهدا كل القاهرة تقربًا من أعلى. التقط لها صورًا كثيرة تتألق بابتساماتها ولفقاتها وخصلائها شعرها تتجمع مرة على هذا الجانب من وجهها المشرق وفي صورة أخرى تتكى على جانب آخر. راحة اليد مرة تحت الذقن المستديرة ومرة تحت الخد الأيمن ومرة خلف الرأس المتوجه نحو السماء. استعان مرسي بمن يلتقط لهما الصور. رأت المقطم والقلمية والأهرامات. رأت النيل وما عليه من جسور. انبهرت من مشهد القاهرة، كان نبيل حاضرًا بقوة. كان يلتقط لهما الصور وهو يشير لها على المشاهد والمعالم وصورًا له ووجهه إلى جانب وجهها..

سورة يحط ذراعه على كتفها وكان يحاول رفعها إلى سور البرج لكنها  
 صرخت. كان هو من أشار لها على مبنى وزارة الخارجية المواجه  
 للجسر العتيق، ومبنى جامعة الدول العربية وفندق سميراميس وشبرد  
 وهاتون ومبنى مجلس الثورة والمريديان والتليفزيون. كان نبيل هو  
 من قبلها فوق البرج.. وقال لها:

- هذه أعلى قبلة في مصر.

ولما مرّت طائرة فوق رأسيهما، قالت:

- انظر.. هناك قبلات أعلى.

قال باسماء:

- هذه قبلات طائرة.

قررت أن تستأذن نبيل في الانصراف.

عادا من نزهتهما التي نقرت خفيفاً على زجاج قلبها ولمست  
 السحابة بدرجة ما كنتيجة غير متوقعة ولا مقصودة لما في الجولة  
 المغالطة والتي افتقدت للترتيب، لكنها حفلت بقدر كاف مما يعلق  
 بالروح بسبب ما تعرضا له من خطر وطرافة.

\*\*\*

## 6

عندما تعانقت الفراشات تحت أشعة الصباح، ورقصت مع قطرات الندى، وحلقت أمام شباكي.. تسرب شعاع من أمل فقد تتسلل البهجة من بين الشقوق الكثيبة التي يتبادل حراستها العساكر وقسوة الأيام، لعلها تحوم فوق أفنية الكآبة تفتش في الوجوه عن وجهي إلى أن تجدني مرميًا على الشوك تتأوه بصدري فتات الأغنيات. كيف أمكن في هذا المكان الكتيب الذي يتعرض فيه الهواء للحصار أن تصدح أسمهان باسمي:

- ناجي وردك يا خولي واوعى يجرحك شوكة واعطف عليه ناجي.

أين وردني لأعطف عليه ولن أتخلى عنه لو مزق شوكة جسدي  
تبتسم البهجة لي وتبلغني رسالة منك تختزلها في قبلة.. لا ليست  
الرسالة مجرد ظنون ولا البهجة محض هلاوس. بل هي الحقيقة،  
حولي الآن ينبت النعناع والريحان والسوسن.



وفي أنفي رائحة فواحة لطيوب كثيرة، وترى عيناى شجيرات  
الفسح.

والنسمات العليلة تعبت بشعري الخفيف.

ماذا جرى للفناء المقفر؟!

امثلاً فجأة بالبنات الفاتنات يرفلن في الفساتين الملونة، وقد  
تفلس شعورهن في كعكات دائرية.. شرعن في الرقص.

ماذا جرى للفناء المقفر؟

قلت منى شجيرات صغيرة في مثل حجمي ودعتني للرقص.

هممت أن أستجيب. عندئذ مالت شجيرتان نحوي في فرح  
وهستا كما يهمس الندى:

- أبشر.. إنها قادمة.

ارتعشت. ارتبكت. التفت.

بحثت عن مرآة تهندمني، وتسوي حالة الفوضى.

دنت شجرة الياسمين وقالت:

- لا تخف. لن ترى بدنك ولا زيك.

لن ترى غير روحك ونظراتك، فتصرف على أن اليوم عيد.

مرت شهور ولم ينبت العيد على أطراف الحلم، وليس في الدنيا  
عيد بدونك.

فأين أنت؟. الأرض العجفاء لا تظهر عليها آثار أقدامك.

فردى عليّ نبض قلبي.

أرسلت قبل اليوم رسائل مع أخي ومع صديقي دميان الذي قال عفواً صحياً.

وهذه أولى رسائلي يحملها إليك خيرت شقيق زميلي شوكت وهما من أولاد الحاج رشوان صاحب سرجة الزيت المعروفة في الناصرية. خيرت بالمناسبة حمل إلينا كثيراً من الحلوى الطحينية لكنه حمل إلينا ما هو أجمل من الحلوى.. ظله خفيف. تصوري حكي لنا نكتاً ظريفة، بعد أن قال: أنتم لا تحتاجون إلى طعام بقدر ما تحتاجون إلى الضحك، قام سراج الدين وشمر عن ساعديه وهو يرمقنا بنظراته الحادة من عينيه السوداوين الواسعتين وقال: بل أنتم أحوج ما تكونون إلى الصلاة.

لم يهتم خيرت وانطلق يُسمعنا ونحن نتقلب على الأرض من الضحك.

بخيل حلم إنه يوزع فلوسه على الفقراء،

لما صحى قال أبقى عيل لو نمت ثاني...

اتنين مساطيل.. واحد سأل الثاني.

إنت أقرع ليه!!

قاله من الزمن ..

قاله بلاش تحلق عنده.

غبي راح يخطب واحدة ..

أبوها قاله: البنت لسه في المدرسة ...

قاله خلاص آجي بالليل ..

موبايل بيقول لشريحته انتي طالق .. قالتلو يخرّب بيتك .. ورسيدك  
اللي في بطني .

خروف بيقول لمعزة

باء. باء. باء. باء بحبك

فالمعزة قالتله

ماء. ماء. مخطوبة

عريس مسطول على الآخر في يوم فرحه ..

بعد المعازيم ما مشيوا دخل شقته لقي العروسة قاعدة ..

قال: والله أنا كنت عارف إنهم في الهيصه دي هينسوا حدا!

واحدة ماشية مع حبيبها بتقوله قولي كلمة تخلي قلبي يدق.. قالها  
أبوكي ماشي ورانا...

بارك الله فيك يا خيرت..

أخي قال لي إنه كلما مر بييت الأحبة وجده مغلقًا، فاضطر لتسلم  
الخطابات لأبيك حيث يقيم دائما على مقهى «ألف ليلة».

المعلومات عنك معدومة. لا يوجد موبايل ولا كمبيوتر. عندما  
عشرات السنين. لا أمل إلا في الكتابة على الحجر والجلد أو الصابون  
والقماش. فاخترني.. لو طلبت أن أكتب لك على صفحات عيونني  
لكتبت..

ناجيه

# 7

إنني أموت لأنني لا أموت.. إنني أموت في أحشاء الأفق  
المكبوت.

أنا في امتحان.. من منا لا يمر كل يوم بامتحان؟  
سَرَّبي لي من تحت الجدار قبلة أو موعدًا، أو فتفتوة أمل في  
اللقاء.

أو خصلة من شعرك تمد لي أجلي.  
شعرك دون مبالغة تاريخ وجغرافيا وكيمياء وفلك وفلسفة وطب  
وأحياء وجيولوجيا وأدب وفن.  
سَرَّبي لي من الشباك ضحكة أو نظرة قادرة على أن تغزل لي حضناً  
دافئاً وقويًا يؤرجحني بين البحور.  
أظنك طاهرة إلى الحد الذي يستجيب الله لدعائك فأصبح غير  
مرئي وتنتهي المحنة.

العصافير ترقص في الفضاء وقد حلت ضفائرها مثل زقزقة  
مرسومة على فستانك البمبي.. سألني أمس نور الصباح عن الوجد  
الذي يفيض به صوتي، ولا تلتقطه الجدران المتربصة.

قلت له إنه متوهم.. لا صوت هناك ولا وجد. إنه الحنين النازف  
من جرحي الواسع يقطر بأعماقي سحابات ذائبة ويتهجي حروف  
النهاية.

نم يزرنني أحد من الحركة منذ شهور. لعل المانع مظاهرات  
 واحتجاجات.

وأمل وليد في أن يتفجر ينبوع كعين قطرة يصبح مع الأيام نهرًا  
للتغيير الكاسح.

لن نياس. لأول مرة بدأت أشعر أن السجن نول ننسج فيه جدارية  
حقيقية للحرية. لم أكن أعلم أن السجن هو أهم مستشفى للولادة،  
لا تولد الحرية إلا فيه. البعض قد يظنني أهذي.

لا حرية إلا بالسجن.. كان العقاد يقول: القيد بوابة الحرية.

إذا لم تتح فرصة لك كي تكسري حاجز الغياب فاتصلي بعائلتي،  
سيبلغني أخي بكل ما تبوحين به. الأفضل أن تسلميه رسالة وأي  
ديوان لأمل دنقل وبابلو نيرودا وبول إيلوار وإيفتشنكو أو مظفر النواب  
والماغوط ودرويش وأي كتاب لنيثشة أو ماركيز أو بورخيس. إن  
الجريمة الأعظم في العالم ليست أن نحرق الكتب ولكن ألا نقرأها.

أحب جبران لكن لا داعي له الآن.

غفوت قليلاً ولأول مرة منذ ليالٍ. فلم يصدمني مشهد أيامي  
المشنوقة في حديد النافذة.. ولما صحوت رأيت حمامة تتهاوى من  
سماء عالية.

دمها خيط طويل يركض خلفها.. كانت ملامحها ملامحك.

والرصاصه الرفيعة المدببة تتعلق بخيط الدم.

المشهد رغم السقوط ثابت أمام شباكي الأعزل.

وعندما شرع المشهد في التحرك متجهًا للتلاشي، رأيت على بلاط  
الزنزانة الرمادي المتحجر.. يداً وبنديقية وقبعة، وطلقات رفيعة مدببة.  
وعيون زرقاء جاחظة، ودخان سيجارة ناعم معلق في الخلاء  
الرمادي.

وصوت صغير أسود يرسم دوائر.. تلتف حولي وتقيدني في  
الفضاء المتواطئ.

كان المساء متسللاً ينحدر ومتساقطاً فوق فلول النور.

عذراً فقد تجدد الخلاف واحتد بين عدد من زملاء الزنزانة حول  
أبيات من الشعر الصوفي الذي لا يتعاطف معه بعض ضيقي الأفق من  
المتدينين.. تقول الأبيات:

والله ما طلعت شمسٌ ولا  
 غربت إلا وحبك مقرون بأنفاسي  
 ولا خلوتٌ إلى قوم أحدثهم  
 إلا وأنت حديثي بين جلاسي  
 ولا ذكرتكَ محزوناً ولا فرحاً  
 إلا وأنت بقلبي بين وسواسي  
 ولا هممت بشرب الماء من عطش  
 إلا رأيتُ خيالاً منك في الكاس  
 ولو قدرتُ على الإتيان جئتكم  
 سعياً على الوجه أو مشياً على الراس  
 ويا فتى الحيّ إن غنيت لي طرباً فغنني  
 وأسفاً من قلبك القاسي  
 ما لي وللناس كم يلحونني سفهاً  
 ديني لنفسي ودين الناس للناس

\*\*\*



يا نسيم الروح قولي للرشا      لم يزدني الورد إلا عطشا  
 لي حبيب حبه وسط الحشا      إن يشا يمشي على خدي مشا  
 روحه روعي وروحي روحه      إن يشا شئت وإن شئت يشا  
 أراك قريباً في وطن الحب والحرية. تقبلي أشواقي وظماً قبلاتي،  
 أيها الحبيبة الأبدية.

ناجي الذي لا يجد من ينجيه

## 8

عشر حسين والد زينب على شقة جميلة في شارع السيوفية المتفرع من شيخون وعلى ناصيته سبيل أم عباس وهو تحفة معمارية بديعة متوقفة عن العمل كأشياء كثيرة، وطلب من الحاج صبحي والد نبيل قبول هديته للعروسين على أن تظل باسم ابنته زينب. وافق الحاج صبحي شاكرًا مكرمة الباشمهندس مؤكدًا على أنهم ينتمون جميعًا لعائلة واحدة.

حاول مرسي بعد سنوات قليلة من زواجه أن ينقل ملكية الشقة من زينب إليه دون علمها، وحاول مع موظفي الشهر العقاري عدة مرات لكنهم أصروا على ضرورة حضور المالكة الأصلية للعين. لجا لأسلوب ملتو لتنفيذ فكرته بعيدًا عن القانون بعرض رشوة مستعيبًا بأحد أصدقائه لأنه لا يملك الشجاعة الكافية للإقدام على هذه الخطوة وتحمل تبعاتها، لكن هدفه لم يتحقق لأنه اصطدم بالشرفاء.. لما علم أبوه بالأمر وبخه بشدة وحذره من تكرار المحاولة حتى لا يسيء للباشمهندس الذي أكرمه بشقة قريبة وجميلة كما أكرمه بزوجة طيبة، وختم بقوله:

- ركز في شغلك أحسن واهتم ببيتك وما تنفقه على العاطلين  
«الصبيح» في المقاهي أنفقه على جماعتك أفضل.

- زينب اشتكت لك.

- زينب الأصيلة لا تشتكي أبدًا.

تحرك مرسي مبتعدًا عن أبيه، وبعد خطوات ناداه أبوه مجددًا فعاد  
إليه ليسمع كلمات يختنق صدره كلما صكت أذنه:

- قلت لك ستين مرة حافظ على فروض الصلاة وخليك مع  
الله، فلماذا لا تستجيب يا بني؟! .. هل ستخسر لو صليت؟! .. رجل  
ملك له بيت وأسرة ووظيفة وشوارب لا بد أن يشكر نعمة ربنا عليه  
ولو شكره سينعم عليه أكثر ﴿لَيْنَ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ .. عيب  
عليك تضطرنني أكلمك في هذا الموضوع مرة أخرى. أصبحت أقلق  
على نفسي لأن ربي سيحاسبني.. ليس بيدي إلا أن أطلب لك من الله  
الهداية.

كانت وفاة الباشمهندس حسين مفاجئة للجميع فقد كان في صحة  
جيدة جدًا وكان ساهرًا ومعه شهدي يدا بيد حتى الواحدة صباحًا ليتمما  
لفصل محرك سيارة بعد أن أجريت له عمرة وتغير كل ما فيه.. كرنك  
وشميزات وبساتم وفلاتر وصبابات وخراطيم وضبط الكرييراتير  
وفسّل الراداتير ووصل كل الأطراف بالمركز، وكان معهما بيومي  
العسبي الذي أصبح مساعدًا رغم صغر سنه لأن مخه كله ميكانيكا،

وقد بقي في الورشة ومعه صبي أصغر منه وغاب آخرون لم يهتموا  
بالصناعة أو شغلتهم المدارس.

أثناء العمل من فوق وتحت السيارة كأنها مريض في غرفة العمليات  
كان شهدي يقول للمرة العاشرة لمساعدته:

- تطلب من أمك في الصباح تغيير اسمك.. سامع.

- سامع يا باشمهندس.

- ما عاد يسمي بيومي ومصيلحي وصميذة ومتولي.

- أنا اتولدت بعد أن مات أبي بشهر فأصرت أمي أن تسميني علي

اسمه.

- بدل فاقد يعني.

الباشمهندس حسين مشغول مع الموتور الذي يقاوم ويخبي أسرار

أوجاعه لكنه مع ذلك يتابع الحديث ويبتسم.

يستطرد شهدي.

- قل لها تسميك رامي. شادي. حازم. ثروت. نبيل.. ماشي.

- ماشي يا باشمهندس.

- ستكلمها أم أكلمها أنا؟

- سأكلمها أنا.

عندئذ ركب أبو شهدي البوجيهات القديمة ونسي أن صاحب السيارة اشترى حسب طلبه بوجيهات جديدة وبلاطين وكوندنسر. بعد لمطبات استغفر ربه على السهو، واعترف بينه وبين نفسه أن شهدي هو السبب.. همس لنفسه:

- الباشمهندس شهدي سيتسبب لنا في فضيحة لأنه مازال متعلقًا بأم بيومي.. يقول للولد.. ستكلمها أم أكلمها أنا؟

مع أول خيوط نور الصباح ونداه علا الصباح في بيت حسين الهاوي وولولت النسوة وتوافد الرجال بينما الدموع تسيل بلا توقف حزناً على الرحيل المفاجئ لهذا الرجل النادر الذي يتمتع بمزايا عديدة لا تجتمع في شخص فهو يتقن عمله ولا يغالي في أجره بل يقوم ببعض الخدمات الميكانيكية للسيارات دون أجر خاصة للغرباء، كما أنه حلو اللسان حسن الخلق يعرف الواجب والأصول ولا يرفع صوته ودائم الحرص على نظافة الورشة ونظافته. كريم. متسامح. تظهر نخوته ومروءته عند اللزوم.

لذلك لم يندهش أحد عندما وقعت العيون على الجنازة الحاشدة التي كانت تمتد من بيته في الصليبية بجوار ابن طولون حتى المقابر في الإمام الشافعي.. مسافة تتجاوز الكيلو ونصف الكيلو.. لم يندهش أحد عندما قال من كانوا يحملون الجثمان:

- كان خفيفاً جداً كأننا نحمل صندوقاً فارغاً.

وقال البعض الآخر:

- لقد كان يجرنا جرًا ويجري أمامنا.

وقال من غسلوا الجثمان:

- لم نر بقدر ما غسلنا من الجثث متوفيًا جميلًا ويكاد الدم يتفجر من وجهه وبدنه ولا ينقصه ليكون حيًا إلا أن تجري الدماء في عروقه، وكانت المفاجأة الأكبر هي وفاة الحاج صبحي يوم أربعين الباشمهندس.

وكان هو الآخر سليمًا ويعمل بيده في الورشة ومعرض الموبيليا بيده. ضرب الكثيرون كفاً بكف وذكروا الله كثيرًا تغمرهم الدهشة للارتباط الوثيق بين الرجلين في الدنيا والارتباط الذي قرب بينهما في موعد الرحيل، ومن غير المستبعد أن يجمعهما الله معًا في الجنة لما يميزهما عن خلق كثير بالأخلاق والكرم والمروءة والسمعة الطيبة. بعد عدة أشهر ولأن الطريق كان مسدودًا أمام مرسى لم يجد هذا من أن يشتري نوع الشيكولاتة التي تحبها زينب وأصر على أن تفتح العلبة أمامه وتتذوق طعمها وهي محشوة بالفستق والبندق وأن يسألها عن رأيها فيها فقالت:

- حلوة. سلمت يدك.

- ربنا يطول لنا في عمرك وتأكلين كل الشيكولاتة الموجودة في الدنيا.

نظرت إليه زينب ومضت تضحك دون صوت ولم تعلق بأية كلمة.. أحست أن الكلام غريب ومرسى ليس له في مثل هذا الكلام

العروق. وصلت إلى مرسى بطيء الفهم بعض السطور من الرسالة التي بعثت بها إليه دون أن تقصد. ضحكت وصمتت وهذا يعني أشياء كثيرة، وكان من المتوقع أن يكبح مرسى أفكاره ويقمع أهدافه خاصة بعد أن حمل له عقله المتواضع نفحة من نفحات الفهم. وكشفت عن أن الحمل البشري لا يظل في كل الأحوال حملاً، لن يصير ذئباً فجأة ولكنه قد يغدو حصاناً أو جملاً.

فتح مرسى بغير ترتيب أو صيغة خبيثة الحديث مع زينب طالباً منها أن تنقل إليه ملكية الشقة فنظرت إليه نظرة حادة احتاجت أن تفتح لها عينها لأقصاهما بما كشف عن مدى رعبها وتقززها في آن، ثم بصقت بعيداً عنه الشيكولاتة التي كانت بقمها. وصرخت تنادي ريم:

- يا ريم.. تعالي اغلقي الباب عليّ.

لم تستطع أن تمنع نفسها من أن تهمس بداخلها:

- اللي اختشوا ماتوا.

نهض مرسى وظل واقفاً لحظات منحني الرأس. راحة يده اليمنى خلف حول يده اليسرى وكلاهما يرتاحان على كرشه الصغير متخذاً وضع المصلي الخاشع أمام خالق الأكوان.. كان كمن ينتظر أن يشملته فرار العفو في آخر لحظة اعتماداً على سابق خبرة تؤكد له أن زينب طيبة.. لكن القرار لم يصدر وهكذا استدار واتجه ناحية الباب الذي جاءت ريم لتغلقه. نقل خطواته ببطء بسبب أثقال الخيبة التي كانت

فوق كتفيه وفي قلبه وبقاياها وذبولها مترامية خلفه وكان عليه أن يجرها معه حتى لا تبقى آثارها في البيت شاهدة عليه ومذكرة بما ناله من إهانة من زوجته. كانت الخيبة معلنة بشدة على ملامحه التي تلقت لكمة قوية يمكن أن تدفعه بعيداً عن البيت الذي يريد انتزاعه من صاحبه على حياة عينها.

حاولت زينب طرد مرسي من رأسها وكذلك أفكاره المتعفة التافهة، فتذكرت رغما عنها نبيل.. في حضوره كانت أول مرة تسمع فيها المثل الشعبي «اللي اختشوا ماتوا».. حاولت أن تتذكر المناسبة التي دفعته ليذكر المثل وقصته.. قال:

- كان المماليك الذين حكموا مصر منذ مئات السنين قد أنشأوا المستشفيات والمساجد والمدارس الكبيرة والمجهزة بكل ما يلزم، كما أنشأوا الحمامات الشعبية للرجال والنساء.. كانت النسوة يأتين في يوم معين لا يدخله الرجال مطلقاً.. ينتظر النسوة هذا اليوم بفارغ الصبر ليتخلصن من الملابس والقيود ويتسامرن ويغنين بينما العاملات المدربات يدلكن لهن أجسادهن العارية وتدلهن على ما خفي عنهن من الندوب والبثور والعروق الزرقاء وغيرها. كان حضورهن إلى الحمام نزهة لا تعادلها نزهة يستمتعن فيها بالحمام والثرثرة والفضفضة والحرية والنميمة والغناء والرقص والمكاشفة التي قد لا تحدها حدود خاصة ما يمس العلاقة الجنسية بين الزوجين وألعاب الغرام وأساليب المضاجعة.



ابتسمت زينب وأخفت وجهها وقالت:

- اختشي يا نبيل.

أسرع يقول وهو يضحك:

- اللي اختشوا ماتوا.

ضحكت زينب وقالت:

- أكمل يا عاشق الحمامات.

- الحريمي فقط.

- إخص عليك.. تحت السواهي دواهي.

- المهم يا ست البنات كانت النسوة يشعرن بسعادة بالغة بالجو العام الذي يؤنسه الدخان والمياه الساخنة فتتبعش الأبدان، وعندما ينتهي الحمام الذي قد يطول لنصف يوم يخرجن مسرورات شاعرات بالخفة والرشاقة والإقبال على الحياة.. وفي يوم من الأيام المخصصة للنساء شب حريق كبير وتعالن نيرانه كما تعالت الولولة والارتباك. النساء عاريات والدخان شامل والأرض زلقة والنيران تزداد. حارت كل النساء وتخبطن ماذا يفعلن.. هل عندك حل؟

- تسألني.

- طبعا.

- لو كنت لا قدر الله بينهن ماذا تفعلين؟

- أبحث عن بطانية مبتلة وأتف بها.
- النار ستبلغ الجميع ولن تحمي البطانية أحدًا.
- ماذا حدث يا نبيل.. خلص.
- انقسمت النساء إلى قسمين.. نساء قررن الخروج عاريات فلا بد من النجاة أولاً ويمكن التصرف بعد ذلك بأية صورة، وأخريات رفضن الخروج مهما حدث.. منعهم الحياء من أن يطلعوا على الناس عاريات بلا أي ساتر.

- فاحترقت كل من لم تخرج.
- ولذلك قيل اللي اختشوا ماتوا.
- قالت زينب وقد كبحت دموعها:
- هل يموت من كان مثل نبيل؟..
- تنهدت بعمق، ثم قالت وكأنها تلوم نفسها:
- أغلى منه وأهم مات.. سبحان من له الدوام.

حاول مرسى أن يتخلص من العار الذي يغطيه ويبلل روحه بماء كاوية. لكن العار كانت له رائحة ظل يشمها عدة أيام وكان عليه لكي يزيلها تمامًا أن يقنع نفسه كما اعتاد بأن زينب طيبة ومتسامحة، والأهم أنها لم تعد قابضة على الدنيا لأن المرض فكك أصابعها ورسخ في روعها أن الموت قادم لا محالة. هذا المرض بالذات لن يفلت صاحبه.

ولسبب به بصورة غريبة وكأنه نمر يقبض بأسنانه على غزالة طالت  
ملاحقتها وقد عزم على ألا يترك لها أدنى فرصة للتنفس، وعليه أن  
يختار بين أن يلتهمها ويملاً بطنه وينام هنيئاً أو تكون نهايته ولا ثالث.

ماتت السيدة الجميلة التي كان الأقارب وأهل الحي يشبهونها  
بالفنانة هدى سلطان في عز شبابها ومجدها. طول وعرض ووجه  
مضيء وملامح جذابة وعود رشيق وشعر حرير تتدفق أمواجه حتى  
الخصر ويغطي الظهر كله ويفيض على الأجانب. كيف لمثلها أن  
يموت وإن لم تعز على خالقها. ماتت بعد أن فقدت تقريباً كل شيء،  
وفي صدر ما فقدت للأسف شعرها الذي كان مصدر زهوها الأول إذا  
حاول أحد أن يقارن بينها وبين الأخريات، ويبادر من يسمعه قائلاً:

- شعرها وحده يكفي ليرفعها فوق كل الجميلات.

ما أن مر الأربعين على رحيلها حتى كان مرسى في الشهر العقاري  
والخدم بطلب لنقل ملكية الشقة من اسم زينب إلى اسمه وقد تصور  
أن كل العقبات زالت بوفاتها وأصبح الطريق معبداً. طلب الموظفون  
الذين يرأسهم أحمد الورداني والد ناجي أوراقاً أساسية لإجراء النقل.  
استشعر مرسى القوة والثقة مؤكداً لنفسه أن الورداني لن يجد أية حجة  
لإيقاف النقل. لقد صبر طويلاً على مماحكاته وبيروقراطيته الراسخة..  
قال لنفسه عدة مرات:

- لن أدفع له مليمًا وسوف أدس الأوراق في عينيه. ساعتها سيشعر بالحصار ولن ينطق بحرف، وورغمًا عنه سينقل الشقة إلي. أتخيل منظره الآن وهو يكاد يبكي من الغيظ بعد أن وقف لي بالمرصاد كالعمل الرديء محاولاً تعطيلها على مدى السنين. لماذا يتصرف معي أنا بالذات كأني عدوه؟.. موعدنا في الغد يا ورداني الكلب. أنا مكسوف بالنيابة عنك. يمكنك أن تفكر في الانتحار بعد أن تشطب عينيك الأوراق أيها اللص.

كان قد جهز شهادة الوفاة وعقد الملكية الذي باع بمقتضاه حسين البنهاوي الشقة لابنته زينب زوجته وقسيمة زواجهما وإعلام الوراثة. رفض الموظفون نقل الملكية لأنه فرد من الأفراد الذين يحق لهم المشاركة في الميراث، أي أن له نصيبًا ربما لا يتجاوز الربع، كما أن الشقة من حق البنتين ريم وسالي، بالإضافة إلى أن الشرع يحفظ أحقية أخوة زينب مثل شهدي وشامل وشريفة في الميراث ما لم يتنازلوا للبنتين.

كان مرسي واقفًا فجلس. اصفر وجهه وكاد يغشى عليه من هول المفاجأة وأراد أن يصرخ في الموظفين ويتهمهم بالرشوة، وأراد أن يبصق عليهم وأراد أن.. لكنه لم يتحرك. كان عاجزًا تمامًا وغير قادر على الحركة، لكنه رغم هذا عزم على أن يهجم على الورداني ويضربه.

- لأول مرة في حياتي أشعر أنني مستعد لضرب أحد ولو اقتضى  
 سجنني. لا بد أن أضربه بشدة وأحطم عظامه لأنه ضيع سنوات عمري  
 في رفض متواصل. لا بد أن وراءه من يدفعه لهذا وربما يدفع له..  
 لو فعت غير مرة أن ينقل إلى مكتب آخر بعيداً عن مكتب الحي أو يترقى  
 على لو صار وزيراً.. المهم يغور.. أبداً ظل في مواجهتي. إذا سرت  
 جهة اليمين واجهني وحال دون تحقيق هدفي فأتحرك جهة اليسار  
 والسدى لي ويوقف كل مصالحي.. فعلت كل شيء وهو لا يتحرك،  
 مصراً على أن أفضل تماماً ولم تنفعني ضده الظروف وقد وقفت جميعاً  
 معي حتى الموت. زرته عدة مرات كواسطة لبعض الأصدقاء كي ينهي  
 لهم أوراقهم التي تأكد من سلامتها فلم يستجب وأخرجني أمامهم  
 لاسي طلبت منه ألا يقفوا في الطابور.. كان دائماً جداراً صلباً وعالياً  
 وعريضاً لا يسمح بمرور ورقة أو تأشيرة أو أي ثقب أحصل منه على  
 بعض حقي.. يستحيل تركه. لقد وصلنا إلى نقطة اللاعودة واللاسلام  
 واللاصبر. هذا عدوي الأكبر والوحيد الذي يجب إزاحته من أمامي  
 واليوم قبل الغد.. كنت في كل عمري مهادناً ومجاملاً ومتنازلاً عن  
 أبسط حقوقني.. اليوم لن أترك حقي. لقد تغيرت. لم أتغير من نفسي  
 ولكن غيرني الشر والتآمر والنفوس الحاقدة. الآن فقط أيقنت أن  
 الورداني هو عدوي الوحيد وليس غيره. لكنني لن أتركه وقد حددت  
 طريقتي وهدفي.

بعد دقائق مضت كسنة تنهد ثم لملم أوراقه ونهض غير قادر على السير، يحس بتداعي جسده كأن ماء مغليًا صبوه على كومة قطن تحرك ببطء نحو الشارع. لما عبر الباب الرئيسي ورأى السيارات الكثيرة والمارة والحركة الثائرة في الطريق نسي تمامًا أين يذهب وفي أي طريق يمضي.

عندما وصل بيته وتمدد في فراشه متمنيًا أن يغطس في نوم القيلولة حتى يستعيد قدرته على التفكير.. تنهد وحاول أن يرفع عن قلبه الهم حتى يستطيع استدراج النوم الذي يقده ويحاول عليه كثيرًا في علاج الآلام والأوهام والأفكار الملعونة. تقلب كثيرًا على غير عادته ونفث هواء ساخنًا ومستاء. حاول أن يقنع نفسه بتفاهة ما جرى وأن عدوه الوحيد ليس أكثر من شخص متضخم ولا وزن له وهو مجرد بالونة يسهل تفرغها، وأن الموضوع كله لا يستحق أن ينشغل به طويلاً. أحس صعوبة في التقاط أنفاسه وكان صدره ضاق عن ذي قبل اضطر أن يدخن سيجارة ويدور في الغرفة ثم ما لبث أن ارتدى بذلته الكحلي التي كانت معلقة خارج الدولاب من أمس. ذهب إلى صديقه رمسيس الذي عاتبه على الغياب الطويل فاعترف له بأن حالته النفسية في الحضيض وأن ورداني الكلب يقف دائمًا في طريقه وآخر دلائل نذالته موضوع الشقة.. ابتسم رمسيس وهو يقدم له نصف زجاجة من «بلاك أند وايت».. رحب بها مرسي وأسرع بنفسه يحضر كوبين

صب لنفسه أولاً وتجرع كل ما في الكوب دفعة واحدة ثم صب كوبين  
ومد يده بكوب لمرسي الذي سأله مندهشاً:

- حارق دمك من أجل شقة شرك!.. ولما تنام على الرصيف  
ماذا يحدث للعالم؟.. ولما تنام في ورشة أبيك مع الأسرة والدواليب  
والعاليونات وغرف السفرة ماذا سيحدث لك أو للناس أو للحكومات  
العاشلة؟.. طظ ولا شيء.. أنت كل يوم تثبت لي أنك لا تعرف معنى  
الحياة.

- أنا أعرف معنى الحياة أكثر منك.

- ما معناها؟. قل لو شاطر.

- الحياة أن أعيش وأستمتع.

- جميل جداً.. لكن من الذي سيدفع الحساب؟

تجرع مرسي الكوب كله دفعة واحدة وقال:

- حساب .. أي حساب؟

- عرفت أنك لا تفهم معنى الحياة..

- ما علاقة الحياة بالحساب؟.. نحن لسنا في المقهى.. يبدو أنك

سكرت.

- ليست العبرة يا مرسي أن تعيش وتستمتع. المهم من سيدفع؟..

هل ستكون المتعة مخصصة من راحتك أو من حريتك أو من مالك

أو من مال الآخرين؟

أفضل لك أن تستمتع في حدود ما تملك بحيث لا يجور على مزاجك أو كرامتك أو حرمتك أو حقوق من يهتمك أمرهم.

- لا أفهم أي كلمة من كلامك.

سكت لحظات ومضي في غلالة من الشرود، ثم قال:

- أنا دائماً يا رمسيس أشعر أنني غير سعيد.. أنا دائماً حزين.

نفخ رمسيس ذرات الخشب التي تجمعت من كثرة حك المبرد في تمثال كبير لمحارب زنجي، ثم قال:

- أولاً أنت لا تنظر إلى السماء التي تمتد فوق قلبك.

- بدأنا في التخاريف.

- لا أظنك تذكر الله في ليل أو نهار.

أشاح مرسي بوجهه.

- ثانيًا اغرس في روحك أن الحزن لا يدوم وكذلك السعادة

لكن عمر السعادة أطول.

أشعل مرسي سيجارة وقال:

- كلما زرتك أجد درجة جنونك زائدة عما كانت عليه. يجب

أن يكون لديك جهاز لقياس درجة الجنون مثل أجهزة قياس السكر والضغط والحرارة. تابع حالتك يا رمسيس واكشف.

- قل لي أنت هل حزنك يبقى مدة أطول من السعادة؟



- قلت لك أنا لا أعرف شيئًا اسمه السعادة. فما هي يا عبقرى  
عصرك وأوانك؟

- الحد الأدنى للسعادة ألا تكون مهمومًا، والدرجة الأعلى قليلًا  
أن تكون راضيًا، أما الأعلى كثيرًا فهي أن تحاول تحقيق السعادة  
للآخرين.

- ولماذا أحاول أن أوفر السعادة للآخرين وأنا محروم منها؟

- لأنك عندما توفرها لغيرك ستأتيك راغمة حتى لو لم تطلبها.

تنهد مرسى وضرب كفًا على كف ثم قال وهو ينظر إلى رمسيس  
بإشفاق:

- مسكين.

قال رمسيس بهدوء وصفاء:

- لنشكر الرب.

شعر مرسى بالغيظ ومضى يتأمل السيجارة التي بين أصبعيه..  
لمحركت أعماق مشاعره نحوها كأنها روح العالم. ضم عليها شفتيه  
كأنها أنثى تبثه الغرام ويبثها. سحب نفسًا طويلًا ثم أنفاسًا متتالية  
وقصيرة محاولاً شحن رثتيه بأكثر كمية من النيكوتين، ثم دفنها بغير  
رحمة في المنفضة. شعر كأنه يطعن المنفضة بالسيجارة.. ساوره

إحساس عميق بأن في حياته الكثير من الأشياء التي يجب أن تظلم بقسوة. قال ببطء كأنه يحاول حفر ثقب كبير في رأس رمسيس:

- أنا أتعرض كثيرًا لطعنات الأصدقاء.. أو من كنت.. أعتقد... أنهم كذلك.

- هذه منح من الله كما أنك لا بد تعلم أن الضربات القوية تهشم الزجاج لكنها تصقل الحديد. فأنت بفضل المواقف المضادة تتعلم الحذر وتستفيد بالدروس وتراجع حساباتك وتدقق فيما يمكن أن تقدم عليه مستقبلًا. خلق الله الحياة كتجربة قد تفضي إلى الصواب وربما للخطأ، والخطأ يعلمنا أكثر.

تمدد مرسي على الكنبه بعد أن تجرع الباقي في الزجاجه.. نطق ببضع كلمات غير مرتبة ثم سقط في بحر النوم كما هو. ابتسم رمسيس وقال لمرسي الغائب:

- تحياتي للنوم وللنائمين. يريحون أنفسهم ويريحون العالم.

تشاءب رمسيس، ودهش لأن الرغبة في النوم تناوشه في وقت لم يعتد النوم فيه، ربما بسبب عنفوان النوم الذي ابتلع صديقه.

بعد نحو ساعة استيقظ مرسي شاعرًا بالنشاط كأنه نام ست ساعات. أحس أنه تأخر على أصدقائه في مقهى «ألف ليلة». لم يجد رمسيس في مكانه المعتاد أمام طاولة العمل المولع به. لم يكلف خاطره السؤال عنه في أي مكان بالشقة. شعر أنه تأخر كثيرًا على

صحبة الأنس في المقهى وهذا تقصير وخيانة للعهد. وانطلق إليها  
فقد اشتاق إليهم. قال الجميع:

- الرئيس وصل.

قال عبد الودود:

- ناموسيتك كحلي.

ضحك الجميع.

طلب مرسي شايًا وحجرًا وسأل عن زعبولة ماسح الأحذية.  
ظهر له بسرعة زعبولة. سحب من قدميه فردتي الحذاء وابتعد. سأله  
القريبون منه:

- طلبت من زعبولة يلمع لك الحذاء.. حصل حاجة كفى الله  
الشر.

ضحك الجميع وسرعان ما قال مرزوق:

- أصل اليوم عيد ظهوره.

ظهر طقطق، وقال له الجميع:

- لا داعي للجلوس.. قل لنا آخر نكتة.

- آخذ نفسي وأقول لكم عشرًا.

- خذ نفسك خمس دقائق فقط.

- من سيدفع حساب المشروب؟

قال مرسي:

- أنا.

قال طقطق:

- خد عندك.

واحد كتب في ورقة الامتحان (صمتي لا يعني جهلي ولكن ما يدور حولي لا يستحق الكلام) لما أخذ الشهادة كان مكتوبًا فيها (رسوبك لا يعني فشلك ولكن خفة دمك هيه اللي مودياك في داهية).

ضحك البعض ولم يضحك آخرون وتأخر غيرهم حتى استوعب.

- واحد شاف واحدة حلوة أوي.. مفيهاش غلطة.

قالها: على فكرة إنتي ربنا اداكي كل حاجة ما عدا حاجة واحدة

قالت له: إيه؟

قالها: رقم موبايلي.

- واحد قاعد مع خطيبته النور قطع قالتله خد فرصتك.....

سرق شنطتها وجري.

- إيه هيه قمة الهبل؟

إنك تزغزغ واحد ميت.

طلب إليه قمة الرعب؟

إله يضحك.

\*\*\*

- عائلة كسولة جدًا جدًا.

الزوج وهو قاعد راح متاوب.. مراته قالت له:

بالمرة وأنت فاتح بقك اشخط في العيال.

- واحد غبي نايم جنب مراته قالت له: بردانة.

قالها: اتغطي كويس.

قالت له: ياراجل لسه بردانة.

قالها: اتغطي كويس أوي.

قالتله: يا راجل بقولك بردانة.

قالها: اتغطي كويس أوي أوي.

قالتله أنا لما كنت عند ماما كنت أقولها بردانة كانت بتحضني.

قالها: ده اللي ناقص أجيب أمك تنام في وسطينا.

\*\*\*

- حشاش اشترى لأمه عصفورين؛ واحد بيغني والثاني ساكت.

سألته أمه: ليه الثاني ساكت؟

قال لها: ده الملحن.

- واحد سوداني محشش سألوه عن جنسيته قال لبناني غامق،  
مد يده طقطع إلى الزجاجه وتجرعها دفعة واحدة.. قال له  
مرزوق:

- باقي واحدة يا طقطع، فقال كأنه آلة جاهزة لإنتاج النكت في  
أية لحظة.

- زوجة نكدية قالت لزوجها: لا بد أن تذبح خروفا في عيد زواجنا،  
قال لها: ليه يدفع الخروف حياته ثمنا لغلطة حمار.

\*\*\*

بعد عودة مرسى من المقهى نحو الساعة الواحدة بعد منتصف  
الليل. دخل المطبخ وتناول ثمرة كمثرى ونصف رغيف بالجبنة  
ووضع ملعقة عسل في علبة زبادي.. التهمها على عجل.

لم يجد به رغبة في النوم فأشعل سيجارة وجلس في البلكونة،  
كان الهواء صافيا تشوبه لمسة برد لطيفة تشجع على السهر والتأمل،  
جلس مرسى على كرسي بامبو ومد ساقيه على كرسي آخر. سحب  
نفسا طويلا من السيجارة وقال:

ما أجمل أن يختفي البشر تقريبًا من الشوارع وتقل حركة السيارات!

بسرعة غريبة حضر الورداني بهيكله وابتسامته المرعبة.. رفع قدمي مرسى من فوق الكرسي البامبو وألقاهما على الأرض وجلس في مواجهته، ثم مد يده بحركة مفاجئة واختطف الباقي من السيجارة ودسها في فمه ومضى يدخن بينما النار تشتعل في روح صاحب المكان. قال الورداني:

أنا بحاجة ماسة لكوب من الشاي مع هذه السيجارة وثلاث غيرها.

ابتسم مرسي بغيظ وسخرية وقال:

طول عمري الذي اقترب من خمسة وخمسين عامًا لم يكن لي أعداء.

إلا واحدًا

- أنا ولا فخر.

- نعم أنت.

- وأنا تحت أمرك. لن أتخلي عنك أبدًا ما حييت ولن تجد مني إلا كل ما يرضيك.. ربنا أرسلني إليك هدية ومصالحتك عندي وأنت لا تدرك فائدتي لك.

قبل أن يهجم مرسي عليه بسبب شحنة الغضب التي احتشد بها صدره وعقله كان قد اختفى. أخرج مرسي من علبة سجائره سيجارة وحاول أن يدسها في فمه فسقطت الأخرى التي تخيل أن الورداني اختطفها ودخنها. أخذ يعيد تقييم كلمات الرجل الذي أفسد حياته خاصة اليوم بطوله. طال حديث النفس وتفرع. ارتحل إلى أماكن وأزمنة عدة ومواقف كثيرة، إلى أن هب واقفاً فجأة كمن جلس على كرسي من اللهب ولم يشعر به في البداية.

- قال عرف الهرم عندما أوقعنا الجمل أنا وزينب بالقرب منه قبل عشرين عامًا ويزيد. سوف تتزوج ابنة عدوك الوحيد.

انتفض جسده وارتعد. تلبسته هزة غريبة. جلس لحظات ثم هب واقفاً.. رمى السيجارة وأشعل غيرها.

- لناجي ابن الورداني أخت جميلة ولم تتزوج بعد.. لا أذكر اسمها لكنها أصغر من ريم.. قال الحكيم يومها إنها لم تولد بعد.

دون أن يقصد أو يحس ضرب قبضته في سور البلكونة القريب منه. قام فأعد كوباً من الشاي وظل في البلكونة حتى الصباح. شاي وسجائر وتفكير. شاي وسجائر وتفكير وحيرة وذهول.

- كذب المنجمون ولو صدقوا. أو كذب المنجمون ولو صدقوا.

عادت تلبسه الرعدة كأنه مصاب بحمى إفريقية رهيبه بسبب ذبابة

التسي تسي..



- ما الذي يحدث بالضبط في الدنيا؟ .. هل كشف الله بعض غيبه  
 لعدد من الناس؟ .. ما طبيعتهم ولماذا هم وليس غيرهم؟ .. ولماذا  
 الحيز؟ .. كشف العراف لزينب عن أرض خضراء ثم بحر أسود  
 وبعدها أرض خضراء وثمر .. كلام غامض وغير مفهوم. على أية حال  
 ليست أرض زينب الخضراء والحمراء هي موضوعنا الآن فقد رحلت  
 وأغلقت دونها الأبواب .. لقد قال هذا الجني:

- ستتزوج فتاة لم تولد بعد وهي ابنة عدوك الوحيد. فهل مقدر  
 أن أتزوج ابنة الورداني؟ .. ليست عندي مشكلة لكن هل يرضى أبوها  
 وأنا أكبرها بثلاثين عاما على الأقل؟ .. لا .. لا .. المسألة ليست بهذه  
 البساطة. هناك سر بل أسرار. تكاد رأسي تحترق.

\*\*\*

# 9

لبيك يا حاضرة وغائبة.

لبيك يا راضية وغاضبة.

لبيك يا نبتة مزروعة في المسافة بين الحياة والموت.

بين الوجود والعدم.. بين اليأس والأمل.

بين حشاي والجنة.. بين صمتي الذي تفحم وقلبي المتيم.

ما أبعدك!

ما أقربك!

سؤال يومي تصنعه الحيرة.. سؤال تسيل من جفونه دموع الدم.

سؤال يجر عشرات الأسئلة الصغيرة التي ترتدي أزياء السواد.

أسئلة تثقب قلبي الذي تعفن.

وبات مثل كرة رغوية تتفاقم.

تندحرج في مساحات روعي القاحلة..

أسئلة ذات عيون من نار..

هل أنت على قيد الحياة؟.. هل لا زالت لك صورة بشرية؟

تأكلين وتشربين.. تنامين وتحلمين وتفكرين..

هل لا تزال لديك كافة قواك العقلية؟

هل صورتني التي رأيتها مرة في حافظتك الصغيرة لا تزال في

موضعها ملفوفة بجلد التمساح الإفريقي.. أم سرقها الأعداء؟

أم اضطررت للتخلص منها تحت ضغط الضباط أو الأهل

والخطاب؟

إذا كانت الإجابة بالنفي فلماذا لم.. لماذا لم.....

بعد مئات النقاط المجهولة لا جواب.

مثل عشرات الشهور الفاتية.

تصوري أن من الأمور التي تسبب لي التعاسة غياب النوم..

والنوم نعمة خرافية.. أظنك مثلي تحبين النوم..

وقلت إنه راحة للعيون والجسد والعقل..

وقلت إنه غذاء ومصدر مهم للأحلام..

يضايقني أن النوم متقطع والكوابيس تصول وتجول في ساعاته

القليلة أنى تشاء..

إذا أراد الله لي انقشاع الغمة فسوف أنام نومًا متصلًا لعدة أسابيع  
لا.. لن أستطيع ولن أقبل هذا.. النوم تعطيل للطاقة وتبديد  
للوقت..

وأنا أريد أن أعوض ما فاتني وهو كثير..

الشعر يناديني والمسرح والحب والزواج والسفر..

عذرًا فقد وصل رءوف والشرر يتطاير من عينيه وأنفه.. أستبرأ

ستار..

الراسل / ناجي..

القاعد باستقرار على جمر النار

# 10

اسمك يا ريم كان العرب يطلقونه قديمًا على الظبي اليافع شديد  
البياض..

وأطلقوه أيضا على نجم في السماء..

فأيهما أنت؟

أظن أن التسمية بمعنيها تطلق عليك.

بالأمس حلمت أن عرّافا طلبت إليه أن يدلني عليك.

بعد أن ضل سعبي وفكري في الحياة ووهن عظمي وأنا أبحث  
عنك.

قال: إنك تقيمين على قمة جبل اسمه ريم.

سألته: أين يقع؟

قال: قريب موقعه والوصول يسير.

قلت: صف لي أرجوك.

قال: عليك أن تسافر مشيًا لمسافة ألف كيلو في اتجاه الشرق الغربي.

ومثلها في اتجاه الشمال الجنوبي.

فكرت طويلاً وأنا لا زلت في الحلم في اتجاهات المسير، فأيقنت بالالتباس والضياع. التفت إلى العراف أسأله التفسير.. كان قد اختفى.

رغم ذلك سرت وسرت وفوجئت بأني وصلت.

وجدتك هناك في انتظاري، لكنك مقعدة.

نصفك الأعلى فقط هو المزروع كالعلم فوق قمة الجبل.

تحيط بك بعض الصبّارات، بينها نقاط من دم على شكل ورود.

روّعني شعرك الأبيض.

جلست إلى جوارك وحدثت فيك.. علت وجهك ابتسامة شاحبة

ومسحة من غموض شارد.

ناداني خدك ودعاني للمس.

لما لمستك، أحسست رعدة تسري في بدني كأن كهرباء صعقتني.

صحوت على صوت رءوف يصرخ في العنبر قاصداً هدمه.

ثم بدأ ينطح السقف فنقفز جميعاً من الأسرة المتراحة في قفص

العنبر..

نسرع كالدجاج ونتخبط وقد بدت واضحة ضآلتنا.

وهو شامخ مثل جاليفر في بلاد الأقزام.

كان علينا خلال دقائق أن نخطف أو انينا الصدئة لاستلام طعام الكلاب.

الذي نقبل عليه ونحتفل بابتلاعه دون أدنى ذائقة.

هل تدرين يا ريم لماذا خلق الله الأبرياء؟

لا أظنك تعرفين الإجابة مثل بعض المساجين.

لكن أرسخهم إجرامًا قال:

لكي يستطيع البشر التعرف على الذئاب.

قال كافكا:

«ابق مكانك رغم كل شيء ودع السهام الفولاذية تخترق جسدك، واسمح للأفكار الكبرى أن تغمرك، وانتظر واقفًا مثل الأشجار، فلا بد أن تصب الشمس عليك أشعتها وتضيء لك الطريق نحو ما ترجوه».

شكرًا يا فرانز فكللماتك جاءتني في الوقت المناسب قبل أن يفرقني مستنقع الأفكار البائسة.

قد لا أستطيع يا فرانز أن أقف مثل الأشجار، لكنني من وحي كلامك بدأت أشعر بأن لكل موقف في الحياة جانبًا مجهولًا. كل شيء له وجهان على الأقل متعارضان في الأغلب، وقد اعتدنا التسليم

لوجه المباشر، الوجه الذي يطلع علينا بكل ملامحه ولا نبحت عن  
الوجه المختفي، الذي تكمن فيه عادة جماليات الحياة.. ليس العالم  
هو ما يطلع علينا فقط بل الأجل ما لم نكتشفه. ومن يرضى فقط بما  
ترميه به الدنيا على أساس أن هذا فقط هو الممكن والمتاح والمفروض  
سوف يكون نصيبه من التعاسة كبيراً وممتداً.

السر الأهم في الحياة هو الخيال الذي يدفعنا إلى اكتشاف العالم  
وبدونه نحن مخلوقات بلا مستقبل. لذلك عليّ أن أبحث عبر قيودي  
وقضبان السجن عما وراءها من وجوه أخرى محفزة للتفكير بصورة  
جديدة تحفر لي نوافذ في الجبال الصلدة والأنفاق المظلمة نحو النور  
والأمل. عليّ أن أنظر من جديد إلى تلك التجربة التي يجب أن تكون  
عابرة مثل قوس قزح.

كان علي وجهي الندي يا ريم قبل أن يجرنني العسكر ويطعنوا  
الضوء الذي أرسلته في أعقابي.

ارتبك العالم عندما نبتت بقلبه وردة لأنه لا يجيد غير القرصنة  
بينما يرتدي أقنعة الحمائم.. ليس ثمة قواعد للعبة، وأنا طفل تتبعني  
الحدائق، لا أعرف إلا شمعة مصلوبة بقلب الليل على إفريز نافذتك.  
فابق الباب مفتوحاً ربما أعود مع المساء العجوز، حاملاً سلة بها شال  
من الموسيقى وقمرًا والخوخ الذي تحبينه والآيس كريم وعقدًا من



الجهوم البحرية وزجاجة فارغة تشبهني لتملأها بعطرك إذا نامت ليلة واحدة قريبة من دفء أنفاسك.

هل تذكرين من الذي قال: يجب أن نوفر لكل إنسان نصيبه من الكبر ونصيبه من الكرامة والشعر. أظنه تروتسكي.

الفجر اقترب. فجر السماء.. فمتى يقترب فجر الأرض؟

علا صوت سراج الدين بتلاوة القرآن نهضت وتوضأت وصليت ركعتين لكنني كنت أفكر فيك.

رامي ورمزي وحمزة ونصر وسلطان ومنتصر وأكثر سكان العنبر يميلون إلى مقاومة الأيام المرة بلعب الكوتشينية والضامة أو السبيجة ويلعبون «الرست» بالأذرع مقابل السجائر.

لكنني أفكر فيك وأرسمك وأكتب اسمك على كل أجزاء روعي أما سراج فهو في سفر دائم يغالب الأيام والقهر بالصلاة والقرآن، سألته:

- أعاني من مشكلة يا سراج.

- لا توجد مشكلة إلا الغفلة.

- هذا ما أعنيه.

- ضع أقدامك على الطريق وثبتها وبالعادة تنسحب الغفلة.

تعجبني إرادته وصلابته وثقته بالله. والمسائل كلها محسومة وإن كانت في نطاق ضيق.. العالم كله محصور في العبادة.

- أنت ترى أن العبادة كل شيء.

- قال سبحانه «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون».

- ماذا تعني العبادة؟

- العبادة.

تنهدت ثم قلت: العمل عبادة والكفاح ومساعدة المحتاج والتأمل والاختراع عبادة.

قال: نعم.

مضيت: القراءة عبادة والصدقة والنزهة والحب والمنافسة الشريفة.

قاطعني: أي حب؟

- كل الحب.. من الله إلى النملة.

- الله فقط.

- الله يتجلى في خلقه.. في أضعف خلقه.

- المهم ألا يكون الحب مجافياً للأخلاق.. كل شيء يرضي الله مرغوب.

- الكون صنع من الحب.

هز رأسه ومط شفثيه.

- لا أعترف بهذا الكلام.
- مازلت أرى أنك على صواب لولا ثقب الأبرة الذي تنظر منه.
- بل أرى الكون بلا حدود.
- أتحدث عن تفكيرك، وأنت في ظني أفضل من كثيرين الذين يغلبهم الشكليات والمسائل التافهة.
- تقصد المسائل البسيطة قليلة الأهمية.
- نعم.
- كل كبير تأسس على صغير.. العالم مكون من ذرات رمال أو تراب فالتراب ليس تافهًا.
- يا سراج.
- عذرًا.. هيا إلى الصلاة.. الفجر اقترب.
- أي فجر؟
- سامحيني يا ريم.. أزعجتك لكني أحب سراج جدًّا.

ناجي

في مقهى النيل بشارع السد المجاور لمسجد السيدة زينب جلس مرسى مع أحد زملائه في المحافظة. الرجل كان نحيلًا جدًا وشعره كتلة قطنية هائشة كأنها فروع خروف أسف خطفها رجل أقرع ولصفها برأسه ليواري بها سورة الصلح الذي لم يعرف الشعر يومًا. كان يدخن بشراهة ويكاد يعتصر السيجارة وهو يسحب منها النفس الطويل ويختفي خداه بين العظمتين ليتحولاً إلى تجويفين كبيرين وعينين واسعتين وفم يقبض على السيجارة بتركيز بالغ وبقايا أنف ولولا الأذنان الكبيران والشعر القطني لكان الرأس جمجمة خرجت حديثاً من القبر ويحملها كتفان. الرجل يتحدث بحماس:

- لم يعد أمامنا إلا أن نتجمع ونحاول مقابلة المحافظ شخصياً ونعرض عليه الموضوع أو على الأقل نسلمه شكوى جماعية. لم يكن مرسى ينظر إلى محدثه وإنما ينظر إلى المارة خاصة النساء ويطلق لخياله العنان:

هذه لا بد مطلقة وهذه تبحث عن زوج، وتلك الجميلة تعاني  
من زوج ابن كلب يصبحها بعلقة ويمسيها بعلقة. هذه تلعب بذيلها  
ولا يمكن لرجل أن يعرف رأسه من رجليه معها. هذه أنهكها الأولاد.  
الغامة من بعيد كالمحمل خرجت فقط لاستعراض لحمها وشبابها  
والذهب الذي تزين به صدرها وساعديها وأذنيها وأصابعها. امرأة  
عارفة في العز. يبدو أن زوجها جزار أو صاحب مسمط.

لم تكف أنف مرسى وهي أقوى حواسه عن العمل. مضى  
بشم عشرات الروائح. يميز بين العطور والأطعمة التي تصدر عن  
المحلات ويستطيع أن يميز بين روائح الأجساد والعرق والفواكه  
والخضراوات بل وروث الماشية التي تتأهب للذبح بسكين المعلم  
حميس البغل صاحب جزارة البغل وأولاده. ها هو أمامه ممسك  
بالبساطور الذي يرفعه عاليًا ويهبط به مدججًا بكل عافيته على عظام  
الجاموس والبقر.

- ربنا يحفظنا.

يدفع مرسى الذباب ويدخن ويمر بكفه على ذقنه وشعره. يستمع  
إلى الباعة أكثر مما يستمع إلى حامل الجمجمة وكرة الشعر الأبيض  
المنفوش.. ملامح مرسى وزوغان عينيه وتبديل ساقيه ليركب أحدهما  
الأخر دقائق ثم ينزل ليركب الآخر تجعله للمتابع كمن يجلس وحده  
في انتظار شخص ما طال غيابه. حالته تدل على أنه في عالم آخر.  
الرجل قال له خمس مرات:

- والعمل يا أستاذ مرسي؟

- العمل عمل ربنا يا تحتمس.

يتنهد تحتمس فرط الرمان ويقول:

- كل شيء من تدبير ربنا لكن ماذا علينا أن نفعل؟

- بخصوص؟

صرخ تحتمس بصوت مكتوم مراعاة للمناسبة والدرجة الوظيفية التي يشغلها مرسي:

- يا أستاذ مرسي قلت لك عشر مرات أن زملاءنا الموظفين يعانون من عدم الإنصاف في الحوافز والمكافآت. ومضى زمن طويل وهم على الحال نفسه. الناس ضجت.

لحسن الحظ كان مرسي في لحظة تركيز عابرة، فوصلته الرسالة ومع ذلك قال بحيادية تنطوي على غير اهتمام:

- لم ألاحظ أن هناك فرقاً بين الموظفين أما المكافآت فتمنحها الإدارة حسب الكفاءة والجهد.

لا تعرف كيف كبرت فجأة الكتلة القطنية وطالت الرقبة وازدادت نحولاً وانطلقت أصابع تحتمس في الفضاء تشرح وهي ممسكة بالسيجارة العاشرة:

- يا أستاذ مرسى أنت تعلم أن قلة من الموظفين في مكتب واحد  
واللهسى كل منهم حوافز تصل إلى ألف جنيه شهريًا والآخرون يحصل  
كل منهم في أحسن الحالات على مائة وخمسين جنيهًا.. هل يرضى  
بها هذا؟.. هل بدمتك يرضى الأمم المتحدة أم أمريكا.. إحسبها أنت..  
ال موظف يعول عشرة. لو اشترى لهم «حشيش» فقط للفظور..

النفص مرسى واضطرب ثم اندفع يضحك بكل ما فيه. يضحك  
ويديق الطاولة بكفه ويخبط يده في جبهته، ثم يخبط ركبته ويضرب  
الأرض بقدمه والحذاء نفسه كان يضحك في إيقاع واحد مع أمعاء  
مرسى وكليته وكبده والقولون، وفرط الرمان مذهول لما جرى لمرسى  
والنسى وجهه بملامح غاضبة ومرتفعة توشك على كشف نية قطع  
العلاقات وإنهاء اللقاء، لكنه فيما يبدو تماسك وآثر الإبقاء على شعرة  
معاوية لعل وعسى تكون هناك مساعدة جدية من مرسى المعروف  
بصلته بالمستولين. سأله وهو في غاية العجب:

- ما بك يا أستاذ مرسى؟

فلل مرسى يضحك وقد فقد السيطرة على كل جزء فيه.. ورغم  
ذلك أدرك أنه ربما أهان فرط، فقال متعجبًا وهو يحاول تخفيف كريمة  
الضحك:

- العاملون يا فرط يطعمون أولادهم الحشيش؟!!

- ماذا تقول يا أستاذ مرسى؟

- أنت قلت هذا.

- مستحيل.. أنا قلت لو كل عامل اشترى «عيش» فقط للفقير ولم أكمل.

- بل قلت حشيش.

- عيش.

- حشيش.

- جل من لا يسهو يا سيدي.

- الخلاصة.

- كل الموظفين أكدوا أن الشكوى لا قيمة لها دون توقيعك واشترائك معنا في لقاء المحافظ. كبار المسئولين يعملون حسابك لك.

ارتبك مرسي، وأخذ يبحث عن كلمات تساعد في الهروب، حتى اكتشف أنه لم يطلب مشروبًا لتحتمس. فصفق ينادي ددق.

- ماذا تطلب يا تحتمس؟

- قرفة.

حضر ددق السفروت خفيف الظل. طلب منه مرسي قرفة. وسأله

ددق:



- وحضرتك يا سيد الناس .

- شربت .

- تشرب مرة ثانية .

- إذا كان على حسابك هات سحلب .

أشعل مرسي سيجارة خامسة وأخذ نفسًا طويلًا يكفي لتشتيت

لحتمس .

- لم تقل لي ما رأيك؟

أخذ مرسي نفسًا أطول من سابقه ثم بثه في فضاء شارع السد

المسيح وهويهمس لنفسه:

- مفروض يسمونه تحتمس اللاصق.. أو يسمونه الخفاش، فله

لكله وطريقته .

عاد مرسي يضحك.. ضحكًا هستيريًا كالذي حدث له منذ قليل .

لحتمس تأكد أن الرجل جُنَّ.. الغريبة أن مرسي كان قد وصل إلى درجة

لا مزيد عليها من الضيق والسخط، ويتمنى أن يأتي عزرائيل بسرعة

ويشرك كل ما في يده ويأخذ تحتمس ورمسيس وأحمس وأمنحتب

وكل الفراعين الآن.. لكنه فجأة تحول إلى الضحك المريب.. مضى

بضحك وينشال وينحط بينما يحدق في وجه تحتمس.. والسبب هو

إعجابيه بوصفه لتحتمس على أنه خفاش.. بدا كذلك بالفعل.. لو حدق

القارئ جيدًا في ملامح تحتمس سيتأكد أنه كان خفاشًا يومًا ما .

- ما بك يا أستاذ؟

- تذكرت فجأة أن دارون قال إن أصل الإنسان قرد وأنا أرى أن أصل الإنسان خفاش.

وانطلق يضحك، بينما تزداد دهشة تحتمس وإشفاقه على مرسى يقول في نفسه:

- لم يكن مرسى يوماً بهذه الصورة الكوميديّة.. ماذا جرى له؟

كمن خرج من تحت الطاولة ظهر دق دق ووضع القرفة أمام تحتمس والسحلب أمام مرسى.

كان مرسى لا زال يحاول إيقاف الضحك، فقال لدق دق وهو يبذل جهداً لكبح الضحك الذي بدأ في التراجع لكن كرش مرسى الصغير لا يزال يرتج:

- لا تنس يا دق دق أن السحلب على حسابك.

- فداك كل المقهى يا أستاذ.

- بالمرّة هات شيشة.

قال تحتمس:

- لم تقل رأيك يا أستاذ.

أخذ مرسى نفساً من السيجارة التي أوشكت على الانتهاء، واعتدل في الكرسي ووضع ساقاً على ساق، وقال بعد أن كح وتنحنح وسلك صوته:

- الموضوع في رأيي يستحق الاهتمام على الأقل من الناحية العلمية، وهذا يعني أنه كلام معقول، ويمثل قضية جديرة بالدراسة.

لاول مرة منذ جلسا في شارع السد، يتهلل وجه تحتمس ويبدو عليه الانشراح والتأهب لاستقبال ما يشجع. قال:

- جميل.. ما العمل إذن بعد أن قلت ما قلته؟

- واضح يا تحتمس أنك مشغول بمسائل أخرى.

فتح تحتمس عينيه على اتساعهما.

- مسائل أخرى!

- أنت لم تسمعني.. قلت لك رأيي الذي لا يقبل الطعن ولا التشكيك.

تلقت تحتمس حواليه، وتساءل مندهشًا كأن مرسى يتهمه بسرقة حاتم ذهبي كان على الطاولة:

- أي رأي يا أستاذ مرسى. وما الطعن والتشكيك؟!.. ماذا حدث؟..

كن صريحًا معي.. هل أخبرك أحد بأمر لا تريد الكشف عنه؟

لام نفسه لأنه لم يتنبه لمستوى تفكير تحتمس المحدود.

- لم تفهمني يا صديقي وتحتاج إلى مشروب آخر.

- لا أريد مشروبًا. لا أريد إلا أن أفهم. نحن هنا منذ ساعة وما زلت

أجري وراء كلامك الذي يشبه السراب.

- قلت لك.. ما تحدثت فيه مسألة صحيحة من الناحية النظرية  
وتحتاج إلى دراسة حتى تتحول إلى عمل وحركة ومواجهة.

بدت الحيرة مجددًا على وجه تحتمس الذي تتبدل ملامحه كل  
دقيقة.

- يعني أنت موافق على أن تذهب معنا لمقابلة المحافظ.

تلقت مرسى بحثًا عن دقدق فوجده يحمل طلبات إلى طاولات  
أخرى ونسيه. زعق عليه. أشار دقدق إلى عينيه. ضرب مرسى كفا  
بكف.

- ولد ملعون.

- لم ترد عليّ يا أستاذ.

- أقول ولد ملعون. هذا الكلب أنا من ألحقه بالعمل في هذا  
المقهى وتوسطت لأخيه ليعمل في المطافئ، وعينت ابن عمه بوانا  
في عمارة الأندلس القريبة من مترو الأنفاق. يحصل منها على ألفي  
جنيه في الشهر.

وعندما يقابلني لا يرد السلام.

قال تحتمس متبرمًا:

- لم ترد عليّ يا أستاذ.

فجأة وصلت النجدة التي كان مرسى يتمناها من كل قلبه. طال  
انتظاره وهي تتدلل عليه حتى أخيرًا تكرمت. وجه أبيض مستدير

ومشرق، تحمله رقبة عاجية وطويلة. شامخة وقوية.. فتاة صغيرة لم تبلغ العشرين وإن كانت تبدو أكبر قليلاً بسبب الشباب المشتعل والعافية التي زرعت وردًا أحمر في حقول الخدين. رائحة الملامح. سبحان من أبدع وصور. ترتدي بلوزة قطيفة كحلية اللون يتوج الصدر طوق من الدانتيل الأبيض وكذلك الكمين. وجيب بنفسجي يصل إلى ما تحت الركبتين مباشرة. ساقاها قالبان من المرمر ناصع البياض مخروطان بمهارة إلهية نادرة. قدماها البيضاء وان ينامان في حذاء أسود نصف عال. شعرها بني كثيف يغطي الكتفين. تدق الأرض بثقة كأنها روميل الذي يتأهب لابتلاع العلمين. رغم أنها ببطء ودلال تتقدم من عمق السد باتجاه السيدة بينما ربما دون أن تدري تتمرغ على تراب دولها دماء القلوب المحطمة ونظرات المعجبين الذين تجمدوا وكبلت أقدامهم الحيرة والعجز والخوف.

- بركاتك يا أم هاشم

هب مرسي فجأة وقال لتحتمس:

- أستاذك دقائق أسأل بنت أختي عن الامتحان.

- أي امتحان يا أستاذ مرسي. المدارس في إجازة!

رد بسرعة أذهلته هو نفسه.

- امتحان الوظيفة.

أسرع يلحق بالشابة. لا يستطيع تجاهل جسم البلطية التي تتلوى في عينيه وقلبه. تتحرك فوق لحمه وأعصابه. تدغدغ حواسه وغريزته تساءل:

- هل لا زالت نصف زجاجة الخمر المعتقدة التي شربتها في الصباح تفعل فعلها؟.. لا أستبعد خاصة أنها أول مرة أشرب الخمر صباحًا. زجاجة لم يكن من الأدب ولا الذوق تركها وقد جاء بها خيري خصيصًا لي من السوق الحرة بالمطار كهدية. تجرعت نصفها بعد منتصف الليل وتهاويت على الأرض ولم أنتقل إلى الفراش إلا مع أذان الفجر.

تحتمس الله يهده حاصرني وضيق علي الخناق. يريد أن أواملي على الوقوف معهم في وجه المسئولين ومطالبتهم بحقوق الموظفين. سيقولون لي بمنتهى البساطة: خليك معهم وانس ما تحصل عليه من حوافز ومكافآت وبدل جلسات وطبيعة عمل وبدل سفر وأجر إضافي وكلها منح لا يقابلها عمل ولكنها نظير الصمت والرضا والدفاع عنهم إذا لزم الأمر.

استيقظ يا تحتمس. أفق للدنيا وما يحدث في العالم وليس في مصر وحدها. أنا وبعدي الطوفان. عُض قلبي ولا تعض رغيفي. مقهى «ألف ليلة» الذي أسهر فيه كل ليلة يا خفاش يحتاج وحده ألف جنيه في الشهر على الأقل.

ركز نظراته على تقاسيم الجسد المثير الذي يتحدث بكل اللغات.  
العصر النحيل والردين الممثلين بما يكفي لإشاعة حالة من الإثارة  
والاشتياق الجميل والاضطراب الذكوري.

رؤية المفاتن من الخلف ضرورية، ولكن البنت تجمع الحسن  
والله، ومن المهم جدًا رؤية النعم التي تسكن المقدمة حيث جمال  
الوجه الذي منه يبدأ اشتعال الحرائق.

لم يحاول الالتفات لغيرها مهما كان الأمر لافتًا. جسم البنت  
بالضبط كزجاجة خيري. أعجبه هذا الاكتشاف. ثم رد نفسه قائلاً لها:

لا. ليس اكتشافاً لأن الزجاجاة بالفعل مصنوعة على شكل جسم  
امرأة. أنا فقط من لم أتنبه لسوء حالتي بالأمس ولسوء حالتي في  
الصباح ولسوء حالتي بعد الجلوس مع تحتمس. ها هو الله يكافئني  
على صبري بهذه الزجاجاة البشرية المعتقد.

تعلقت نظراته طويلاً برديها والحركات المنسجمة بينهما. لاحظ  
أن ثمة إيقاعاً وموسيقى تعزفها الأرداف مع الحركة الميكانيكية التي  
تلفظها المشية الشيطانية ويشارك فيها الكعب نصف العالي. لاحظ  
الكعبين المتوردين اللذين يطلان من فتحة في تصميم خلفية الحذاء  
الأسود اللامع.

تحدثت نفسه إلى زجاجة الخمر التي تتهادى أمامه في رشاقة  
ودلع:

- كعب الغزال يا متحني بدم الغزال.. كعب الغزال يا متحني بدم الغزال.

أنا شايف الأرض بتتمرجح تحت الخلخال.. ما تبطل تمشي بعينها ليقوم زلزال.

استعاد اللحن ومضى يغنيه لنفسه. انشرح صدره لالتقاط ذاكرته هذه الأغنية، وإن كان عاتبها لأنها لم تزوده ببقية اللحن والكلمات. ضبط مرسي إيقاع خطواته مع إيقاع خطواتها. إذا وقفت أمام محل وقف بعيداً، وإذا تحركت تحرك، وكلما مضت في اتجاه منقلبه اندهش وانتعش.. لاحظ في لفظة من لفتاتها أنها تمضغ فص لبان ومن مهامه وغاياته إضافة قدر من الإثارة اللذيذة بسيطة التكلفة. فوجئ بها تصل إلى أول شارع قدرني ومنه إلى الصليبية والحوض المرصود.

- أنا معجب جداً بالحوض المرصود.

تلفتت خلفها وأمامها وعبرت الشارع نحو بركة الفيل، فتبعها إلى أن وقفت أمام محل كبير للفواكه والخضراوات، على بابها تجلس سيدة ضخمة في نحو الأربعين جميلة الطلعة ولها حضور طاغ يجذب عين الكفيف. مبسم النرجيلة في فمها وعيناها تمسح الشوارع والحارات التقطت البنت ثمرة خووخ ومسحتها بورقة بيضاء خفيفة وقضمت منها وهي تتكلم مع السيدة التي يمكن أن تكون أمها فأوجه التشابه كثيرة. بادرتها السمينه وهي تشوح بالنرجيلة:



- من يعتمد عليك لا يتم عملاً. نهار كامل من أجل ثلاثمائة

عليه.

جلست البنت على أول كرسي وقالت:

- صبرك عليّ يا أم دلال لما ألتقط نفسي.

فوجئ مرسى بصوتها الخشن.. بعد أن تنهدت من أعماقها مضت بعكسي لأمها ما أنجزته وما مربها. رفض مرسى قبول فكرة أن هذا صوتها. لا بد أن أسرتها ركبت لها حنجرة رجل. وقف أمام محل بمالة مجاور يطلب علبة سجائر وقد تحول جسمه كله آلياً إلى آذان الصغي جيداً للبنت وأمها. قالت البنت إنها قطعت المسافة كلها من أمر السد عند كوبري السيدة حتى المحل ماشية على القدمين، وأن المعلم رشدي لم يدفع من حسابه غير النصف. مدت يدها ودست أصابعها في فتحة صدرها. أخرجت النقود وسلمتها لأمها. تساءل مرسى محاولاً الهروب من صوتها الذي نزل بدرجات الجمال قليلاً:

- لماذا تدس النساء النقود أو الذهب أو أي شيء مهم يردن إخفاءه

في طريق ما بين الثديين؟!

لمح لافتة على المحل «فواكه جبريل».

- هذا لا بد اسم زوجها. ولماذا لا يكون اسم ابنها؟ لا أظنها تسمي

المحل باسم ابنها.. وصعب أن يكون اسم ابنها جبريل.

\*\*\*

# 12

منذ يومين عزمت على الذهاب إلى المقابر لقراءة الفاتحة على روح أمي التي مر عام على رحيلها. لم تغب أمي في أي يوم من خاطري. وزعت الفطائر التي اشتريتها جاهزة من المخبز الإفرنجي وملاأت الحافظة بجنيهاً أوزعها على الأولاد وأوراق من فئة الخمسة جنيهاً للفقهاء الذين سيتبارون في قراءة القرآن.. سألت دموعي إذا لم أجد أحداً.. صرفت الأحزان جانباً وركزت مع الآيات.. قضيت ساعتين أمام قبرها أقرأ من مصحفي بعد أن انصرف معظم المقرئين وتحدثت إليها عن كثير مما جرى خلال السنة فقد اعتدنا أثناء حياتها أن نتصارح في كل صغيرة وكبيرة. ولم أشك الرجل الغريب الذي أساء إليّ وحول حياتي بعدها إلى جحيم. دعوت لها بأن يجعل الله قبرها روضة من رياض الجنة وأن يضمها إلى ظله يوم لا ظل إلا ظله، وطلبت منها أن تدعو لي فسمعت صوتها الهامس الحنون تحذرنني ألا أبخل بقراءة القرآن في البيت حتى يبلغها كرحمة دائمة. حمدت الله على الزيارة التي أرضتني كثيراً.

- أشوف وجهك بخير يا أمي .. أنت في دار الحق ونحن في دار  
الباطل ، فسامحيني عن أي تقصير ، ومن ناحيتي سأحاول ألا أقصر  
لكن الحياة تمسك بخناق الجميع .

القيت عليها وعلى الملائكة السلام وطلبت الإذن بالانصراف .

ما أن سرت خطوات حتى طلعت عليّ خالتي ثريا وزوجها عم  
وجيه وسالي .. تبادلنا القبلات والعزاء .. أحب خالتي جداً لأن نفسيتها  
بريئة وقلبها طاهر ومحبة للناس ولا تعرف اللوع والغيرة أو الحقد ،  
كما أحب زوجها جداً . قالت خالتي :

- تعيشي وتفتكري .

- ربنا يرحمها .

قلت لسالي :

- خلاص . نسيت أختك الوحيدة .

عانقتني بحرارة وقبلتني :

- أبدا يا حبيبي . أنت لست أختي فقط ولكنك في مكانة أمي ..

قالت خالتي :

- الثانوية الله لا يوريك .. ادعي لها .

- ربنا ينجحها وتدخل كلية من كليات القمة .

قالت خالتي وعلى شفيتها ابتسامه حبيبه:

- وينجحني في امتحاني قادر يا كريم.

ضحكت: امتحان؟.

قال عم وجيه:

- باركي لنا ياريم.

قلت بفرح:

- ألف مبروك.

أسرعت خالتي تقول وهي في منتهى الانشراح:

- حامل.

صرخت، وأقبلت أعانقها وقلت:

- أحسن خبر سمعته من سنوات طويلة.

عدت أعانقها وأقبلها. قال عم وجيه:

- بإذن الله ولد.

- ألف مليون مبروك.. أرسله الله مكافأة لكما.

قالت خالتي وهي تعانق سالي:

- ستترك لسالي حرية اختيار الاسم.

لا أدري لماذا انفرطت دموعي وارتعد جسمي بسبب تفاعل  
الشاعر المختلطة.. قلت:

- أحس الآن فقط أن العالم كان مقلوبًا أو على الأقل مائلًا وتحقق  
له التوازن بحملك يا خالتي، ولا أخفي أنني كنت أتمني لو كانت أمي  
توجد.

عانقني الجميع.. قالت خالتي:

- العالم يتوازن أكثر يوم فرحك على المسعد صاحب النصيب.  
قال عم وجيه:  
- قريبًا إن شاء الله.

- عدت معهم إلى مقبرة أمي.. بقينا نحو ساعة.. أبلغت أمي  
بظهور حمل خالتي. طلبت منها أن تدعو لها الله عز وجل حتى تقوم  
بالسلامة.. ركبنا معهم السيارة وأوصلوني إلى البيت ورفضوا  
العودة. ما إن دخلت الشقة ووقعت عينا على صورتها حتى نبئت  
الفكرة في رأسي.. أن يكون اليوم كله لها. سرني أن خطرت ببالي  
ملك الفكرة.

حاولت أن أتذكر طباعها وأهم كلماتها. جربت استعادة مواقفها  
وتذكر صبرها ونبرة صوتها الهادئة وصمتها. قلبت كثيرًا في صورها.  
التشفت أنني أهملت الدواجن فرأيت أن أعاود الاهتمام بها. مازالت  
هناك بعض البطات وأرنبتان. لا بد من عودة الدجاج والحمام ليس من  
أجلي ولكن من أجلها فقد تسبح لله وتدعو لها. سبحان الله.

- معنا الكتاكيت الملاح، ولا يربي الملاح إلا الملاح.

غريبة جدًا.. بائع الكتاكيت يمر في اللحظة ذاتها التي شهدتها  
 نيتي على إعادة تربية الدجاج. ماذا نسمي هذا؟.. خرافات أم رسائل  
 أم تواصل أم توارد خواطر حتى مع الراحلين. الله يرحمك يا أمي،  
 اندفعت إلى الشرفة وناديت رمضان الحصري:

- انتظر يا عم رمضان لو سمحت.

عندما نزلت واقتربت، قال:

- اللي خلف مامتش.. طلباتك يا ست العرايس.

- ما كانت تأخذه الغالية بالضبط.

- كانت تأخذ في كل مرة عشرين كتكوتًا بينها واحد برقبان.

- أبو رقبة خالية من الشعر.

- تمام تمام.

مرت بنا هنية بائعة البطيخ الذي تحمله في خرجين عن يمين  
 الحمار ويساره، طلبت واحدة. نزلت عن ركوبتها واختارت واحدة  
 سألتها:

- حمراء يا هنية.

- حمراء وشهد.

- تسلمي يا هنية.

كان يجب أن أحملها عنها لأن قدميها بهما عطب، لكنني لم أتذكر إلا بعد أن سبقتني وصعدت الدرجات فوضعتها أمام باب الشقة وهبطت بأسرع مما يهبط المعافى.

قفز قلبي بين ضلوعي وأنا أحمل في الغريال الكائنات الصفراء الصغيرة، وكعادة كل أسلافه كان الكتكوت عاري الرقبة يجري ويتقاذف فوقها ولا يقر له قرار.. جهزت لها ما تحتاجه وأنا أتحدث لأمي، وأسألها ويتسلل إلى عقلي كلامها ونصائحها. أحسست أن السطح أصبح عامراً، سأشتري فردة أرنب ذكر وزوجي حمام ليبدأ السلالة من جديد. تنهدت سعيدة لأن المرحومة كانت سعيدة ونظراتها تمر على السطح وتبارك وتدعو لي.

وقفت لحظات أرنو إليها وهي تطوف بالسطح، وكلما بلغت موضعاً تحركت في اتجاهه لأجد نقصاً يتعين إصلاحه. قدم العهد بالعشة وتفتحت في جوانبها السلكية الثقوب واتسعت. المساقى بعضها مكسور وبعضها مقلوب والبقية علاها التراب.. اتجهت الكتاكيت نحو ركن من الأركان ووقف ثابتاً فيها أبو رقبان دون حراك. قالت أمي هناك.. وقفت تدعو لي.. نقر دعاءها قلبي نقر الماء على الفماش الأخضر المشدود.

- ما أجمل أن تدعو لي يا أمي!.. من سيدعو لي مثلك.. من الذي سيستجيب الله لدعائه قدر الأم؟ وأمي فيما أظن والله أعلم كانت

إنسانة طاهرة ولم تحمل حقداً لأحد ولم ترتكب ما تعاقب عليه لا من الكبائر أو الصغائر.

مضى كل شيء في يوم ذكرها كما تهوى.. أكلت مما كانت تحب أعددت الملوخية بالأرانب وإلى جانبها الأرز والباذنجان المخلل أعددت «أم علي» وأكلت منها طبقاً. سمعت الأغاني التي كانت تميل للاستماع إليها ومعظمها لعبد الحليم مثل أغنية «بتلوموني له» و«ظلموه» و«أهواك» و«بلاش عتاب»، الغريب أنها كانت تحب الأغاني الوطنية التي كان عبد الحليم يغنيها مثل «صورة» و«بالأحضان» كما كانت تحب أم كلثوم وأغنياتها «أنت عمري» و«غلبت أصابع لي رويحي» و«أرواح لمين» و«فات الميعاد»، كما تحب بعض أغاني ليلى مراد وخاصة «يا حبيب الروح» و«يا رايحين للنبي الغالي» كما كانت تحب الاستماع لبعض أغاني نجاة وهدى سلطان. غنيت من أجلها عدة أغان لهدى سلطان لأن الأسرة كانت ترى أن أمي تشبهها. قرأت لها القرآن. فتحت دولاب ملابسها وتأملتها في فساتينها، وكلما قلبت صفحة من صفحات ذكرياتها سألت دموعي. بعد العصر اقتحممتي فكرة زيارة السيدة زينب ففرحت جداً. سوف تكون رسالة رائعة أبعث بها إليها في دار الحق.. نعم. سوف أزور السيدة وأدعو لأمي عندها وأبلغ السيدة الجليلة أم هاشم محبة أمي العميقة لها، ورأيت أن أكمل اليوم وأنهيه بزيارة مهمة أيضاً بعد السيدة.



لم تكن الليلة ليلة مولد وإنما كانت ليلة عادية. دخلت المسجد  
 وسألت وحييت وطففت في أرجاء المسجد وتطلعت إلى المشكاوات  
 والمصابيح والسجاجيد والأعمدة، والثريات.. شملتني حالة غريبة لم  
 أعرف بها من قبل.. ثمّة مسحة ناعمة وممتدة من الصفاء الروحي تتجول  
 في أعماقي وتغسل روحي وعيني وقلبي. كيف تسللت إلى نفسي هذه  
 السمات الرهيفة من الهدوء والرضا والاكتفاء. لا أريد شيئاً من الدنيا  
 ولا من الناس. شعرت أنني أصعد درجات غير منظورة. أخف وأشف  
 وأصعد.. ثمّة أيادٍ تحملني بينما تصاحبني لغة قرآنية تتلى بنبرة رقيقة  
 وعميقة. هل كل ما يجري مقصود؟. لا يجب أن أستعين بعقلي هنا.  
 أنا هنا في رحاب التعبد والقرب من الله. الدنيا غادرتني والملائكة  
 يتربون مني. أكاد أشعر بهم وهم يحملونني، إلى أن تجاوزت النجف  
 المسخّم الذي يبث نوراً غريباً لا يؤذي العيون برغم القرب. يرتفع  
 السقف كلما سموت ويتسع المسجد وتنفسح أرجاؤه حتى لا أكاد  
 أرى نهاياته. الحوريات الصغيرات يتمايلن وينشدن قصائد السيدة  
 رابعة العدوية شهيدة الحب الإلهي وبعض قصائد ابن عربي وابن  
 الفارض.. ويرددن حكماً لابن عطاء الله.

أسبح مع الحوريات الصغيرة وأنجذب للعالم الملائكي الشفاف.  
 أنا لا بد في حلم.. لا بد في حلم.. ما أروع ما حصل بعد ذلك!!..  
 تحركت الكلمات النورانية التي اتخذت شكل الحوريات ودخلن بي  
 حجرة بيضاء وأجلسنني على مقعد رخامي مصقول وخلعن عني كل

ما ارتديت. ولم أشعر بالخجل. لم أدرك أن ثمة عورات يلزم سترها. كنت في حالة مشاهدة واتصال واستقبال وتجرع لشراب الرضا والقبول بينما أصابع الرحمة والغفران تمسح على جسدي.. صبت الحوريات الماء المعطر على البدن المدنس. ثم أغرقنه بماء الورد وقطرات من ماء، سألت عنه فقالت إحداهن إنه بات منقوعًا ليلتين بين أوراق الياسمين والزعر والنعناع والتين والزيتون. كنت لا بد من حلم.

أعدن إليّ ثيابي وحملنني إلى حضرة صاحبة المقام رضى الله عنها وعن أخويها وكرم أمها بنت رسول الله، وأباها ابن عم المصطفى ﷺ. ناديتها وألقيت أمامها ما أثقل جعبتي من الحكايا والأحداث. لم تقل شيئًا ولم أطلب شيئًا.. تسلل إلى روعي هاتف يقول:

- توكلني على الله وليكن نصب عينيك وستنبت في قلبك الإشارات في الوقت المناسب.

مالت عليّ حورية من الحوريات دون أن أراها وقالت ولا أدري كيف قالت وبأي صوت وكيف سمعتها:

- اللهم ارفع مقننك وغضبك عنا ولا تؤاخذنا إن أخطأنا ولا تعاقبنا بما فعل السفهاء منا، ولا تول علينا من لا يخافك ولا يرحمنا.

رددت الدعاء وختمته بآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

اتخذت طريقي خارجة من جنة المسجد ونوره وطيبه العطر هادئة  
السال مطمئنة القلب ألوم نفسي لأنني نادرة الزيارة، والزيارة غسيل  
وملهاة ووعد وعهد.. تمنيت لو كان البيت إلى جوار السيدة حتى  
أدخله وأنا على حالي لا أتدنس ولو بسماع كلمة ملوثة وحتى لا يصلني  
مع الهواء صخب يهدم عمارتي المبنية حديثاً بالنور والجمال والطهر  
والدعاء.

ما إن دنوت من شارعنا حتى تذكرت نيتي زيارة السيدة شرويت  
التي أحببتها أُمي وكم حدثني عنها.. بها أختتم اليوم الجميل الذي  
خصصته لأُمي وصار يشبهها في كل شيء. استقبلتني أنغام البيانو  
وأنا أخطو ببطء داخل الحديقة الصغيرة، العامرة بالنباتات والزهور.  
وددت المرور على كل شجيرة وكل وردة أتسب العبير وأسقي  
جوانحي بالجمال لكن الموسيقى كانت تناديني وتلح. صعدت  
الدرجات الرخامية الأربع ووقفت أمام الباب الخشبي العريض قاتم  
اللون، ورغم طرازه القديم وسنينه المديدة فقد كان يلمع كأن المصنع  
سلمه للأسرة منذ أيام فقط. وضعت أصبعي على الجرس. بلغني نباح  
كلب لولو صغير. انفتح الباب بعد لحظات نصف فتحة والتقت بعيني  
بسيدة طويلة ونحيلة ذات شعر أبيض ناعم ومسترسل ترتدي فستاناً  
بسيطاً ينتهي عند منتصف قصبة الساق.

ابتسمت ابتسامة مشجعة وقالت بحياد:

- أهلاً وسهلاً.

- أنا ريم بنت زينب .

تهلل وجهها وأكملت فتح الباب قائلة بنبرة عاطفية:

- أهلاً.. أهلاً.. تفضلني.

دست بخفة على الباركيه خلف السيدة والكلب الذي كان مضطرباً لإدارة عجالات أقدامه بسرعة لقصرها . أميل لهذا اللون من الكلاب الوديعه التي لا تستعرض أية قوة أو صوت ولا تحاول ترك أثر مخيف لدى الضيوف . كلاب صديقه وهادئة . لا بد توفر الونس للسيدة الوحيدة ولا أظنها مزعجة . جلسنا وسرعان ما قالت:

- تأخرت الزيارة .

- فعلاً . المشكله أني لم أعثر على رقم التليفون ولذلك أعتذر لأنني قدمت دون مكالمه .

- بيتك .

- اليوم تمر سنة على وفاة والدتي .

- رحمة الله عليها . من القليلات اللاتي دخلن قلبي من أول لقاء .

- حدثتني أمي كثيراً عن طيبتك وكرمك . عن عزفك الجميل . عن

فضلك على المرحوم عمي نبيل .

ابتسمت .

- عندما زارني نبيل لأول مرة كنت في نحو الثلاثين من عمري. أنا الآن في الستين.. بيت والدي كان في الروضة وفرحت أنني سأقيم في السيدة لأن أحب زميلاتي في الليسيه كانت من السيدة وكانت تحدثني عن الحي وجمال ناسه وجوه خاصة في رمضان والموالد. آسفة أخذنا الكلام. ماذا تشربين؟

- لا شيء. شكرًا.

- لا بد.

- أي شيء قريب منك ولا يبعدك عني.

نظرت إلي لحظة ثم ابتسمت ثم اتجهت بخطى وثيدة إلى المطبخ. رغم الشعر الأبيض كانت سليمة ونشطة لكنها تتصرف تقريبًا في كل شيء كالنسمة. هكذا وصفتها أمي. الستائر الخارجية ثقيلة نسبيًا من القطيفة الزيتوني وتحتها ستائر من الشيفون الليموني المرقط بطواويس صغيرة منها فيها. الأثاث بسيط جدًا لكنه ثمين وفاخر ومتين والحمل عليه خفيف والتعامل معه فيما يبدو حنون، فبعض القطع عمرها لا يقل عن خمسين عامًا لكنها تكاد تكون وصلت بالأمس.

عادت حاملة كوبًا طويلًا ورفيعًا مثلها به عصير. قلت لها:

- كيف بدأ حبك للموسيقى؟

- في بيت العائلة. منذ كان عمري أربع سنوات اتفق أبي مع مدرس للموسيقى لتعليمنا أنا وأختي وأخي. أنا الأصغر. علمني الأستاذ

جوزيف العزف على الكمان وعلى البيانو. هل تتصورين أنه ما زال حيًا.. وأتصل به كل فترة لأطمئن على صحته، يقترب من التسعين.

- هل كل المقطوعات لمؤلفين أجانب؟

- لا طبعًا. هناك مؤلفون عرب كثيرون أعزف ألحانهم. هل تحبين

أن تسمعي شيئًا؟

- لا أريد أن أتعبك.

- كل قطعة أعزفها تطيل عمري يومًا على الأقل.

توقفت لحظة ثم قالت:

- الموسيقى ليست مجرد فن. إنها غذاء ومنتعة وونس وعبادة.

- عبادة؟

- نعم.. عبادة أولاً لأنها تبعدك عن التفكير السلبي وهذا من

الخير، وثانيًا تدرب النفس على الإحساس بالجمال والله جميل

يحب الجمال، وثالثًا لأن الموسيقى جزء أصيل في الطبيعة وأنت

بالعزف تندمجين مع الطبيعة ومع خالقها.

- لكنك لم تجربي التأليف.

- ألفت عددًا كبيرًا من القطع ولم أجد الجرأة للدخول إلى عالم

السيمفونيات.. تفضلي العصير.

مددت يدي وأمسكت بالكوب الطويل الجميل ورشفت قليلاً من  
الجوافة. وعدت فرشفت منه ثانية رشفة صغيرة.

- أنا متأسفة كان يجب أن أسألك عن نوع العصير.

- عصير لوز. أحبه.

- أمك أيضاً كانت تحبه.

اعتدلت على البيانو وبدأت تعزف.. نغمة والثانية وتشكلت مطالع  
الأغنية ليلى مراد الجميلة «سألت عليك قالوا مسافر ولا رضىوش  
يقولوا فين».. أمي تحب هذه الأغنية جداً..

ما هذا الجمال الذي تتمتع به هذه السيدة؟!.. كل ما قالته أمي عنها  
صحيح وربما أقل.. أن تفكر في الآخر وتفسح له مكاناً في ذاكرتك  
للمحاول أن تعامله فقط بما يحب.. تفاعلت مع اللحن. دندنت  
وسعدت. طرت ثم سألت دموعي. أمي حاضرة الآن بقوة. انتهت  
وصفقت لها بكفيّ دون صوت. تنهدت. سألتها:

- هل يمكنك أن تكتبي موسيقى لمسرحية أو لمسلسل؟

صمتت لحظة.. دارت نظراتها في المكان كأنها تود أن تتخذ قراراً

مهماً. قالت بتمهل:

- نعم، يمكن.

- نستعد في المسرح لتقديم مسرحية «شهر زاد» لتوفيق الحكيم..

هل تناسبك؟

- لا مانع فقط أريد النص.

- هل تحبين حضور البروفات؟

- لا أميل للحركة كثيرًا. بعد القراءة سأقدم لكم موسيقى للمشاهدة.

الأولى، فإذا وافق المخرج أكملت.

- عظيم.

- حان الآن وقت الشاي.

- شكرًا لقد أثقلت عليك.

- أحب من كل قلبي أن تشربي الشاي بالنعناع الجبلي.. أحضره

شقيقي من مرسى مطروح.

نهضت بأناة وخطت على مهل نحو المطبخ.. تلفت أحدق في

الأثاث والستائر والمرابيا والطقاطيق والصور.. عادت تعصف بي

مأساتها. لقد حرمت من الإنجاب لسنوات ثم من الله عليها وما

أن بلغ الولدان الثانية عشرة تقريبا قضى عليهما حادث سيارة مروع

ومعهما الأب.. تركوها وحيدة حتى فقدت بصرها تدريجيًا وظلت

كذلك لسنوات إلى أن من الله عليها بنعمة البصر الذي استردته أيضا

تدريجيا، وطوال السنوات لم تتخل عن الموسيقى.

لمحت على الطاولة المستديرة أمامي ورقة تحت الزجاج. انحنيت

وقرأتها «كما فقد بيتهوفن سمعه وهو أيقونة الموسيقى العالمية، فقد



مرهان باخ الموسيقار الأمانى الشهير نور عينيه، وحول افتقاده للبصر وإحساسه بالحياة والطبيعة قال باخ: «كان صوت الطيور في الصباح هو الشيء الوحيد الذي يذكرني بأن الظلام قد انقشع. كنت أقوم من فراشي وأتجه صوب نافذة غرفتي وأقف وراءها فأحس بدفء الشمس وهي تتسلل برفق إليّ حيث كنت أمضي أيام الظلام. إنني لم أغادر هذه الغرفة منذ أن اختفى أمام عيني آخر خيط من الضوء. وكيف أغادرها وأنا لا أقبل أن أمسك بيد تقودني. لا أحتمل أن أشعر بالصمت الذي يشتمل المكان فإذا ظهرت تحولت الضحكات إلى همس. وقد كنت قبل حضوري أسمعها تدوي في المكان كله. لقد أحببت الحياة وأحببت الناس وأحببت الطبيعة، وعشقت الموسيقى، وكان الشيء الوحيد الذي يذكرني بأنني لا زلت أحياء هو صوت موسيقي، وكنت أشعر كلما سمعت نغمًا جديدًا أن أبواب السماء افتتح لي ذراعها لتستقبلني وتخلصني من الألم الذي أعانيه بعد أن اكتست الدنيا بالظلام».

كادت الدموع تنهمر من عيني فتماسكت بعد أن اكتشفت أنها واقفة عند الباب تنتظر انتهائي من القراءة. وضعت الصينية النحاسية المنقوشة بالأرابيسك، وقالت:

- كل ما قاله باخ كان يصدق عليّ عندما كنت في مثل حالته لكن الله أكرمني.

جلست بعض الوقت.. استمتعت خلاله بعزفها الرائع وكلماتها الودية بصوتها الهامس وحضورها الجميل. أصرت على أن نشرب معا الشاي الأخضر وبعدها استأذنت على وعد أن أمر عليها في اليوم التالي لتسليمها النص. تحدثت إلى المخرج وفرحت لأنه لم يكن قد اتفق مع أحد على إعداد الموسيقى. اقترحت عليه الاستماع إلى مؤلفه موهوبة ليست شابة ولم تكتشف من قبل. وافق. اتصلت بالسيدة شرويت وطلبت منها تسجيلاً لبعض مؤلفاتها. وعدت بتجهيزها. مررت عليها بعد يومين وتسلمت شريط التسجيل وسمعه المخرج وأبدى ترحيباً بالتجربة على أن يستمع إلى رؤيتها الموسيقية للفصل الأول من المسرحية. سرنى جداً تجاوب المخرج لأنني كنت أريد من كل قلبي أن تخرج شرويت من نفق الوحدة وتستثمر موهبتها في عمل جماهيري وليس عملاً عائلياً. يدور في فلك محدود للغاية.

رأت شرويت أن نحتفل بمناسبة العمل الأول لها بعشاء مشترك في مطعم تحبه. حاولت التملص. رفضت برقة وأصرت برقة. رضيت أنا أيضا برقة.

المطعم كان في شارع التحرير بالدقي. رحب بنا شاب وسيم بهزة من رأسه وابتسامة. المكان هادئ تؤنسه موسيقى ناعمة تتسرب كمياء عذبة من نافورة منزل صغيرة في الصالون.. لم يكن مطعمًا فخماً أو متسعاً. كان صغيراً ومنظماً ومشرقاً تتوزع في أركانه الأباجورات، المشهد مريح جداً. يغطي كل الجدران اللون الكناري متسقاً مع لون

الستائر والأباجورات مع الزي الموحد الذي يرتديه الشباب، وكذلك سيراميك الأرضية وقوائم الطعام ولون فرش الكراسي الجلدية. فندم الشاب الوسيم قائمة الطعام وقلم رصاص للتعليم على ما تريد. سألتني شرويت عما اخترت من القائمة فعلمت بالقلم على ما تريد. لاحظت أن التحية التي يحيى بها الشباب وكلهم في العشرينات تشبه كثيرًا التحية اليابانية أو الصينية. دقت النظر فيهم. كانوا جميعًا بملامح مصرية.

طرقت بأصبعي الإبهام والوسطى فجاء شاب قلت له:

- الحمام لو سمحت.

تلقت الشاب حواليه وبدت عليه الحيرة. لمحتني شرويت فأشارت له بكفيها على وجهها. ابتسم وأسرع يشير لي على حمام النساء. دخلت الحمام وغسلت وجهي وهدمت شعري وملابسي وخرجت. قلت لشرويت:

- لا بأس أن تشغل المطاعم أصحاب الإعاقات.

- يستطيعون أداء هذا النوع من العمل دون تقصير.

- واحد أو اثنان لن يرهق الميزانية وهذا حق المعاقين طبقًا

للقانون.

حملت شابة الطعام إلينا وهي باسممة وانتظرت لحظة لترى ما الذي يمكن أن نطلبه.. شكرتها شرويت وبدأنا تناول الطعام الذي

كان لذيذاً.. لاحظت أننا لم نسمع صوت إنسان كأننا نجلس وحدنا ولا أحد يخدمنا مع أن العاملين أمامنا نحو ستة أو سبعة غير من في الداخل حيث الإدارة والمطبخ، وكان هناك ما لا يقل عن ثلاثة عشر ضيفاً. لا صوت إلا صوت الموسيقى وبعض أصوات تأتي من بعيد، للمارة والسيارات.. حالة نادرة من الوداعة والجمال. الطعام شهيق والخدمة جيدة والأهم أنه لا يوجد مدخنون ولا أية أصوات بشرية صاخبة. تحدثنا طويلاً ولم أرغب في النهوض والمغادرة. قامت شرويت ووقفت عند طاولة الإدارة. قدمت شابة لها الفاتورة. دفعتها. أحنت رأسها الشابة الطويلة السمراء ذات العيون الجميلة والقمم الواسع. أحنت شرويت أيضاً رأسها فقممت وخرجنا. سألتها عن المطعم. قالت:

- لم أكشف لك عن هويته منذ البداية.

- هل هو ياباني؟

- لا.

- صيني أو هندي.

- لا. بل مصري.

- فما الذي لم تكشفه؟

- لا يعمل فيه إلا الصم والبكم.

وقفت فجأة كأني دست على قطران أو قبض على قدمي شرك

حديدي.. التصقت بالأرض..

- أحقًا ما تقولين؟

- نعم.

- لم أكن أعلم بوجود مثل هذه المطاعم على الأقل هنا في مصر.

- افتتح هذا المحل منذ سنوات ولا أميل إلى سواه.

- وأنا لن أتناول الطعام خارج بيتي إلا فيه.

- والطعام جيد.. أليس كذلك؟

- جدًا.

قبل أن أنقل قدمي من موضعهما نبتت في عيني دموعان. تمكنت من السيطرة عليهما. بقيت صامتة مدة ولم أنطق إلا بعد أن وصلنا سيارة شرويت الفيات القديمة. قلت لها فجأة:

- لو كان عندي قدر مناسب من المال لعرضت عليك أن نتشارك

في إقامة مطعم مثل هذا؟

ابتسمت وهي في حالة شرود ثم قالت بغير اهتمام:

- ليس كل الناس يصلحون للتجارة خاصة من أصابته لطشة الفن.

فكرت في ردها لحظات. كان ردها حاسمًا. تحركت السيارة ببطء وسارت شرويت صامتة حتى تجاوزنا كوبري الجلاء إلى كوبري قصر النيل فتوقفت.. اقترحت أن نخرج لنتمشى على الكوبري ذهابًا وإيابًا إذا لم يكن هناك ما يمنعني. رحبت بالفكرة وقلت:

- يجب أن نشحن البطارية.

عدت ألوك رأيها القاطع وأعيد تقييمه.. سألتها:

- هل حقًا لا يصلح الفنان للتجارة وتحقيق المكاسب المادية من

غير سبيل الفن؟

سادت لحظة صمت إلى أن قالت:

- هو مضطر لذلك إذا لم يكسب عن طريق الفن؟

- إذن عليه أن يبدأ أولاً من مجاله ليحصل على بعض ما يحتاج

إليه.

- هذا هو مربط الفرس.. بعض ما يحتاج إليه.. لأنه لو أسرف في

الطلب تحول الفن إلى تجارة وتحولت الهواية إلى احتراف ومن ثم يتأثر الإبداع ويذبل الابتكار.

- كيف توصلت إلى هذا الرأي ولم يسبق لك الكسب عن طريق

الفن؟

- هذا الرأي من أصول الفن وقواعده التي لا تحتاج إلى تجربة

شخصية ويكفي أن نعثر عليها في سلوك الآخرين.

فوق الكوبري كان النسيم عليلًا والمياه تحته تتسرب وتضحك

في خجل والموجة تجري وراء الموجة في الظلام، والبواخر تمر

وبها السهارى السعداء.. أضواء القاهرة تغني للمساء وتلفت أنظار

الغافلين، وتطلق الصواريخ الصغيرة الهشة نحو السماء طالبة منها

المشاركة والنظر إلى أبنائها التعساء بعيون الرضا. كانت السماء مشغولة بهموم الكون المضطرب. ومع ذلك رأيتها تبسم وتهز رأسها مشجعة وحانية.. تذكرت ناجي المسكين.. سألتها عنه فانطلقت نجمة كبيرة ومضيئة بشكل لافت.. توقفت فوقنا ثم دارت دورة واسعة. ظلت مهناي عليها لا تفلتها. أدركت أنها تخصني وأنها من ناجي.. وما لبثت أن اتجهت صوب الغرب ونورها يتراجع تدريجيًا حتى اختفت. قلت في نفسي.

- لا. هذه ليست نجمة ناجي. إنها نجمة أمي.

شردت قليلًا وعابت نفسي بغير حدة:

- لماذا ندير كل شيء نحو أمانينا؟. نوظف كل حدث ليتفق مع ما نبتغي. ما دمنا لا نستطيع التفسير فلندع الخلق للخالق ولا نجبر أمرًا على أن يكون حلمنا. هذا هو الطريق اليسير للوهم أو التوهم.

عدنا إلى الحي. قبلتني بحرارة.

- أظن أننا قضينا وقتًا طيبًا.

- أنت من جعلته طيبًا يا مدام.

- أنتِ قدمتِ السبت.

أنزلتني على أول الشارع ومضت إلى فيلتها. مشيت بروح راضية ومطمئنة. قلت:

- من الجميل أن نتعرف على بشر رائعين، ولكن الأروع أن نتخلص من ناس سيئين.. قال مرة جدي حسين البنهاوي:

- قال بعض الأئمة فيما أذكر: دفع المفاسد أولى من جلب المكاسب.

نسيت تمامًا أن أبارك لمنال بنت خالي شهدي على إنجابها أول أبنائها.. أذهب الآن وفورًا يمكن للهدية أن تؤجل ولكن لا بد من التهئة.. منذ فترة طويلة لم أحضر ولادة أو سبوعًا ولا رأيت رضيعًا حديث الولادة. وجميل أن ينتهي احتفالي بذكرى أمي التي رحلت بأن أهني بميلاد جديد لحفيد أخيها.. الميلاد والموت يتعانقان.



# 13

أنا الموقع أدناه ناجي الورداني.

نقلوني إلى عنبر آخر بعد معركة اشتركنا فيها جميعًا منذ أسبوعين.  
 ظهر تسرب عن أن شقيق خميس اغتصب شقيقة منتصر.  
 أنا الآن محاصر بين مجموعة من الكائنات العجيبة.  
 كل منهم ارتكب جريمته مع سبق الإصرار والترصد.  
 حسونة الأقرع بكل فخر قتل بناته الثلاث بأن دس لهن السم في  
 الطعام.

فقد بعض ماله في شركات توظيف الأموال وفقد الباقي في  
 البورصة وحاول قتل نفسه بالرصاص لكنه فشل.  
 حمادة اسباجيتي النحيل الطويل كون فريقًا من اللصوص  
 المتخصصين في سرقة ركاب الأوتوبيسات وكان في الأصل  
 محصلاً.

الثالث قزم اسمه نخلة بشنس.. مزور يدها تلفان في حريم  
ولا ينافس على الأرض مزور آخر.. زور الدولار والجنيه والدرهم  
وزور جوازات السفر وكلها مرت من كافة الأجهزة الإلكترونية  
وسقط لآتفه الأسباب مما سيأتي ذكره.

الرابع السمين ذو الشوارب تاجر مخدرات عتيد تمكن أن يفسد  
وحده الآلاف من طلاب الجامعات وعدد كبير من الفنانين والفنانات  
ولاعبي الكرة.

وأسر كاملة تنتمي لرجال الأعمال وأولاد الوزراء ونواب  
الشعب.

والخامس شاورمة الصامت أبداً.. ذبح الكلاب والحمير وقام  
رجال بهطهيا وتقديمها أكلات شهية لزوار مطعمه الشهير.

السادس سلطان . نسيمه: يا أرض انهدي ما عليك قدي.. ممثل  
مغمور ومغرور بلا رصيد ملحوظ. أهم قليلاً من الكومبارس. وقع  
شيكات بثلاثة ملايين بينما حسابه خال تماماً من صنف العملة.  
وعده مخرج مجنون أن يمنحه بطولة فيلمه القادم ثم نسيه في زحام  
أمجاده.

السابع ذو الأظافر الطويلة والخواتم. اسمه عز الدولة.. متخصص  
في تهريب المئات من أجهزة المحمول والساعات والكاميرات والآثار  
مع كل سفريّة.

الثامن عجمية.. ذو اللبانة والسلسلة في رقبتة قواد أو تاجر أعراض  
بالمط البنات من القرى والنجوع والشوارع ومن تحت الجسور،  
ويذبهن تحت أقدام الرغبات المشبوهة التي تدفع للمتعة كل ما  
تكسب.

والتاسع المجري.. أستاذ في سرقة قضبان القطارات ونحاس  
أسلاك الكهرباء والسيارات.

أما العاشر فناهب لأراضي الدولة ولا يلوث يده أو ماله بغير ذلك..  
اسمه أبو هاموش.

مثلهم مئات خارج السجن لكنهم أذكياء يجهزون السلطة لتساندهم  
قبل بدء مشروعات الصعود.

أنا غير منزعج من وجودي معهم.. على العكس إنهم يهونون عليّ  
فسوة السجن.. يكفي النكات التي لا يتوقفون عن تداولها وتأليفها.

قال القواد أمس: اتصل بي مساعدي وقال:

- خلا البلد من الخبز والبوتاجاز والسولار والأفيون واللحم  
والدواء والنسوان والحشيش والقمح والأسمت والحديد والفلوس  
والرمل والسّمك والبط والأرانب والخمر.. أنا رأيي إن آخر واحد  
سيكون في المطار يقفل النور قبل أن يركب الطائرة. ضحكنا جميعاً  
إلى درجة أنني كدت أبكي. لكنني اشتقت إلى سراج الذي كنت في

أعماقي أسمىه ثقب الأبرة، قبل المعركة التي حاول فضها ثم انشغل  
بالصلاة سألته:

ما رأيك في تنظيم القاعدة؟

قال: جهاد.

ابتسمت ساخرًا:

أي جهاد يا شيخنا؟

بدا عليه الاضطراب، قاومني قائلاً:

- الجهاد ضد القهر.

- أليس فعلهم قهراً، ألم يقتلوا الأبرياء؟

تنهد ثم قال:

- لكل تجربة أخطاء.

- إلا دم البشر يا سراج.. إلا التهديد والترويح.

أمسك بالمصحف وقال محاولاً التخلص مني:

الجهاد هو النجاة.

سألت نفسي وماذا عني؟ اسمي ناجي.

هل حقاً سأكون من الناجين؟

# 14

الجو كان جميلاً والسكة خالية من الزحام. الحركة خفيفة. أحس  
موسي أنه في حالة جيدة. ظل يمشي وهو شبه شارد. لم تغادر الفتاة  
البلطية خياله وفكره.

-آنسة بالتأكيد..

عزم على توثيق علاقته بالبنات وأمهات. الوسيلة الوحيدة والمقبولة  
هي أن يشتري كل يوم بعض الفاكهة أو الخضراوات.

اجتذبه السير والتفكير والخيالات والأمانى حتى وجد نفسه  
بجوار المطافئ في العتبة. طوال الطريق وهو ذاهب كان يفكر في  
علاوة البنات ولكن الطريق إليها لا بد أن يمر عبر الزواج. اضطر أن  
يعرض شريط زواجه على مدى خمسة وعشرين عاماً. أعاد تقييم كل  
المحطات والأرصفت والحفر في حياته الزوجية. تأكد أنه كان زواجاً  
مع إيقاف التنفيذ. كان يتمنى طوال عمره أن يقع في الحب وتوقع أن

يجده لدى زينب فوجد بدلاً منه كراهية أو على الأقل عدم رضا. ظل نبيل جدارًا عاليًا عازلاً بينهما تتمسك به زينب إلى أن ضاع العمر دون لحظة جنس مجنونة يتبادل فيها الطرفان حرث الأرض وحفر آبار المحبة وبذر البذور.

- أنا لا زلت مثل فتاة عذراء. لم أجرب الجنس بالمعنى المعروف. الجنس الذي يشبع الجسد ويرويه ويرفعه ويخفضه ويجدده ويصل به ومعه إلى ذرى النشوة والرضا عن الحياة والناس. أنا لم أكن مطلوبة أبدًا وكانت زينب غير مستعدة للتجاوب معي بأية صورة. كانت تقبل مداعباتي أحيانًا على مضض قبل مرضها اللعين بالطبع، وإذا أكملت فإنها كما قالت تفعل ذلك كي لا تغضب الله على حد قولها. كان النوم معها كأنه كتابة بالقلم الرصاص على ورقة كرتون أو على نعل حذاء. طيخ «قرديحي» بدون لحم.

فكر عدة مرات أن يشكو لأمها أو لأبيها أو لأخيها شهدي، وذهب فعلاً إليهم مرة بعد مرة وفي كل مرة كان يتوقف عن البوح في آخر لحظة. لم يتقبل فكرة أن يفتح حديثًا في هذا الموضوع. وأكد لنفسه أنها مسألة خاصة جدًا ولا يجب أن يشاركهما فيها ثالث أيًا كانت أهميته ودرجة تأثيره. لكن زينب بالطبع هي صاحبة القرار وهي من هذه الناحية حاكمة مستبدة وقد حسمت أمرها وقررت حرمانه أو التكرم بالفتات.

استندار عائداً وطوال سكة العودة كان يتساءل عن إمكانية أن تقبل  
 امرأة تتمتع بجمال نادر وفي عنفوان الشباب الهادر الزواج من رجل  
 مثله عمره أكبر من ضعف عمرها:

- أنا والبنت نشبه حصانين من أحصنة السباق هي تشارك وتفوز  
 أما أنا فأشبه حصاناً تم منعه من المشاركة بسبب سنه وعدم قدرته  
 على العدو. لم أعد أتمتع بأي شيء يغريها بقبولي. قد تقبلني أمها  
 لنفسها لكنها تبدو قوية الشخصية تتعذر قيادتها. بعد فترة طويلة ومن  
 حكايات الأصحاب في المقهى والزملاء في العمل أدركت أن أي  
 رجل مهما كان ثراؤه أو ذكاؤه أو نسبه أو قوة جسده لن ينجح في  
 واجهه إذا لم يتدرب أولاً على قيادة مجموعة من الموظفين أو الزملاء  
 أو الجنود أو الطلاب في المدرسة أو الجامعة. أمها بالتأكيد سترفض  
 أن تزوجني لابتها الصغيرة الطازجة التي تستطيع أن تزوج بشاب له  
 مكانة وسلطة، بل تستطيع أن تزوج رجل أعمال أما أنا فلا شقة ولا  
 مال ولا سيارة ولا أعمل بوظيفة مؤثرة تتحكم في العباد ولها وضع  
 اجتماعي.

تعثرت قدمه في بعض الأحجار الصغيرة المتناثرة أمام عمارة  
 تحت الإنشاء فحذفها بحذائه كأنه يقذف أفكاره أو يلعن حاله. لقد  
 لسربت سنوات العمر كالمياه من ثقوب الغربال. يدها فارغتان تماماً  
 من كل شيء. ليست يدها فقط بل قلبه وجيوبه ومستقبله. حياته تشبه

كثيراً مبنى من الطين تمكنت الرياح من نحره فتآكل مع السنين حتى انهار وتبعثرت بقاياه على الطريق لا يريد أحد أن يقترب منها.

الغريب أنه حاول أن يقنع نفسه بأن مثل هذا الزواج يحدث أحياناً فبعض البنات يفضلن الكبار ويملن إلى أصحاب الخبرة والحكمة.

تذكر هشام الزملي زميل الدراسة القديم الذي تنبه مبكراً ألا يسمع لأحد أن يتفوق عليه ولا يتيح الفرصة لظروف الدنيا أن تدهسه لأي سبب وبني فلسفته على أن يأخذ من الحياة أكثر مما يعطيها. يسرف في الاهتمام بنفسه. لم تقع عليه عيناه يوماً إلا وهو في غاية الأناقة فضلاً عن وسامته ورشاقته وقد اشترى منذ سنوات سيارة حمراء كابورليه شبابية لا تسير ببطء أبداً ولا تعرف غير الطيران. كان معروفاً عنه أنه شريب وزير نساء. يستطيع في أي وقت أن يجذب أي فتاة أو امرأة أيًا كان وضعها الاجتماعي، وهو من عتاة المنحرفين وصديق عتيد لنجوم السينما. وكلما التقى بمرسي أو أمثاله من قدامى الزملاء الذين محا أسماءهم تماماً من ذاكرته ألقى عليهم تحية باهتة ومن بعيد كأنهم حاملون للجرب أو مما يمكن نقل عدواه لكنه كريم النفس بحيث يأبى أن يتجاهلهم.

زار مبنى المحافظة من سنوات قليلة وكان على موعد مع المحافظ. كان يرتدي بدلة شاركسكين بيضاء فوق قميص من الدانتيل المطرز تتعلق برقبته ربطة عنق حمراء و على رأسه قبعة بيضاء فرنسية يدور حولها من فوق قاعدتها خط أحمر رفيع بلون الكرافت.. كان شاربه



الرفيع جدًا فوق شفثيه لا يزال. وبأصبعيه السبابة والوسطى يمسك  
بمنتهى الرشاقة سيجاره الفخم الغليظ. هب مرسى لما رآه لتحيته  
فقال له أمام الموظفين:

- ألا زلت حيًا يا.. يا.

لم يدر مرسى كيف واته البديهة كي يقول له ببعض الأدب:

- وأنت لا زلت وسيما يا.. يا.

قال هشام:

- من عشرين سنة يا مرسى وأنت على نفس الكرسي.. هل تعرف  
معنى هذا؟

كتم جميع الموظفين الذين سمعوا العبارة ضحكاتهم إلا ثلاثة أو  
أربعة.. لم يجد مرسى بدا من جر هشام بعيدًا عن الغرفة بدرجة كافية  
وقال له:

- أنت تعلم أنك أحب زملائي.

- أنت تعلم أن موعدى حان مع المحافظ وليس لدي وقت.

- ولماذا يقابل أمثالك؟

- لأنى سأقيم مشروعًا استثماريًا للمحافظة وسيعمل به ألف من  
أمثالك.

ضحك مرسى وقال له:

- لا بد أن تتناول معي الغداء اليوم.

- قلت لك.

- لن أقبل.

ضحك هشام وقال له:

- ما الذي لن تقبله يا روح ماما؟

شرد مرسي لحظة ليعد عبارته التي فكر فيها من قبل طويلاً، ثم

قال:

- يا هشام بك اعتبرني تلميذك.

- لا أدرس في مدارس حكومية.

ابتلع مرسي ريقه وأشعل سيجاره. ابتلع أنفاسه ثم قال:

- الموضوع جد وليس دعابة أو مشاكسة.

- انجز يا مرسي. ملعون اليوم الذي عرفتك فيه.

- أريدك أن تعلمني الانحراف.

انفجر هشام يضحك دون أن يعبا بأن جميع موظفي المحافظة من

الأدوار الأربعة ويشغلون عشرات الغرف وصلهم ضحكه المجنون

الذي يتنافى مع قيم الحكومة والنظام والمسئولية وقدسية المكان

حتى أن جميع رجال الأمن وسكرتارية المحافظ أسرعوا بالتوجه نحو

مصدر الهجوم المتوقع.

- ماذا قلت يا.. يا؟؟؟

- أريد أن تعلمني الانحراف. لقد ضقت بالاستقامة. أنا كبرت يا هشام، وأنت لا ترضى لأخيك أن يدخل الدنيا ويخرج منها كما هو. عام جدًا.

- أصارحك القول؟

- يا ريت.

- أنت لا تصلح.

- ولماذا إذن أسأل الزعيم الذي يجعل الأعمى يبصر وامرأة الألمانية تنجب، ويستعين به رؤساء الدول في مثل هذه الأمور، بل يبارتك للمحافظ فيها شيء من هذا القبيل.

عاد هشام يضحك بدرجة أقل. سحب نفسًا طويلًا من سيجاره ونظر نظرة الناصح الأمين وقال:

- أنت لا تصلح يا مرسي أولاً لأن اسمك مرسي.

- نغيره.

- ثانياً ليست لديك سيارة.

- نشترى.

- لن تستطيع لأن المطلوب سيارة ألفاروميو أو شيفورليه. فولكس باسات أو كروزلر.

- دعنا من السيارة الآن.

- شقة فخمة على النيل أو في منطقة شيك. مدخل ضخم بالأعمدة وعدد من المصاعد وتأثير وديكورات تسبب الدوار للزوار وإكراميات كثيرة للحراس.. هذا جانب وشكلك يحتاج إلى عمل سنوات لإجراء ثورة في ملابسك التي تشبه ملابس الحانوتية ولا بد من الاشتراك في جيم لتحقيق الرشاقة وحاجتك إلى كوافير من وسط البلد. كوافير عالمي لـ **ساحر الكتب** الخرفان الذي يعيش فوق رأسك بطريقة غبية ومزعجة للفران.. الخلاصة أنك تحتاج إلى عمل نيولوك كامل مع قدرة على الإنفاق على الأطعمة والخمور وتعلم أصول الإتيكيت والكلام وانتقاء الألفاظ.. خفة الظل.. الانحراف موهبة وفن وعلم له أصوله. للأسف يا مرسى أنت لا علاقة لك به على الإطلاق.. فكن كما أنت في الإسطنبول، وعش يا برغوث على قدر دمك. لقد قدمت لك خدمة العمر التي كونتها عبر التجارب التي أنفقت عليها مئات الألوف من الجنيهات. ومن مصلحة النسوان إنك تنسى. أنت لا يناسبك غير عشش الاستقامة. سلام.

مضى مسرعًا يقفز الدرجات الرخامية العريضة ليلتقي بالمحافظ الذي فات مواعده وسمع مرسى يقول آخر كلماته قبل أن يختفي:

- الله يخرب بيتك يا بعيد. عقدتني وأغلقت كل الأبواب في  
صحيح إنك برج العقرب.

أحس أنه بحاجة إلى كأسين من نوع زجاجة المساء والصبح  
التي تساعده على استكمال مشروعه. حاول مجددًا تخليص نفسه  
من الوهم والأمل الكاذب فلم يطاوعه قلبه.. كرر على نفسه أن  
المتناقضات يمكن أن تجتمع.. أعجبتة الفكرة. في الزواج كثيرًا ما  
تجتمع المتناقضات.

- ألا يحدث أن تتزوج الخادمة ابن الباشا، والأميرة تقع في  
غرام سائقها. السمراء يتزوجها الأبيض والبيضاء تتزوج الزنجي؟.  
المتناقضات لا تزال موجودة وسوف تصيبي وأتزوج دلال وأتحول  
إلى شخص آخر. لا بد فقط من الاستفادة بكلام معلمي الأول والأخير  
هشام الزملي ابن الشيخ العالم محروس الزملي ناظر المدرسة. يخلق  
من ظهر العالم فاسد. والفاسد هو من كسب كل ما على الطاولة من  
الأوراق. صعب أن أستفيد من كلام ونصائح الزملي.. أنا طوال عمري  
سبيح الحظ.. نعم سبيح الحظ..

تذكر جملة لا يدري أين قرأها وساعتها شعر بالغيظ «العاجزون  
فقط هم الذين يلعنون الحظ السيئ».. قال لنفسه:

- و أشعر الآن بالغيظ بمثل ما شعرت به يومها وأكثر.. أنا فعلا  
سبيح الحظ، أليس كل ما قاله هشام عن افتقادي لكل ما يصلح لحياة

سعيدة ومنطلقة صحيحًا.. الصدق مع النفس يقتضي الاعتراف بأن كل ما قاله صحيح. وإذا كان صحيحًا فهو بالتأكيد قمة سوء الحفظ. وصل بركة الفيل ووجد نفسه منجذبًا للمرور على دكان الحبيبة اشترى من الأم كيلو من التفاح. تلفت بحثًا عن الصغيرة الجميلة. لم تكن هناك ولا عطرها. رتب في ذهنه مشروع سؤالها عن شخص لموجود ليكن اسمه هشام الزملي:

- قال لي إنه يسكن في شارع المقريزي بجوار محل «فواكه جبريل» الأسئلة جرجرت إجابات والإجابات جرجرت أسئلة، صوتها أخشن وأعلى من صوت ابنتها. تبدو قوية وعقلها كبير وواثقة في نفسها وفي معلوماتها.. الغريب أنه كان ينشغل عن إجاباتها بالبحث عن ابنتها فيها. دون أن تلاحظ ولعلها لاحظت - فهي لا بد أن تكون نمره ابنة نمره - أنه يركز أحيانًا في عينيها وشفتيها وخديها ورقبتها وفتحة صدر العباءة البنية المطرزة بخيوط ذهبية اللون. في النهاية ابتسم وقال بينما يمد يده ليستلم كيس التفاح:

- أزعجتك معي يا ست كريمة.

- المحل محلك.

- يكفيك إنك منورة الحي كله.

- تُشكر يا أفندي.

# 15

بعد أن قرأت رسائله حملت بعض الكتب والطعام الذي سهرت  
 لعهده وهي ممزقة بين اختيارات عديدة. ما الذي يمكن أن تحمله إليه  
 من ألوان الطعام التي لا يتناولها؟ وكانت الإجابة: كل ألوان الطعام  
 محروم منها. فلم تستطع أن تختار وكان عليها في الوقت ذاته أن تختار.  
 انطلقت مبكرًا في اليوم التالي إلى طرة لتزور ناجي الذي عثرت عليه  
 أخيرًا. سلمته كيسًا به اللحم وطاجن بامية صغير وحلة بها ملوخية  
 ومسينية رقاق باللحم المفروم وحلة بها أرز مفلفل وكيلو طماطم وربع  
 الفلفل أخضر وكيلو خيار وموز ومشمش وتين وربع لب أسمر وربع  
 لب أبيض وكيلو فول سوداني وثلاث علب سجائر كليوباترة وورق  
 أبيض وعدة أقلام وكتب، سمح لها مأمور السجن بعد أن سلمته بطاقة  
 كانت قد حصلت عليها من ضابط كبير في مباحث أمن الدولة بعد  
 مكالمته من وزير الثقافة.

لم تستطع التعرف عليه من أول لحظة لكنه تعرف عليها بسرعة.  
 كانت كما هي إلا من نقص لا يتجاوز خمسة كيلوجرامات في الوزن،

أما هو فقد هبط وزنه إلى النصف ونمت ذقنه وانتشرت وغاصت  
عيناه بين بحيرتيهما العظمتين. خف شعر مقدمة رأسه. وعندما  
أمسكت يديه أحست بهما يرتعدان، وبعدما نظر إليها طويلاً وتنفس  
بعمق وأغمض عينيه لحظات، قال لها من كل قلبه:

- ياااه.. يا ريم.. وحشتيني جدًّا جدًّا.. هذه السنة التي فرقت بيننا  
أطول من عمري كله.. سنة لا أراك ولا أسمع صوتك.. كثير. كثير  
جدًّا. سنة واحدة كافية لظهور دول كاملة واندلاع حروب واختفاء بشر  
وظهور غيرهم وتحولات كثيرة تجعل من غاب عن الدنيا شهرًا واحدًا  
لا يكاد يتعرف عليها.

سالت دموعها الساخنة في صمت، ثم انخرطت في بكاء لم تقدر  
على كبحه، وما لبث أن تصاعد وعلا النشيج وانتفض البدن. حاول  
ناجحي أن يمنعها. أن يخفف عنها. انهار السد وأغرق العالم بالدموع  
والحزن المتراكم.

- ما بك. فهميني؟.. انتهت تقريبًا فترة التعذيب والإهانة والبهائم  
لم يعد يؤثر. أنت لم تريني من قبل. الآن الوضع مختلف. أنا في أحسن  
حال. يبدو أنك لم تقرأي رسائلي.

ظلت تبكي حتى بدأ المساجين وزوارهم ينظرون إليها في اندهاش  
ويطلبون إليها الصبر وشكر الله والدعاء كي يفك سجنه وتنقشع  
الغمة.



- احمدي ربنا.. المساجين في سجون أخرى لا يستطيعون النوم من التعذيب. الوجبات لا تتوقف ويتبدل عليهم القتلة ربنا يأخذهم.

لم تتوقف عن البكاء إلا بعد أن جف النبع وانتهت تمامًا كل أرصدة الدموع. تمنيت أن يستمر بكأؤها إلى أن تعتصر روحها حزنًا على ما جرى له ولها من اغتصاب وسحق للشخصية جسدًا وقلبًا وشرقًا.. كيف اغتصبها أبوها وجاء بعد شهرين يبحث عن ولده طالبًا أن تبقى له ولد الوحيد. تريد أن تجد الدموع لتبكي رحيل والدتها ورحيل كل الطيبين الأطهار، حتى لم يبق على المداود إلا شر البقر.

تعب ناجي حتى بلغ به الضيق منتهاه وهو يحاول التخفيف عنها إلى أن بدأ يذكرها بجولاتهما ويسألها عن حالة المسرح كما سألها عن حركة 6 إبريل وبعض شبابها.. أقبلت تحدثه وخرجت تدريجيًا من خيمة أساها المتفحمة. قالت:

- إن الحركة زاد أعضاؤها وتواصلت مظاهراتها وتقاربت أيام احتجاجاتها وتسارع غضبها وانضمت جماعات أخرى لها.

أصرت على أن يأكل أمامها بعض ما حملته إليه، فقال لها إنه سيأكل مع زملائه. هكذا اعتادوا، ثم ضحك فابتسمت وسألته عن سر ضحكه.. قال:

- سيقول الزملاء نقسم الزيارة بالعدل. أنت لك الكتب كلها لا يشاركك فيها أحد ولنا الطعام.

عاد يضحك، أما ريم فقد قفز الرعب إلى وجهها وكساه.. لاحظت  
ناجي ما اعترأها من قلق فقال:

- لا تصدقي.. أنا فقط أشاكسك.. بسرعة هرب الرعب من وجهها  
وحلت محله ابتسامة لأن كلامه يدل بشكل أو آخر على نفسية ليست  
في الحضيض.

مضت تسترق النظر إلى المساجين. كانوا في حالة مزرية. يباو  
عليهم الجوع والحرمان.. عيونهم زائغة. لا تكاد تبصر بشكل جيد.  
شعورهم هائشة. أجساد أغلبهم ليست غير جلد يكسو عظمًا.. انحلت  
رأسها رغماً عنها وتنهدت.

سألته:

- ألم يحددوا موعدًا لخروجك.

- لا لم يحددوا.

- والحل؟

- لا أعرف، لكن الوضع لن يطول.

- على أي أساس تقول هذا الكلام؟

- لا أدري بالضبط لكن أخي قال إن أحد الأصدقاء الصحفيين  
بذل جهدًا مع بعض كبار الداخلية للنظر في مصائر بعض مساجين

الرأي. فوعده بأن الموضوع وصل إلى مكتب حبيب العادلي وسوف  
يتخذ قرارًا بشأنه.

- لا أثق في هذه الشريحة من البشر إذا كانوا أصلًا منهم.
- ربنا موجود يا ريم لا تشغلي بالك. يبدو أنني ارتحت لهذا  
الوضع.
- لا تقل هذا الكلام. أنت في الموضوع الخطأ.
- أقصد تكيفت معه إلى حين يأتي الفرج.
- لا يجب أن تفقد الأمل وفي الوقت نفسه حرض كل من يزورك  
لعقل الإفراج.
- أنا سعيد يا ريم لأنك لا زلت قوية.
- مرغم أخوك لا بطل. كنت أود أن أكون طفلة. تمارس الطفولة  
وتستمتع بها حتى نهاية عمرها.
- هذا إذا كانت الحياة بيتًا جميلًا.
- فإذا كانت غابة.
- ليس عليك إلا أن تكوني أسدًا أو فهدًا أو حتى نسرًا.
- المهم ألا تكون نعامة أو قردًا.
- ظهر الجنود فجأة وأعلنوا انتهاء الزيارة. أمسك ناجي بريم. قال  
الجندي:

هيا يا أنسة. انتهت الزيارة.

عزمت على أن تصفعه إذا مسها. لكنه جر ناجي إلى الداخل.. جرت وراءه لتقول - سأفعل المستحيل لكي تخرج من هنا خلال شهر على الأكثر. لن يكون لي عمل إلا محاولة الإفراج عنك. اطمئن.. قال:

- المهم صحتك. أرجوك يا ريم حافظي على نفسك. سلامتك أهم ألف مرة من خروجي.

تنفست بعمق وخرجت مرفوعة الرأس. فوجئت بدمعات قليلة ترشح بها عيناها. مسحتهما ومضت نحو النور والحرية عازمة على أن تفي بما وعدت.. شملها إحساس بأن الزيارة كانت مطلوبة جداً لناجي ولها. الزيارة جددت الرابطة والوعد وخلصت النفس من بعض الأسى المتراكم. غياب الأصدقاء الحقيقيين خسارة فادحة وقد استعادت أعز الأصدقاء. حياة من غير صديق مخلص صحراء قاحلة وغابة دون حماية أو رحلة طويلة بلا أنيس.

لم تغادر ذاكرتها صورة المساجين الذين كانوا في حالة مزرية. صورة نموذجية لمعنى الحرمان. الحرمان من كل شيء.. من الحرية والطعام الإنساني الجيد. الحرمان من الأهل والولد. الحرمان من الزوجة والأنس والأمل. الحرمان من القدرة على تخيل المستقبل. الحرمان من رؤية الطيور والحيوانات والأطفال وجمال الطبيعة. الحرمان من ممارسة الدور الذي يتمثل في جهد العمل والإنفاق على أسرة ودفع الحياة وإثبات الذات. الحرمان من أدنى المتع. الحرمان من النوم الهانئ والأمن. كانت قد سألت ناجي:

هل كل هؤلاء مساجين رأي؟

قال لها:

- بعضهم.

سألته عن النسبة، قال:

- الربع تقريبًا، وهناك عنابر كاملة بها مساجين رأي فقط، وعندما تمتلئ ينقلون بعضهم إلى مساجين الجرائم الجنائية.

ابتعدت عشرات الخطوات وأرادت ألا تركب وتغادر. غمرها إحساس بالرغبة في البقاء بعض الوقت قريبة من ناجي.. سارت نحو كيلومتر قبل أن تجد حديقة رفيعة وطويلة تطل على شارع شبه مهجور. عثرت على دكة خالية من الخشب تحت شجرة ظليلة. نسّمت طرية رحبت بها.. شجعته على البقاء لحظات. تنهدت من أعماقها. عادت تفكر في حالة المساجين ونوعيات أخرى منقوعة في المعاناة وسحق الكرامة.. أشياء كثيرة في الحياة وربما في بلادنا فقط ممتزجة أو متداخلة. في السجن مجرمون وأبرياء. في الدنيا الجمال أحيانًا يتضمن القبح، والقسوة قد تحمل الرحمة. العنف قد تكون من ورائه فائدة أو مصلحة. الأخطاء الفادحة قد تثمر نفعًا أو إصلاحًا. العدل يختبئ أحيانًا وراء الظلم والعكس صحيح. السعادة تكون أحيانًا طريقًا للتعاسة، الثراء ربما يسبب الفقر والعكس.. لا يعلم فلسفة ذلك كله إلا الله وهو في الوقت ذاته لا يكشف عن هذه الفلسفة

ويترك لنا الاهتداء إليها.. فهل نحن جميعًا مؤهلون كي نهتدي أم أن السائد هو افتقاد البصيرة؟

السؤال المحير.. كيف للإنسان الضعيف محدود العقل أن يتعامل مع كل هذه الأمور المتداخلة برهافة وذكاء ينقذه من الضياع وتبدد العمر في مستنقع المشكلات؟

# 16

أشعر منذ نحو عام أنني غدوت مختلفًا. يتملكني إحساس غامض  
بأنني لا يجب عليّ السكوت على من يهاجمني بلا سبب كما اعتدت.  
أنا مستعد للرد على من يوجه لي أسئلة محرجة. لا أعرف السر في  
الشيء لم أعد ذلك الإنسان الخنوع الذي عرفته وعرفني وعرفه الناس  
فيّ منذ الطفولة. واجهتني العديد من المواقف البسيطة التي لم أكن  
من قبل إزاءها أفتح فمي ولو لأوضح خطأ غيري مهما كان ضعيفًا.  
الآن إذا سقط عليّ من شرفة قليل من الماء أرفع صوتي مندداً بمن  
فعل. أسلم حذائي لماسح الأحذية في المقهى كي يلمعه فيعيده بعد  
أن ينتهي منه، فأرده إليه مرة واثنين حتى أرى وجهي فيه مع إغراقه  
ببعض السباب، وكذلك طال المنجي صبي المقهى الكثير من  
السباب وعدد من الصفعات، ولعنت «سلسفيل» جدود من أنجبوا  
شباباً مست سروالي بعض قطرات من مياه خرطومهم. لكن الاجتماع  
الذي جرى منذ شهر في مكتب سكرتير عام المحافظة كان أبرز  
تجلبٍ لهذه الحالة. في مشكلة سقوط أرض في العباسية أثناء حفر نفق

المترو.. مضى المهندسون يزيحون التهم إلى الفنيين الذين القوها على عاتق المقاولين، وهم بدورهم حملوا مسئوليتها للمحاسبين وقام المحاسبون بتوجيه الاتهامات إلينا بحكم أننا نتولى الأرشيف والسكرتارية.. أنا إذن المسئول. لم أكن أتخيل أن الانهيار الذي وقع في شارع الجيش تتحمل مسئوليته إدارة السكرتارية. لزممت الصمت تمامًا وأنا أرى كرة من اللهب تكبر وتتدحرج حتى بلغت مرماي، شرعت الحرارة تصل إلى رأسي وكاد مخي يشتعل اعتراضًا من البداية على أسلوب مناقشة المشكلة التي لم يدرسها علميًا أحد وكان هم الجميع هو البحث عن يمكن تعليق القضية في رقبته.

- سيادة السكرتير العام وسيادة المسئولين الكبار لقد تركتم الحمار وأمسكتم بالبردعة.. لقد...

ثار الجميع فقلت بثقة اندهشوا واندهشت لها:

- لم أقاطع منكم أحدًا وجاء وقتي للكلام.. لقد قمتم بعملية ترحيل الخطأ الكبير الذي تتحمله بالتأكيد واحدة أو أكثر من إداراتكم، لكنكم فعلتم ما فعله بعض القرى عندما تكتشف جثة تطفو فوق الترعة في زمامها فيأمر العمدة أحد خفرائه بدفع الجثة الطافية على الماء حتى تتجاوز حدود القرية بأمتار كثيرة كي لا يتم التحقيق مع العمدة وشيخ خفرائه عن التقصير، ثم تفعل ذلك القرية التالية وتتهرب القرى واحدة بعد الأخرى من الجثة وما أن يطلع الصباح حتى تكون الجثة قد وصلت إلى قرية خامسة أو سادسة. عندئذ تتقدم



منها هيئات التحقيق، فهذا هو الجمل وهذا هو الجمال وعلى عينك يا تاجر.

يقف بعض المهندسين والمقاولين ويزعمون محتجين فلا أعيرهم أدنى التفات، وأستطرد بصوت عالٍ:

- يجب أن ينتهي عهد التلفيق والمداهنة ويجب أن يشرق عهد الصراحة والشفافية. علينا أن نواجه الحقائق ولذلك أتساءل عن علاقة السكرتارية والأرشييف بحدوث شرخ في الأرض أدى إلى هبوط جزء منها. أليست الماكينات الضخمة مسئولة؟ وأليست الدراسات الفنية الناقصة مسئولة؟ ولماذا لا يتحمل خبراء المياه الجوفية التبعات ومثلهم مدير و مرفق الصرف الصحي؟. المكاشفة تعنى الشجاعة وقد نحيناها جانبًا وفضل الجميع الهروب.. لقد تركتم كل هؤلاء واتفقتم على إدارة طيبة ومسكينة اعتادت أن تتحمل وتسكت، لكن إلى متى؟.. إنهم مجموعة موظفين بسطاء يحررون خطابات ويحتفظون بها. ما علاقتهم بالمشروعات؟.. شخص واحد فقط من حضراتكم يقول لي ما علاقة من يكتب على الكمبيوتر بهذا الهبوط؟.. وما علاقة الأرشييفجي بالماكينات والحفر والدراسات الجيولوجية؟ أم يا ترى لأنه يعمل هو الآخر تحت الأرض وفي مكتب مظلم وبئس وبعد أن أضاع عينيه في العمل الدقيق اكتشف أن أحدًا أغلق عليه الباب فبحث عن فتحة يخرج منها فسار تحت الأرض من عابدين إلى شارع الجيش

بما يقرب من أربعة كيلو حتى وجد منطقة يمكن أن يخرج منها فهد  
فيها حتى حدث الهبوط.

- أرجوكم.

ضرب السكرتير العام المكتب بقبضته رافعاً صوته جداً على عاداته  
ومكشراً في وجوه الجميع الذين اقتحمت عيناه وجوههم:

- لم نجتمع كي نخطب في الجماهير يا أستاذ مرسى. كلامكم  
كلكم خارج الموضوع وليست له أية صلة بالحقائق. المشهد حتى الآن  
يشير إلى أننا جئنا لنطبخ حللاً لا لندرس مشكلة في منتهى الأهمية.  
مصر كلها تنتظر حقيقة ما جرى فيما يخص الهبوط وأسبابه وموقف  
المحافظة من المسؤولين عنه. سيادة المحافظ ينتظر على التلفون.

أحسست أنه يساويننا بالجميع في الخطأ، فقاطعته:

- حضرتك راضٍ إذن عن الاتهامات الموجهة لإدارة لا علاقة لها  
بالخطأ.

لم يلتفت ناحيتي وقال بحدة:

- انتهينا. ترفع جلسة اللجنة الآن ويعاد انعقادها الساعة السابعة  
مساءً لتحديد المسؤولية وأريد أسباباً محددة أو إحالة الموضوع كله  
للتحقيق القانوني والفني.

مهما كانت النتيجة فقد شعرت بالانتصار إذ دافعت عن إدارتي  
ولطمت المنتفعين على وجوههم، والأهم أنهم لن يتعاملوا معي على

أرى كم مهمل وبلا رأي وأقبل دائماً ما ينتهون إليه، والأكثر أهمية أنني واجهت نفسي المتخاذلة التي تجيد الهروب والاختباء. شيء غريب ومفاجئ وأنا به سعيد وسوف أحاول تنميته ومد الخط على أقصى استقامته. ها أنذا لأول مرة أتكلم. أعبر. أثور وأهجم. رائع.

بلغني في اليوم نفسه أن وظيفة مدير المشتريات خلت بخروجها عنها الأستاذ منيب نهاية الشهر للتقاعد. كانت مثل هذه الأمور لا تعنيني البتة. فجأة قررت أن أشغل هذه الوظيفة التي لن توافق لجنة الترقيات على تسكينها فيها. شيء ما بدأ يعمل بداخلي كأنه شخص آخر لديه صلاحيات كي يفكر ويتصرف. هدية فخمة لمدير لجنة الترقيات ومثلها لسكرتير المحافظة وأحسن منها للمحافظ شخصياً، أما هدية زوجة المحافظ بمناسبة عيد ميلادها الذي لا أعرفه فكانت رائعة حقاً. وبعد أسبوع كان القرار قد صدر.

نصر يستحق الاحتفال.. شرب كل من كانوا في المقهى ما يشاؤون على حسابي.. قال المعلم ترسة صاحب المقهى:

- مبروك يا ريس ما المناسبة؟

- دون مناسبة.

- لا بد هناك مناسبة.

- حالة جاءني فجأة أن أقدم تحية لأهلي في المقهى.

قال بعض الحاضرين:

- لا بد نعرف كي نبارك ونرد.

وقبل أن أجيبهم، قال البعض:

- يعني زواج. نجاح. طهور.

ضحك الجميع فأقبل البعض الآخر يسأل:

- انتخابات. حج. عمرة. خروج من سجن. طلاق.

تجدد الضحك، حتى قال سميح وهو رئيس قسم السجل المدني الذي أحيل إلى المعاش مؤخرًا:

- على كل حال شكرًا وألف مبروك وعقبال كل مرة.

لا بد أن يكون هناك سر. نفسي تحدثني بأن اهتمامي بقراءة الصحف له دخل. لقد أصبحت في الفترة الأخيرة متابعًا جيدًا لما يجري في الساحة السياسية خاصة مع كثرة المظاهرات وما تصرح به صحف المعارضة.

وأظن أن حديثي في التلفزيون حفزني على ذلك، فقد قابلتني في الشارع مذيعة وسألتني عن رأيي في التعليم المصري فوجدت نفسي أقول لها:

- التعليم في مصر لم يعد تعليمًا. أصبحت المدارس تخرج لنا جهلة وبلطجية، والمدرسون لا يهمهم التعليم ولكن يهمهم الحصول

على آلاف الجنيهات شهرياً من الأولاد، والفصل الواحد يوجد به ثمانون تلميذاً وأكثر، وهناك قرى لا توجد بها مدارس، وعندما سألتني: من المسئول. وجدت نفسي دون أن أقصد أقول:

- الرئيس مسئول والوزير مسئول والبرلمان مسئول والمدرسون مسئولون والإعلام مسئول والمجتمع مسئول.

قالت المذيعة فجأة:

- شكراً يا أستاذ. كلام مهم.

- متى تذيعون وعلى أي قناة؟

- نحن القناة الأولى وسنذيع غداً الساعة السادسة برنامج «فكرة لبقرة».

- اسمك.

- وداد حمدي.

- هل تعلمين أنني أحب وداد حمدي جداً؟

- الممثلة.

- الفنانة الكبيرة.

ضحكت المذيعة التي عانيت طويلاً حتى أهرب بعيني من وجهها ذي الملامح العجيبة وصوتها الذي يشبه صوت عنزة تبحث عن أبنائها، قبل أن تغادرني، قلت لها:

- إذا لم تدع فقرتي سأرفع عليكم قضية.

- اطمئن. ناس كثيرة أكثر منك جسارة وننشر كلامهم.

أذيعت الفقرة وكنت قد نسيت الموضوع، لكن عددًا كبيرًا من الزملاء والجيران أبلغوني.

- كنت هايل يا أستاذ.

قد يكون للخمر تأثير في فك عقدة لساني ومنحي بعض الجراءة، لكن التغير فيما أظن بدأ بالضبط بعد الحادثة السخيفة التي تورطت فيها مع ريم.. لا أدري ما الظروف وما الحالة، لكنني كنت بالتأكيد أعمى واقترفت أكبر خطأ في حياتي أرجو من ربي أن يسامحني عليه فلا بد يعلم لأنه عالم الأسرار ولا ذنب لي.

كان هشام الزملي يزورني كثيرًا في نومي وصحوي بخياله وفكره وأناقته ولغته وشاربه الرفيع جدًا. تمنيت أن أقلده، لكنني فوجئت كما قال بأن ذلك من رابع المستحيلات. انتهيت إلى أنني ما دمت لا أستطيع أن أقلده في كل ما يتسم به فعلي أن أقتبس وأتشبه. ما لا يدرك كله لا يترك كله. قررت إذن أن أبدأ بالبسيط مثل مسألة النيولوك وخاصة حتميتها بصرف النظر عن هشام لأنني أريد اجتذاب دلال وأم دلال وأبي دلال إذا كان حيًا. كيف أطمع في الزواج بها وأنا كما وصف المصيبة التاريخية هشام مجرد برغوث، فكيف أتحول إلى

المسفور. خلال أسبوعين أصبحت عصفورًا ورجع عمري على الأقل عشر سنوات. إدارة المشتريات فتحت أبواب الخير على مصاريعها.

- سر ك باتع يا هشام وكلامك منتهى الحكمة، إذا تحققت لي آمالي فسيكون هذا الرجل المنحرف صاحب الفضل الأول عليّ وسأذكره ما حييت.

في أول زيارة إلى «فواكه جبريل» بعد النيولوك رحبت بي أم دلال وأصرت على دخولي المحل، وكنت حريصًا على أن أشتري كل يوم كيلو من الفاكهة، وتبادل الحوار مع صاحبة المحل التي علمت أن زوجها مات رحمة الله عليه كما حرصت على أن أبدي بعض الاستعداد لتقديم أية خدمة، واستطعت إنجاز بعض ما طلبت وفهمت أن لها أصدقاء في قسم الشرطة وبعض المعاونين في السر من الفتوات.

أشارت لي على صورة زوجها المرحوم جبريل معلقة على الجدار فوق سباطات الموز الأخضر. لفت نظري شكل الرجل وعبث بذاكرتي. أظن أنني التقيته يومًا. ملامحه غير مريحة. ذهب وجاء داخل أروقة عقلي دون أن ألتقط مناسبة التعارف، وفي المساء وأنا ممدد على السرير أدخن سيجارة وأشرب آخر كوب من الشاي قبل النوم تذكرت الرجل.. إنه الملعون الذي سرق مني الألف جنيه منذ نحو خمسة وثلاثين عامًا وأنا خارج من البنك ولم أستعدها إلا

بمعاونة صفوت أمين الشرطة وزميل الدراسة. اقشعر شعر جسمي كله ونهضت مرتعدًا. وقف أمامي حيًا في صورته القديمة حيث كان هناك قطع طولي في صدغه ولم يظهر في الصورة. يوم من أسوأ أيام حياتي. تذكرت أن المبحوم وليس المرحوم قابلني عدة مرات بعد إعادة المبلغ واعتدى عليّ مرتين وهربت منه في الثالثة، وكان دائمًا يقول لي:

- لن أتركك ما دمت حيًا. لم يفعل معي أحد ما فعلته. أول مرة فأر يلبس الأسد طرحة.

ألزم الصمت ولا أحيِر جوابًا ولا أستطيع أن أحرك أصبعًا واحدًا من يدي في وجهه لأن المديّة جاهزة ويستطيع اختطافها واستعمالها خلال جزء من الثانية.. ظل لسنوات عدوي الوحيد الذي يعكّر صفوي ويهدد حياتي ويزورني في منامي كثيرًا ويسيل الدم من رقبتني وذراعي وأحيانًا من جبهتي وأحيانًا يطرحني أرضًا ويضع حذاءه على رأسي ومطواة في رقبتني وأنا لا أدري السرف في أني لا أستطيع حتى أن أشكوه لأحد من العائلة أو الأصدقاء ولا حتى لصفوت الذي قال إنه أخذ عليه تعهدًا بعدم التعرض لي، وقد زاد تعرضه لي بعد أن أخرجه صفوت من جحره واسترد مالي. لكنه اختفى تمامًا من طريقي. سألت نفسي مرات:

- كيف أتزوج من ابنته؟.. سيظل دومًا بيننا.



مضى وقت وأنا أَلْف وأدور في الشقة. أقف وأستند إلى الجدران وأدخن وأحاول تقييم المسألة وتصور عواقبها. ماذا لو أصرت دلال على وضع صورة والدها في الشقة؟.. أي لابد أن أوقع بالحضور والانصراف كلما مررت من أمام صورة سعادته.. وماذا لو طلبت تعليقها في غرفة النوم؟.. هذا لا يكون أبدًا. تساءلت فيما يشبه السخرية:

- هل أنتقم منه فيها؟.. أي، هل أحبها أكثر حتى يتألم في قبره وفي جهنم التي سيكون أحد زوارها المهمين. هل ألتهم جسدها عشقًا فيتمزق كبده كمذاً وغيظًا؟

لا. لن يمنعني اللص المسجل خطر من زواجي. سأمضي قدمًا في مشروعي الذي لن يشغلني غيره.. عليّ نسيانه تمامًا وتجاهله كأن لم تقع عليه عيني يومًا وكأن لها أبا آخر. عليّ التركيز في مشروعي الذي يتطلب التقرب إلى قطعة الحلوى المحشوة بالفستق والجيلاتي والكريمة وأجمل ما خلق الله. يتعين عليّ إهداءها لبعض الهدايا البسيطة. لكن الطريقة المثلى تكمن في محاولة مقابلة دلال وحدنا. يجب أن يتم ذلك بسرعة حتى لو خطفتها. أنا بحاجة ماسة إلى أن تعرفني بدرجة كافية. سأتحول إلى أراجوز حتى تقع في غرامي وترفض كل شيء في الدنيا إلا أن أتخلي عنها. يجب أن أصبح أنا صاحب الكلمة الأولى عليها وليست أمها.. بعد جلستين أو ثلاث أستطيع أن أغزو قلبها.

قبل أن أبدأ أولى محاولات إغوائها رأيت أن أشتري سيارة كاسرة الزيرو أي مستعملة لكن بحالة جيدة جدًا وماركة مشهورة. استعنت بشهدي ابن حسين البنهاوي نسيبي. لم يمر شهر حتى فاجأني بسيارة فولكس جولف موديل 1999 بثلاثين ألف جنيه. إدارة المشتري باعها سرها باتع. احتاجت لتكون عروسًا خمسة آلاف جنيه. كانت بها خبطات خفيفة من الخلف والأجناب، وتطلب الأمر شحن التكييف وتجديد الفرش والعجلات وتركيب إطارات حديثة وجهاز تسجيل وسماعات تناسب جميلة الجميلات.

كنت أتغير كل يوم من أجل العروس وأنها طبعًا لأن كل المفاتيح معها. أعلنت لهم أن السيارة سيارتهم وأي شيء يطلبونه تحت أمرهم. السيارة وصاحب السيارة. اصطحبتهم مرة لزيارة مريضة قريبتهم ومرة لتحصيل أموال للأم على تاجر جملة في القناطر ومرة لزيارة طبيب أسنان في باب اللوق. ولم أقصر يومًا في غمرهما بالهدايا البوابة السحرية للنقر برهافة وهمس على قلوب النساء.

أظنني عبت الطريق بما يكفي ولم يبق إلا أن أعلن عن رغبتني. ملت على كريمة التي أخافها أكثر من زوجها، وكانت تسحب الأنفاس من النرجيلة وتدخلني في سحابتها الكثيفة فأختفي. يبدو أنني اخترت وقتًا غير مناسب. شكلها مشغول. نظراتها تدور في الشارع وتتسلق الجدران وتدخل الشقق وتلتقط النظرات المطلة من عيون لا تغادر

الملك والشرفات. سألتها عن الصحة والأحوال فلم ترد. كانت أذناها على سفر. أعرف أنها تسمع دبة النملة وبقايا مكائد المماليك الذين سكنوا المنطقة منذ عدة قرون.

مر بائع العرقسوس الذي كان يعزف لحنه التقليدي بأطباقه النحاسية ويلتف بملابسه البيضاء المعهودة. قميص وبنطلون بحجر كبير، ضيق عند الساقين، وفوق القميص درع جلدي أسود. على بطنه سنقر القدرة النحاسية الكبيرة وتحتها يلتف حزام معدني حول خصره معلق به الأكواب، وعلى رأسه طربوش أحمر قادر على اصطیاد كل العيون. ينادي:

- شفا وخمير يا عرقسوس.. يا طري على القلب ومروق البال يا عرقسوس.

ناديته وطلبت كوبين كبيرين. رفضت بتبرم.. قلت لها:

- ورحمة الغالي الأصيل جبريل لشاربة.

قالت بأسى:

- الله يرحمه ألف رحمة.

- صب يا ريس.

مال الرجل الأثري قليلاً بالقدرة فانطلق من «البزبوز» خرطوم من المشروب البني المضيء الذي تداعبه الشمس وتكاد تلغقه. امتد

الخرطوم لنحو المتر وهو مصوب بحرفية نحو قلب الكوب. تسلمت الكوب بيدي من البائع وقدمته لها بينما تتابع عيني تاج الرغوة الذهبي العالي الذي يزين قمة المشروب. صب الرجل لي كوبًا تجرعتة عار عجل ومسحت شفتي بظهر يدي، ولما انتهت طلبت لها كوبًا لاني فرفضت بشدة.

قررت أن أنقض وأختطفها من مشاغلها وأسفارها. قلت بتواضع شديد ومسكنة:

- سأصرف الآن ولو أنني كنت أريدك في موضوع مهم.

قالت بربع اهتمام:

- تفضل.

تفضلت وأبنت عن أملي أن توافق على أن تكون سبب سعادتي، وبوابة هنائي.

- ما الموضوع يا مرسى أفندي.

رأيت ألا ألف ولا أدور. لا بد من قطع العرق وإسالة الدم.

- طالب يد دلال.

- لمن؟

- لي طبعًا.

سحبت المرأة الدولة أو المرأة الذئب نفسًا طويلًا من النرجيلة  
وارسلته إلى السماء ثم تنهدت وتابعت المارة دون أن تعيرني التفاتًا.  
لمت ملامحها حيادية كأنها لم تسمع شيئًا وكأني غير موجود. لم تفرح  
ولم تحطم كرسيًا فوق رأسي. ربما كان الوضع المهمومة به متأزمًا  
بدرجة كبيرة. لم أسمح لنفسي بالتأجيل. الفرصة تتاح مرة واحدة،  
وهذا وقتها. لا يفل الحديد إلا الحديد. لن أسمح للآخرين أن يحددوا  
مهيري وقت يشاؤون. زعقت على بائع التوابل الذي طالت وقفته  
أمامنا وينادي عاليًا على بضاعته قائلة له:

- غور من هنا يا واد يا شطة.. الرزق يحب الخفية.

- حاضر يا معلمة.

تنهدت بعمق ثم طلبت يومين للتفكير.. ظللت جالسًا.. كحنت  
وبصقت بلغم الدخان من صدرها كأنها تود مني الانصراف.. قلت:

- أطمع في كلمة منك.. أنت الخير والبركة.

- لا بد من سؤال خالها.

- أذهب إليه بنفسي وأسأله.

- أجازة من الشوارع يقضيها في سجن أبو زعبل.

- هل يعمل هناك؟

- تم الحكم عليه بمؤبد. من سوء حظه استعان به شخص طالبا  
الانتقام من آخر في بني سويف. قام بالتنفيذ لكنه فشل في الهرب  
كثيرا ما قتل ولم يقع أبدا.

- قاتل محترف إذن.

- أكل عيش يا خويا.

شعرت بالصدمة إذ وضعت حماتي مصير سعادتي ومستقبلي في  
يد قاتل محترف. قلبي يقول إنه لن يوافق، أما عقلي فيقول إنه سيحصل  
في وجوههم ورأيي أن أم دلال لن تجسر من الأساس على مفاتحه  
لكن القاتل المحترف - وبالعجب - وافق على زواجي بدلال  
وأعلنت لي الخبر.. طلبت شقة بأثاث جديد لم يمس من قبل. أشرفت  
إلى عيني وأنا أكاد أطير ولا أكاد أصدق:

- من عيني الجوز.

بدأت قصة حب أسطورية يجب أن تسجلها الكتب، وينقل  
حكايتها التلفزيون وتتناقلها الأجيال على أن تبدأ بمشهد درامي مؤثر  
وهو يصورني حاملا باقة كبيرة من الورد وكرتونة سجائر داخل السجن  
ومتقدما من خال العروس ومتلججا أشكر له تعطفه بالموافقة على  
زواجي من بنت أخته، فيقول لي:

- من أنت؟

في منتصف الليل عدت إلى شقتي الصغيرة التي أستأجرها من  
 رسة صاحب المقهى قريبًا من صديقي رمسيس فنان التحف الخشبية.  
 هاملاً نصف كيلو كباب وكفتة شاعرًا بالجوع الشديد. انتهيت من  
 التهام اللحم الذي قررت الإكثار منه لإعادة تكوين جسدي النحيل  
 وزيادة الإقبال على تناول كافة الأطعمة التي تنشط البدن وتقوي  
 الأعضاء وتجدد الأنسجة. حضرت أمامي صورة جبريل والد دلال  
 المعلق في دكان الفاكهة، وسرعان ما غادر الصورة وعاد به العمر  
 سنوات لأراه من جديد كما كان في مقتبل عمره الإجرامي. اختفى  
 فجأة وحل محله العراف الذي قال:

- لم أكن أيها الساذج أقصد والد ناجي الذي ستتزوج ابنته، إنه  
 جبريل عدوك من ستتزوج ابنته.

اتجه نحو ستارة المطبخ. نفذ فيها. قفزت وراه فلم أجده.. شعرت  
 بثقل في مؤخرتي فدخلت الحمام ومضيت أفكر في الموقف.

تم كل شيء وذهلت كل العقبات. البنت لا أستطيع تركها حتى لو  
 كان أبوها قاتل أبي. لكنه سيظل دائمًا حاضرًا بوصفه عدوي الشرس.  
 صحيح أنه غادر الدنيا تمامًا ولن يظهر في مستقبلي، لكن العرق  
 دساس دخنت عليه سجائر كاملة، وأشرق الصبح فوجدني على  
 الحالة ذاتها منذ أكلت الكباب. لا مفر من الزواج بدلال ابنة كريمة  
 الوحيدة. داخلني إحساس بأن زواجي منها تعويض لي عما ألحقه بي  
 أبوها من إهانات وإساءات وترويع ورعب كان يستمر مصاحبًا لي

في ليلي ونهاري لعدة أيام بل لعدة أسابيع، بل كنت أتخيل في أحيان كثيرة أنه هو الشخص القادم في مواجهتي من بعيد فينتفض قلبي بشدة ويتخبط بين ضلوعي وأحاول الانحراف إلى شارع آخر أو الاستعداد لمواجهته ولو بالتقاط حجر من الأرض، ثم أكتشف بعد قربه إنه شخص آخر. كيف أتيج للعراف أن يدرك ذلك قبل ربع قرن على الأقل حتى لو كان من أولياء الله الصالحين؟ فهل منحه الله منحة نادرة وهي أن يكشف عنه الحجب؟! هذه المسائل ما تزال غير مقبولة ولا معقولة ولم ترد بشأنها أية إشارات في أي كتاب مقدس، ولو ذكرت ولو بالتلميح لانتشرت وما قيل عن العرافين: كذب المنجون ولو صدقوا. لكن حالي ليست مجرد صدفة. أيًا كان الأمر فلن أتخلي أبدًا عن دلال وكريمة.

أمسكت نفسي عدة مرات متلبسًا بالتفكير في جسد كريمة الجميل وعودها الممشوق ووجهها المشرق وملامحها الفاتنة التي لم يؤثر فيها مرور السنوات. فكرت فيها جنسيًا وجمع خيالي فرأيتها بين أحضانني وكلانا منجذب للآخر. مخلوق نادر.. سيدة لها جمالها وشخصيتها ورجالها وتأثيرها وسمعتها المدوية والمرعبة أحيانًا، فلا يبدو كثيرًا أنها شرسة أو عنيفة لكنها حسب المعلومات الجديدة وحش متنكر في صورة أنثى. أكدت لي كل المصادر أنها تحكم الحمي كله بل وبعض الأحياء الأخرى فيدها طويلة، وقد تحتاج إلى إرسال رجالها لخطف ابنة خصم من الخليفة أو السيدة عائشة، وقد اقترفت



مثل ذلك في أحياء بمحافظة الجيزة. فيصل والهرم وبولاق الدكرور  
وأرض اللوا والصف ونزلة السمان.

علمت أن الرجل الذي خرج عليه عدد من الرجال فمزقوه وتركوا  
جثته تنزف في الشارع قبل أسبوع كان قد سبها ورفع صوته عليها  
ووشى لخصومها تطاولها عليهم. وقد كان من رجالها مجموعة  
الباطنية الذين قتلوا عميد الشرطة في مكتبه. كانت حادثة شهيرة ولم  
نعثر الشرطة على القتلة رغم الجهود الخرافية التي بذلوها على مدى  
عامين للثأر لرئيسهم وقبض إبان الحملة التي اقتحمت كل مكان على  
أحو ثلاثمائة رجل وامرأة منهم عشرة من رجال كريمة.

لم تكشف لي شيئاً من ذلك، وعندما أسألها عن أن الناس  
يقولون:

- أنت لست معلمة فقط أو فتوة.. أنت دولة.

تضحك نصف ضحكة تجمع بين الرضا بالصيت وبين السخرية،  
وتقول:

- دع الملك للمالك. الناس تهوى الإشاعات.

- لكنني أثق بمن..

- لا تثق بأحد. أنا عن نفسي الله وكيله.

- لا أقصد لا قدر الله الإهانة.

- عليك نور. المهم ألا يمسك شيء مخل بالشرف وخلي الناس تسلى.

كان محمد كامل شقيق مرسي يعمل بهمة مع عماله في تجهيز أثاث أخيه وعروسه.. كان مرسي سعيدًا بوقفة أخيه كامل، إلا أن كريمة داهمته قائلة له:

- طلبي الوحيد شقة لبنتي تمليك.

- سنأخذ إيجارًا جديدًا مؤقتًا إلى أن..

قاطعته ببطء وحسم:

- شقة تمليك.

- يا حماتي الشقة التمليك لا تقل عن ثلاثمائة ألف.

- ولماذا لا تسكن ابنتي في شقة بمليون.

لم يبق معي مليم واحد بعد شراء السيارة ونفقات النيولوك والهدايا اليومية للعروس وأمها. دخلنا في حارة سد وطريق مظلم تمامًا. هذه قضية من القضايا التي لا تحلها المحاكم ولا مجلس الأمن ولا يخفف من قبضتها قرض. البنك لن يعطيني في أحسن الحالات أكثر من خمسين ألف جنيه بالكاد نشترى بها مطبخ أو لوازم حمام. استعنت بدلال كي تخرجني من الورطة، فقالت بصوت وحكمة أمها:

- يا واخذ الصُّغَيْرِ يا حرامي السوق.

- يا دللوتي الغالية لن أقصر معك في أي شيء ولك في رقبتي  
أجمل شقة ولكن اصبري علي ستة أشهر فقط حتي نوزع الميراث.

- تفاهم مع أمي طالما أنا ما زلت في حضنها فهي صاحبة الكلمة  
الأولى والأخيرة والعصمة بيدها.

بدلاً من أن أضحك من لغة دلال كدت أبكي. هذا معناه أن الأبواب  
مغلقة بإحكام. كان لا بد أن أقدم على محاولة أخيرة. ابتسمت وبسطت  
وجهي بحيث تلين الملامح المنقبضة، وقلت:

- كنت أحسبك تحبينني كما أحبك.

قالت بحيادية قاتلة:

- الحب لم يأت بعد. أمي قالت لك تزوجي مرسي. سألتها:  
لماذا مرسي بالذات؟. هناك غيره كثيرون. قالت: هو من سيعرف  
قيمتك ويلبي كل طلباتك.

- ماما عندها حق. سألبي كل طلباتك.

- ما المشكلة إذن؟

- الشقة التملك.

- هناك عمارة جديدة في شارع سينا ليتك تسرع بالحصول على  
شقة بها.. موقع رائع.

- أقول ثور تقولين احلبه.
- ما هذا المثل البلدي؟
- هل في الأمثال بلدي وأفرنجي؟
- ما يناسبنا هو المثل الذي يقول: خذ الجميل واقعد في ظله.
- فأين ستسكن أنت والجميل؟
- في شقة على النيل.

ضايقتني جدًا الحوار معها وكشف لي طبيعة عقلها المبرمج،  
 مريومان وأنا في حالة شرود كاملة لا أدر على التقدم في حل  
 المشكلة نصف خطوة.. ومما لي أخي كامل عن مقاسات الحجرات  
 حتى يضبط عليها الأثاث ويرسمه تبعاً للأعمدة والأركان والزوايا  
 والمداخل والنوافذ وعدلة الأبواب، وأنا أتهرّب أو أقول له، لا تشغل  
 بالك بالمقاسات، اصنعه كما لو كان سيعرض في المعرض لمن يحب  
 أن يشتري. يقول: أنت صاحب الورشة والمعرض ولن نستعد لفرح  
 ولا لأثاث شخص أعز منك.

تزداد تعاستي كل يوم. طارق بن زياد يطاردني. دلال من ورائكم  
 والشقة من أمامكم ودلال تقول إنها والشقة كيان واحد. وجهان لعملة  
 واحدة. عرفت منها في أحد اللقاءات أن الشقة التملك كان أمراً من  
 خالها القاتل المحترف الذي يقتلني دون سكين أو مسدس.

بعد يومين وقعت عيني على صورة ريم في الجريدة وخبر عن قيامها ببطولة مسرحية «شهر زاد» لتوفيق الحكيم. ضربت المكتب بقسوة. كيف فاتني أن أعقد اتفاقية مع ريم كي تترك الشقة لي؟ وتؤجر هي شقة صغيرة ومستعد لدفع إيجارها الشهري. أسرعت إليها في البيت وعرضت عليها فكرتي. رفضت بشدة. عرضت عليها أن تسكن في شقتي القريبة إذا لم تكن تود مغادرة الحي. رفضت بشدة وطردتني بقسوة لم أتوقعها. الدنيا تزداد ظلامًا. وصدري يختنق.

عاتبني شهدي وكامل لأنني طلبت منها مغادرة الشقة لأتزوج بها. أوضحت له الأمر ببعض الكذب.

- الظلم حرام. البنت تقدم لها عريس متريش. يريد لها أن تقبل دون أن يتكلف أهلها مليماً ولا تحمل معها إلا شنطة ملابسها، فطلبت منها الشقة لأتزوج فيها. رفضت وطلبت الاحتفاظ بها فلا تضمن الرجل، ولا تعلم شيئاً عن طباعه.

ظلت مشكلة الشقة قائمة حتي قصصت الموضوع على الحاج حسونة زميل من زملاء المقهى. لا أنكر دهائي وخبثي، فقد كنت أعرف من المعلم ترسة أن الرجل رغم أنه فاعل خير وحسن اللفظ ويحج كل عام إلا أنه فتوة وتاجر مخدرات ويتبعه عدد من البلطجية وما فعل الخير إلا ستار.. سحب نفساً طويلاً من النرجيلة ثم أطلق دخانه بعد أن احتفظ به قليلاً في حلقه ثم قال:

## - المطلوب .

كشفت له المطلوب، وأكدت عليه أنني سأشارك بالسيارة وأتحمل كافة المسؤوليات المترتبة. ناقشني في التفاصيل وناقشته.. أوضحت له أن العملية لن تطول. أسبوعان على الأكثر وتعود المياه إلى مجاريها. اتفقت مع أحد المقاولين المتعاملين مع المحافظة على أن يكلف عددًا من عماله المهرة لتجهيز الشقة لزواجي في مدة لا تتجاوز أسبوعًا بعد أن نقل كل ما فيها إلى شقتي الصغيرة القريبة من شقة رمسيس، أدى العمال المهمة على أحسن وجه.. في اليوم المحدد تم الزفاف البسيط دون احتفال. أقنعت دلال أولاً ثم أمها بأننا سنقضي شهر العسل في أوروبا ولا داعي للنفقات والولائم الفارغة:

- يجب أن تشاهدي العالم وتركبي الطائرات والبواخر وتذوقي كل الأطعمة الغربية وتعيشي حياة حرة نظيفة.. نحن هنا نعيش تحت الأرض ومن حقلك الخروج إلى النور وأن تفرحي بشبابك..

كان هذا بكل تأكيد زواجي الأول. أول مرة أتذوق طعم النساء. في اليوم التالي سافرنا إلى الإسكندرية لقضاء أسبوع عسل. وفي الأسبوع التالي سافرنا إلى تركيا غربًا ثم تايلاند شرقًا. بدا بجلاء انبهار دلال بالمناظر والمعالم والتزهات والمعابد والمتاحف والمباني.. الشوارع والناس وأنواع الطعام والشراب.. نحن بإيجاز شخصان مختلفان.. الانحراف مهما كان سعى السمعة فله ميزات لذيذة، كما أنه يفتح الآفاق ويوسع المدارك ويزيد من العلاقات ويساعد جدًا في

استنفر البديهة.. كنت أسير في الشوارع كأنني أطيروم معي عصفورتي التي اخترت لها الملابس الجديدة رائعة التصميم ومجنونة الألوان وكثيرة الفتحات.. ألقيت بنفسي ومعني دلال في البحر.. بحر الدنيا اللعوب والبنية تلهث ورائي مشبوبة ومحمومة تبتلع كل ما أقدمه لها ويزداد ترحيبها بالجنون كلما شاهدت في المساء الصور التي التقطتها لها ونحن أحيانا غارقان في مياه النوافير وفي الملاهي وفوق الجمال والخيول وفي ملابس المهرجين الملونة والطراير والحمام معلق برؤوسنا وأحيانا الثعابين والقنافذ وأشبال الأسود والقروود.

شهد أول يوم بعد عودتنا خطوة مهمة على درب الصعود الحتمي. الصعود الذي لا مفر منه. كان لابد أن تمر يا طالب الشراء والحيثية من بوابة حزب الرئيس. الحزب الوطني. انضمت إليه وشاركت في لجانه بحماس وأمكن خلال أسابيع أن ألفت الأنظار.

لاحظت إحساسي بالقوة والصلابة. حالة لم أتمتع بها وأنا في عز شبابي. ما علاقة الجنس بحالتي الجديدة؟. أشعر بأنني قادر على ضرب رجلين في وقت واحد. أشارت دلال إلى شيء من ذلك:

- ما بك؟.. ألم تلمس امرأة من قبل؟

ابتسمت متفاخرًا وساخرًا:

- أوه.. لمست العشرات.

- ألم تشبع؟

- لم أشبع أولاً وثانياً أنت غيرهن.

- كنت أحسب أنك لن تقوم لك قومة.

هجمت عليها وأنا أسألها:

- وماذا وجدت؟

حاولت أن تفلت وهي تضحك بغنج، فقبضت عليها. تلوت البلطية وانزلقت مبتعدة لكنني عاودت الإمساك بها وإحكام السيطرة عليها فاستسلمت وغمزت بعينها، فضممت جسدها المنتفض وفتحنا مجدداً صفحة ملونة من صفحات الغرام المجنون.

\*\*\*



# 17

تقطع السرير عندما استدارت وغيرت رقدتها. نقر السرير أذنها. كانت غائبة ومجهدة. تسرب إلى عقلها خيط رفيع جدًا من الوعي يسأل عن سر الطقطقة. سقطت مجددًا في بئر النوم العميقة. تسلل النور في الصباح من خصائص النافذة الخشبية. كانت خطوطه المشعة قوية وناصعة. استيقظت دون أن تفتح عينيها. أحست بالضوء المنصب عليهما. بالكاد وضعت ساعدها الأيمن فوق وجهها لتحمي العينين من هجوم النور.. كان بدنها محطوطًا ولا تجد مبررًا أو قدرة على تحريك أي عضو. لم يتبرم السرير. الصمت شامل بصورة مريبة. حلقت أذنها في الفضاء السمعي. وجدته خاليًا تمامًا من الأصوات المعتادة للبااعة والأطفال والنسوة والمحلات وأجهزة الكاسيت التي تبث الأغاني. كان الصغار أحيانًا يقذفون الكرة بأقدامهم في الأبواب الصاج لدكاكين لا زالت مغلقة ليصدر عنها صوت معدني عال يستفز الأعصاب.

هبت فجأة من استرخائها الكسول. طقطق السرير. أدركت على الفور وقبل أن تفتح عينيها أنها ليست في حجرتها. لم تقع عيناها على الستارة الخضراء المرقطة بالزهور الصفراء التي صنعتها بنفسها وعلقتها على الشباك منذ أسبوعين فقط. تطلعت إلى الجدران الرمادية الكالحة. ارتاعت لأن حوض غسيل صغيرًا متسخًا بالحجارة التي تنام فيها وفوقه صنوبر صدئ اقتحما عينيها. التفتت بسرعة إلى الوسادة التي عانقتها وتقلبت عليها رأسها وربما دفست فيها وجهها لمدة عشر ساعات على الأقل. كانت ممزقة وقماشها متفرح تنتشر عليه بقع وعرق رجال عطن. وكانت مثلها الملاءة.

انتفضت كأن ثعبانًا يهاجمها. لمحت طاولة حديدية عليها طبق به خبز وجبن وإلى جواره زجاجة ماء بلاستيكية منقوشة ببصمات الأصابع القذرة. أرسلت نظراتها إلى السقف. كانت قشور الطلاء متدلّية، وفي الأركان بيوت كثيرة لعناكب عملت في دأب حتى تدلت شباكها البنية إلى منتصف الجدران كالحة الزرقة.

تقدمت من النافذة الوحيدة الخالية من الزجاج. حاولت فتحها. لم تستطع. الباب لا يفتح. بدأت مشاعرها وأفكارها تغادر منطقة البحث إلى الدهشة ومن التأمل واستنطاق الذاكرة إلى الثورة. الغد لا يستغني عن أمس. آخر موقف تذكره خروجها من مسرح السلام بشارع قصر العيني وركوبها سيارة أجرة. كان ذلك نحو منتصف الليل. بعد دقائق أشار شخص للسائق، قائلاً: السيدة؟

سألها السائق: ذاهب إلى السيدة .. هل يمكن أن يركب معنا يا  
استاذة؟

قالت: لا مانع.

قبل أن يصل كوبري السيدة. هاجمها الراكب بمنديل وسرعان ..  
قالت في أعماقها: مؤامرة إذن .. هل الشرطة وراء هذا؟ .. هل أحد  
من زملاء المسرح؟ .. هل يكون قد تم اختطافي بطريق الخطأ؟ .. إلى  
أن يحدث التصحيح ماذا سيحدث؟ وإلى متى الانتظار؟ .. قد لا يعنى  
أحد أن يقدم على التصحيح خشية التعرض للأذى. موقف غريب.  
خاصة أنني أعيش وحدي ولا أندمج بدرجة كافية مع الحي. وكيف  
أندمج وأنا دائماً مشغولة. عملي مختلف. لست اجتماعية ولا تربطني  
بنسوة العمارة حوارات أو تزاور.

حاولت أن تتنفس بعمق فلم تستطع. حاولت أن تبكي فلم تستطع.  
عادت تدور في الغرفة الصغيرة القميئة. الأرضية من بلاط الأسطح  
موزايكو قديم ومتسخ .. في وسطها كلیم صوفي بني غامق له  
شراشيب رمادية لم يتم تنفيذه من الغبار على مدى سنوات .. قالت  
بصوت مشمئز يحفه شعور بالقرف:

- علبة صدئة لا تصلح للحياة .. حتى لو كانت قصرًا فماذا يفيد؟  
المهم العمل أو القدرة على الاتصال بالشرطة والزملاء.

فتشت بسرعة عن الموبايل . سقط قلبها في قدميها . أمسكت رأسها .

- مستحيل . مؤامرة محبوكة وحقيرة . ما العمل ؟

عادت تدور في الغرفة بحثًا عن تليفون . عاتبت نفسها لأنها توقعت أن تجد في غرفة كهذه تليفونًا . أحيانًا يتوقف العقل أو يضرب هنا وهناك على غير هدى . مضت إلى النافذة . تعاملت معها بأقصى ما تستطيع من قوة وعصبية . لم تستطع فتحها . تبين بعد أن حدقت النظر طويلًا من خلال خطوط الضوء أن قضبانًا من الخشب مدقوقة عليها من الخارج ولن يستطيع من بالداخل فتحها .

- إذن أنا في الدور الأول لأن الخشب المسمر يتعذر دقه من الدور الثاني أو الثالث .

حاولت أن تتأكد من منطقتها بأنها في الدور الأول .

- لا . ليس شرطًا أن يكون الدور الأول لأنه مثبت من الخارج بأخشاب مسمرة ، يمكن أن يتم التثبيت بالصعود على سلم . من المحتمل إذن أن يكون في الدور الثاني وربما الثالث .

تطلعت من جديد إلى الغرفة التي يردمها الغبار . الغرفة مهجورة منذ زمن . والبيت كله بالتأكيد . فتحت الصنبور . لم تندفع المياه في الحال . دمدمت قبل أن يبصق الصنبور كتلاً من الطين البني ثم اندفعت

مياه صفراء متعشرة وتدرجياً شرعت في التخلص من صفرتها ثم  
انقطعت.

رفعت المرتبة وسحبت واحداً من أخشاب الملة. مضت تضرب  
به النافذة دون جدوى حتى كلت ذراعها. من المجرم الذي فعل بي  
هذا؟!

خطر ببالها مرسى فاستبعدت الفكرة. عادت تطرحها على ذهنها  
ومن جديد أقصتها. لا تذكر أن لها أعداء. بعد لحظات من الشرود  
ردت على نفسها:

- أفيقي يا ست ريم يا مخطوفة.. تنشأ العداوة أحياناً في نفوس  
البعض بلا أسباب.. هناك من يصبحون أعداء لك بصورة مجانية.  
لا يرتاحون لك وقد يكون معظمهم من الأقارب والزملاء. وكلما  
كنت طيبة- ويا للغرابة - استسهل البعض الشعور نحوك بالعداوة  
والحقد. وكما أن هناك حباً من أول نظرة هناك كره من أول نظرة.  
لا تستبعدي أن يكرهك شخص لله في لله. مما يغيظ حقاً أن تجدي  
مجرماً أساء لعدد كبير من الناس يقبل عليه كل من أساء إليهم، ولو  
رشح نفسه لسلطة ما لانتخبوه. النفس الإنسانية كيان معقد وصعب.

أمسكت رأسها. تشعر بثقلها. يدمدم بالجمجمة بركان. يهتز بشدة  
ويوشك على الانفجار. أخيراً وبعد أن تعالي هدير البركان سقطت  
وغابت عن الوعي. زارها في حلم ضبابي بعض الأهل والجيران

وعدد ممن تعرف.. ازدحمت بهم الغرفة، وتوزع الكثيرون منهم على  
السطح أمام الغرفة:

- رأيت كل أهلي حولي وكذلك أبناء الحي، وهم الذين على  
أيديهم أصبحت وحيدة وضائعة ومهددة بألوان شتى من الشرور.

عندما استيقظت في اليوم التالي وجدت على الطاولة طعاماً جديداً  
فشعرت بالرعب وخفق قلبها بعنف. أسرعت إلى الشباك الذي لم  
تستطع فتحه وصرخت. دقت خشب الباب بأقصى ما تملك من قوة.  
صرخت بكل ما في صدرها من أعصاب وما في روحها من غضب.

- يا سكان المكان.. يا أهل الله. أنقذوني. حرام عليكم..  
أرجوكم.. يا ناس حرام عليكم. أنا بريئة. لم أؤذ أحداً. اتقوا الله..

عاودت الطرق والصراخ والنداء، وزادت عليه.

- شخص يكلمني. يتحرك ضميره. أين النخوة؟. أنتم لا بد رجاله  
وجدعان. لا يرضيكم حالي. لا تفتحوا لي.. فقط ردوا عليّ. الوحيد  
الذي يسمعي هو الله. عليك يا رب بالظالمين.

لما لم تسمع أي رد ولا نفس شعرت بالدوار والظماً. شوك في  
حلقها وزورها. رشفت بعض الماء.. تنهدت. ثم تهاوت على الأرض  
من فرط اليأس.. تمددت مستسلمة لدقائق. عادت لالتقاط أنفاسها  
الممزقة. حدثت نفسها..

- مهما امتلكننا العزيمة فلا بد من الصبر، ولا يلغي أحدهما الآخر.

\*\*\*

بنحو منتصف الليل أحست بحركة خارج الغرفة، ثم دخل اثنان وضعا طعامًا وشرابًا على المنضدة، قال أحدهما:

- هيا يا ريم انهضي لتأكلي لقمة تسندك.

..-

- هيا.. أحضرنا الطعام لناكل معًا.

..-

قال القصير ذو الصوت الخشن:

- هيا انهضي. لن نتركك حتى تأكلي.

قال الآخر:

- بالذوق بالعافية ستأكلين.

رأت أن هذه الثرثرة غير مجدية وهذا الحنان مزيف.. اضطرت لوضع نهاية للدعوات السمجة:

- لن أكل.

- ستأكلين.

- لا حاجة لي.. شبعانة.

دنا منها ذو الصوت الخشن وحاول بهدوء لكن بإصرار أن يجرها  
فجذبت ذراعها.

قال الطويل لزميله:

- ليس مهمًا موضوع الأكل.. هيا اذهب الآن وسوف أبدأ.

- هل أترك لك الصينية لعل وعسى.

- لا.. احملها معك. يمكنك أن تأكل أو تنتظر.

- سأشعل سيجارة وأدور حول القصر دورة تكون قد انتهيت.

خرج القصير حاملاً الصينية وجلس يدخن سيجارة ويتنصت كي  
يطمئن على سير الأمور، وسرعان ما بدأت المعركة بالداخل. صوت  
ارتظام وسب وبصق ووقوع كراس ومنضدة إلى أن طلعت عليه ريم  
مسرعة فهب القصير وأمسك بها وصفعها صفقة قوية فضربته فيما بين  
فخذه فسقط، لحق بها الطويل وحاول إمساكها. دارت في الروف  
عدة دورات حتى عثرت على السلم لكن القصير هب وهو على  
الأرض وأمسك بساقها فوقعت، لكنها نهضت بسرعة وضربته بقدمها  
ضربة قوية في وجهه. حاولت فتح باب الخروج. وجدته مغلقاً فعادت  
تجري والرجلان في إثرها يملأ صدريهما الغيظ فاضطرت للقفز  
في المجهول الذي كانت تحسب أن في هذا الموضع تلاً من التبغ  
فإذا هو عشرات من السقالات الخشبية الخشنة. سقطت من ارتفاع  
ثلاثة أدوار.. أسرع الرجلان إليها وهم يلعنون جميع أهلها وأهل من



كلفوهما بالمهمة خاصة الكلب «سن الفيل». وجداهما مغشياً عليها  
وبقع من الدماء تنبت في غير موضع.

قال القصير وهو لا يزال يشعر بالألم في وجهه وما بين فخذيته:

- مستحيل تكون هذه فتاة لا بد أنها رجل متكرر. يخرب بيت أمها.

- ضربتني في الغرفة حته دين بوكس في خدي. انظر.

- أي بوكس يا فالح.. ضربة قدمها الحافية في وجهي وأسنانني

ضربة لاعب كونج فو. رأيت أخي الصغير يفعل ذلك في النادي.

ضربة توصل القبر.

- لم أتمكن من فتح سوستة بنظلونها. لها سيقان مصنوعة من

جذوع الشجر.

- أنت خائب طول عمرك مع النسوان.

- أنت من ثوانٍ قلت إنها ليست من النسوان.

- عندك حق.. كان لا بد أدخل أنا أولاً.

- كان زمانها عملتك كوفته.

- كفاية كلام. عملية معقدة من أول يوم.

جلسا على الأرض يتبادلان الأفكار حول كيفية التصرف فيها.

وفي المبالغ التي وعدهما بها الفيل. تذكر أنهما سبق أن أخذوا ألف

جنيه ووعدهما بألف آخر.. كان الاتفاق على أساس أن كل العملية لن

تتجاوز الشهر وها هو قد أوشك على الانتهاء.. قاما يتحسسان الفتاة..  
كان هناك نبض لكن لا حركة من أي نوع.

- سوف يظهر بعد عدة أيام فماذا سنقول له؟

- إذا وجد بها جرحًا لن يعطينا مليمًا.

- إذن فالنهاية قد حلت. سواء جاء الآن أو بعد شهر أو بعد سنة

لن يعطينا شيئًا.

- ضاع حقنا وثمان عرقنا.

- الحل.

- لا حل إلا أن نتخلص منها.

- كيف؟

- نلقي بها على الطريق المهجور خارج السور.

- على أن نبعداها عن القصر.

- مالنا وما للقصر.. ليذهب الكل في ستين داهية.

- حظنا قطران.

نهضا وحملاها بعيدًا. تركاها وغادرا المنطقة بأكملها مسلمين

نفسيهما للاختفاء.

\*\*\*

# 18

من السجن الصغير إلى السجن الكبير وبينهما طريق طويل من الكفاح الجميل والكوابيس والألغام والآمال والصراع المرير والرؤى الملتبسة والقرصنة لنحو عام ونصف العام.. حالة غريبة وغامضة تلبست البلاد بشكل محموم ومجنون.. عام ونصف وربما يزيد ويمتد ككائن خرافي كلما انقطع من لحمه جزء نبتت في الموضع الباقي أجزاء وأعضاء لا تلبث أن تكبر وتنتشر وتمارس دورها في إسالة الدماء والتحطيم والكذب والمناورة والقتل السياسي وإطفاء الأنوار وخلق عالم من الضجيج والعنف وغرس شتلات عجيبة تنتج النزاعات خلال ساعات.

لم تصدر الأوامر العليا بفتح السجون، لكنها انفتحت هكذا فجأة.. قوة غاشمة لا ندري شيئاً عن طبيعتها ولا سلطتها هجمت علينا في عز الليل.. مضى رجالها يصرخون وينادون على المساجين:

- هيا بسرعة اخرجوا.. بسرعة يا شباب.

انقض الرجال الملتحون الذين تبين أنهم ليسوا من الجنود ففتحوا الأبواب بمفاتيح لم نعلم وقتها كيف حصلوا عليها.. الكل ترك ما بيده واندفع وراء دعاة الحرية.. البعض توجس ولم يتقبل فكرة التحرير المجاني دون أوراق، ثم ما لبث أن لحق بالهاربين أيًا كانت الوسيلة وسبب الإفراج.. لم تتح الفرحة والدهشة أية فرصة لأي منا كي يفكر في جمع هلاهيله أو لوازمه التي تجاوره في الزنزانة وقد اعتاد عليها وارتبط بها سنوات.. لم يفكر أحد في أن يسأل عن نقوده المحفوظة في الأمانات ولا تسلم له إلا عند إطلاق سراحه رسميًا بعد انقضاء مدة العقوبة وهي عادة لا تنتهي.

بعض المساجين المحررين أسرعوا يكبرون وتبعهم من لم يرد الله على خاطرهم لحظة.. في مقدمة الملبين للنداء من كانوا يصلون النوافل كما تعودوا أن يفعلوا فخرجوا من الصلاة دون تسليم.. ظلمت مندهشًا فقط.. لا أكاد أصدق ما يجري، واثقًا أننا نشاهد فيلمًا أجنبيًا مسليًا.. كنت قشة على سطح المياه الجارية التي تهبط بشدة من فوق جبل.. أتوقع أن يتم القبض علينا قبل بلوغ البوابة الكبيرة.. الأمر لا شك مشبوه. لم أحاول أن أفهم ولا أظن غيري حاول.. لم يحدث ما يحدث الآن يومًا من قبل أو على الأقل لم أسمع به. لما وصلنا إلى البوابة وجدنا بعض الجنود مقتولين وآخرين مصابين وبعضهم خاضع لتهديد السلاح.

من النداءات العديدة التي طارت في فضاءات السجن أدركت أن أكثر من قاموا بالعملية التاريخية الجسور من الصعيد والبعض ينطقون لهجة شامية، يمكن أن يكونوا لبنانيين أو سوريين أو فلسطينيين، وكنت أعلم بوجود مساجين من فلسطين والشام.

كنا قد سمعنا بالتظاهرة الضخمة التي عمّت البلاد وبدأت يوم 25 يناير، واشترك فيها الملايين في طول البلاد وعرضها وتركزت في ميدان التحرير والشوارع التي تصب فيه.. وحدث مثل ذلك في الإسكندرية والسويس والمنصورة وبورسعيد وقنا والمنيا والإسماعيلية. كنا نبحث بكل وسيلة عن الأخبار التي كانت مبهجة ومثيرة إلى حد كبير.. الوضع الآن مختلف تماماً ولا أكرى السرفي ذلك.. على مدى عشر سنوات على الأقل كنا بالظواهر التي كان عمرها لا يتجاوز عدة ساعات حيث تتولى العصي والقنابل المسيلة للدموع وضع النهاية بعد أن نكون قد أعلننا عن مطالبنا أو غضبنا. لم أستطع الربط بين الثورة وخروج المساجين، لأن خروجهم يتطلب قوة مدججة بالسلاح، وما كان في ذهني وجود مثل هذه المليشيات أو الجماعات. كان أغلب حوادث الهجوم الشهيرة عبارة عن أعمال فردية، تصل في ذروتها إلى عملية استشهادية أو انتحارية لتفجير مبنى أو شركة، والفردية يكون هدفها في العادة اصطلياد رجال بعينهم لهم مكانة رسمية أو ثقافية. وأبشع الجرائم حدث في الأقصر أمام الملكة حتشبسوت عام 1997 وراح ضحيته أكثر من خمسين سائحا. لكن

مشهد الجنود والضباط الذين يعاني بعضهم سكرات الموت، وكما الأسلحة التي يحملها المهاجمون ومعظمهم من أصحاب اللبس الكثيفة جعلتني أتيقن من أن الثورة لها علاقة ويتعذر تحديد نوعها وأطرافها.

اندفعنا جميعًا نركض بسرعة شديدة لنبتعد عن السجن. كنا نعدو كالهارب من بركان بدأ يطلق حممه الملتهبة وتتطاير من ورائه جمرات النار توشك أن تنقض عليه. أفضلنا في العدو الحفاة وأكثرنا كنا كذلك، حاولنا التقاط أي ميكروباص أو أية سيارة نقل، وقد رأيت بعيني اللتين حتمًا سيأكلهما الدود يومًا رجالًا تجاوزوا السبعين يجرون وراء سيارات النقل المسرعة حتى يلحقوها ويتعلقوا بصندوقها الخلفي بعد أن تخلصوا من شبشب زحافة كانت في أقدامهم عند النداء. عزم غريب على الفرار تلبس الجميع. الأغرب أن بعض رفاقنا المساجين الملتحين رددوا كثيرًا في الشهرين الأخيرين قولة واحدة:

- قُرب الموعد وسنخرج قريبًا من السجن الأصغر إلى السجن الأكبر.. أبشروا قرب الموعد.

الأكثر غرابة أن من كانوا يرددون هذه العبارات من قضاة في السجن فوق العشرين عامًا واقتربوا من الثلاثين ومنهم من زاد عليها، كيف ينبت الأمل في مثل هذه الأرواح التي جفت وتحجرت وأتصور أنها تغلفت بطبقات اليأس ومن الطبيعي أن تفكر فقط في الموت الذي يدنون منه بخطوات واثقة.

علمت بعد خروجنا بيومين أو أكثر أن البعض أسرع إلى المنازل  
 لبروي ظمأه نحو الأهل، والبعض قرر الاختباء حتى لا تطارده  
 الشرطة، والبعض القليل - وأنا منهم - انضم إلى التظاهرة الشعبية  
 التي أصبحت ثورة بكل معنى الكلمة، يتابعها العالم باهتمام كبير. كان  
 من المثير حقًا بل الغريب أن أحدًا من الهاربين لم يقبض عليه بل لم  
 تسأل أية إدارة شرطية عنه أو عن غيره. تكشفت الأمور بعد ذلك عن  
 أن قوات الأمن بكافة تشكيلاتها وتخصصاتها بعد أن اشتبكت في  
 معارك دامية مع الثوار العزل والذين قاوموهم بشدة وفدائية قرر قادة  
 هذه القوات ترك الميادين والشوارع وساحات المعارك للثائرين الذين  
 بدأ أنهم مسيطرون تمامًا ولا يعانون من أية مشكلات حتى مع الموت  
 والإصابات القاصمة التي تجعل أصحابها على شفا الموت.

شغلتنى لهفتي للذهاب إلى ميدان التحرير. أيقونة الثورة وشجرة  
 اللوتس السامقة. تخيلت أنني سأجد في الصينية الكبيرة مسلة عالية  
 يلتف حولها عشرات الآلاف من المصريين وهي بينهم دليل ومنازة.  
 سأمضي فورًا إلى الميدان. الأحرار ينادونني والمسلة التي تمتد  
 بعرض خيالي. رفاقي لا بد هناك.. هم من شاركوا في صنع البحر  
 الثوري الجارف وأمواجه العالية ورسوموا بعض ملامح المستقبل الذي  
 لا نعرف ما يحمله لنا من هدايا أو نكبات. لا بد أن تكون هدايا ونعمًا  
 كثيرة فلا مجال لمزيد من النكبات والتعاسة. تسيطر عليّ رغبة جامحة  
 لمشاهدة أحوال التحرير التي لم تحدث من قبل حسب ما أنبأتنا

الأخبار.. تبلغني أصوات عديدة قادمة من المساجد والميكروفونات  
تؤذن لصلاة الفجر. عندما اقتحم الميكروباص شارع قصر العيني  
غيرت رأبي فجأة وطلبت الهبوط واتجهت يمينا باتجاه مسجد السيدة  
حفيدة الرسول.. اكتشفت أن الشبشب الذي كانت أنتعله قد اختفى  
وتذكرت أنني فقدته أثناء العدو المحموم. عدت أجري كي ألحق  
صلاة الفجر جماعة. توضأت في الميضة على عجل وأسرعت أنضم  
للصف الأخير.

وددت لو أدنو من ضريح صاحبة المقام وأحييها وأعترف لها  
بامتناني لأنها ترعى كل أبناء الحي ومصر كلها. جذبتني صور أمي  
وأبي وزوجة أبي وأخوتي.. اتجهت صوب الباب. لمحت الكثير من  
الأحذية والشبشب والصنادل. هممت باختيار إحداها ثم تراجع  
بسرعة وعدت أجري.

فتح أبي وحقق فيّ ثم سألت دموعه وضممني إليه بقوة وقال:

- ألف حمد لك يارب وألف شكر.

عاد بيكي بصوت مكتوم، فينتفض جسده تحت وطأة النشيج  
العارم.

انحنيت على أمي النائمة وقبلتها فصرخت دون أن تراني:

- ابني.



- قامت نصف قومة وعانقتني.

وما لبثت أن جاءت مغمضة العينين خالتي فوقية زوجة أبي  
فعانقتني وبكت، وهي تقول:

- البيت في غيابك يا حبيبي ليل أسود غطيس.

أبكتني الست غريبة الطباع.. لم أسمع أو حدثني أحد عن زوجة  
أب مثلها أو حتى رُبعتها.. سمينه ومربعة وليست أبدًا غير كتلة من  
الحنان تمشي بصعوبة على قدمين.. لا تعرف شيئًا اسمه الغيرة.. هي  
إذن امرأة غير طبيعية، أما أمي فتشعر نحوها بقليل من الغيرة ليس لأنها  
تأخذ جانبًا من اهتمام أبي واهتمامي وحب شقيقاتي، لكن بسبب  
طبعها النادر الذي لا تستطيع أمي مجاراتها فيه.. كل منهما تراني  
بكريها.. تقدمت كل منهما إليّ بصينية من الطعام الذي أحبه ومعه  
الشاي والزنجبيل.. أكلت القليل والأسئلة تنهمر كالمطر على رأسي  
فتغرقني وتربكني فقلت لهم:

- أضع جسمي ساعتين وأقوم بعدها لأجيب على كل الأسئلة.

قالت فوقية:

- تجيب أو لا تجيب. المهم أنك الآن معنا.

لمحت نظرة أمي لها المحملة بغيمة صغيرة من الغيرة.

نمت قبل أن أصل إلى السرير.. واستيقظت على صوت ريم.  
تلفت في الغرفة وتسمعت. لم تكن بالبيت ريم.. عانقت الوسائد

وحاولت التقاط ولو نصف ساعة من النوم حتى أتوازن قليلاً فلم أستطع بسبب ريم.. كان صوتها يأتيني عذباً ومحبباً من داخل قطن الوسائد. كان يعزف بهمس على صفحات قلبي المتييم. كان عبيرها يتبختر بثقة في أنحاء الغرفة وكنت أتبعه بخيالي وأنفي. كافحت كي أنام حتى تسلمني الخدر والإجهد فقد جريت كثيراً.. كنت راغباً في الجري رغم ركوب كل المساجين.. أقف للحظات وأتهدد بعمق. أشحن رثتي بهواء القاهرة ونسائم الفجر المعطرة ثم أجري.. أخيراً نمت.. ما أروع النوم!!!

في التاسعة استيقظت مجدداً على صوت ريم. سألتها عن أحوالها وأجبت بنفسية على أسئلتني إجابات لا بد أنها خاطئة. أعلنت شوقها لي وعاتبت العاشق كيف لا ينطلق كالريح إلى معشوقته التي انتظرتة سنوات.. كان على من تم تحريره أن يسأل عمّن لا يزال في الأسر مكبلاً.. عبرت لها عن أشواقني التي لم يحملها قلب محب إلا المجانين. لبيت نداءها وقلت:

- في سكتي.. واجب أطمئنها.

طرقت باب شقتهم عدة مرات دون مجيب. دسنت على الجرس بشكل متصل. لم أسمع أدنى صوت بالداخل. سألت نفسي:

- ماذا أفعل؟.. أبوها مؤكد في المحافظة. عمها كامل في الورشة، وربما الآن لا يزال نائماً، ومثله حالها شهدي. هل تكون نائمة هي الأخرى؟.. يصعب الانتظار، ويصعب سؤال الجيران.

ضغطت على قلبي وانطلقت نحو ميدان التحرير. كانت الحبيبة الأولى تناديني.. كانت الأم الغالية تتمدد على السرير تحت مبضع الجراح، وتوجب على الأبناء السؤال عنها وافتدائها بأرواحهم ودمائهم كما فعل الشباب.

وصلت الميدان. حقول البشر تزرع الميدان. حقول يانعة ونضرة محملة بالثمر والحماس والغضب والإرادة.. عيونها مفتوحة.. الرؤية واضحة والأهداف.

- الله أكبر.. يا فرحة الأم بأبنائها الشرفاء.

دنوت من الجموع وسلمت لها نفسي. ابتلعتني الحقول متعانقة الأبدان. شممت رائحة المستقبل ورأيت ملامحه بكل وضوح. طائر ضخم كالرخ يحلق في السماء ويحرق في العيون ويسبح في فضاءات الميدان وينصت لأصوات الجماهير ليتعرف على نبض الأمل. الشباب يحملون الأعلام وصور الرئيس المعلم عليها بعلامة إكس.. الشباب يضج بالهتاف.. يحملون اللافتات تطالب بإسقاط النظام وينادون للحرية والكرامة والعدالة الاجتماعية.

بعد ساعة تقريبًا داهم الجميع جيش من الخيول والجمال يقودها رجال مدربون ذوو وجوه صخرية وبأياديهم شوم وسياط ينزلون بها على الأجساد بقسوة تفوق قسوة الانتقام. مضوا يشقون الأكداس المتراصة من البشر ويدوسون من يلحقونهم.. الخيول والجمال تدري الكثير عن المهمة. كانت تشارك في الرفس والدهس والضرب.

تركض فوق الجميع وتكاد تطير لتسيطر على الميدان.. تروح وتجيء وتدور وتنقض. مشهد مرعب. كان للخيالة والجمالة رئيس خفي يوجههم لتطوير الهجمات وتنويعها وتحديد الأماكن وأساليب التعامل مع من يقفون في طريقهم.

حاولت عدة مرات وحاول غيري القفز والإمساك بأحد الخيالة، لكنني وقعت مرتين وأصابت كتفي الأيسر ضربة شومة. شعرت بالم بسيط لم تظهر توابعه إلا في اليوم التالي. الحيوانات المتواطئة بقيادة المرتزقة الذين استخدمهم رجال النظام لا تزال تعدو وتضرب الجموع المحتشدة والمصرة على إفشال هجمة المرتشين من عملاء النظام.

فجأة، أخرج رجل يرتدي تي شيرت أسود وبنطلون جينز أسود وكوتشي أبيض من تحت التي شيرت مسدسًا وأطلق النار على حصان فأصابه وما لبث الجواد الأشهب الحرون والمتأهب أن تداعى ثم سقط وجرى من كان فوقه فأمسك به الرجال وأوسعوه ضربًا. كان عشرة على الأقل يضربونه.. تحمس حامل المسدس وأطلق النار على الجمال والخيول فأصاب سبعة، وانقض الشباب على قوادها، وتشجع عدد آخر من الرجال فقفزوا واختطفوا أربعة من فوق الخيول وتعذر الأمر لاختطاف واحد من الجمالة.. توالى الكر والفر وتوالى السحق والدهس، واضطر الكثيرون للهروب من مواجهة الحيوانات المدربة على الهجوم وكأنها وحوش برية لا تعيش إلا في الغابات، وتزايدت في الوقت ذاته المقاومة. استعان شاب بقضيب حديد خلعه

من حاجز أمني وطال به فارسًا فأسقطه. أسرع شباب آخرون يفككون الحواجز ويضربون بها الخيول والخيالة ويضربون بها سيقان الجمال الطويلة التي كانت تركض وهي تتجه ناحية اليمين وناحية اليسار بصورة غير محسوبة ولا يمكن الاستعداد لها لكن الرجال بالقضبان أصابوها حتى عجز بعضها عن مواصلة الافتراس. لو حكى شخص لي ما رأيت لكذبتة.. مشهد من مشاهد الأساطير والمعارك الإغريقية المرعبة التي تنخلع لمجرد سماعها القلوب. التقيت بمحسن الصاوي زميل الحركة وسألته عن ريم، قال:

- سمعت أنها تزوجت منذ عدة أشهر ولم نعد نراها.

فقدت النطق وسرعان ما اختطفنتني منه موجة من موجات البشر الهاربين من الوحوش البرية وهجماتها القاتلة.

تراجعت عن الزحام وجلست على الرصيف.. لا أستطيع أن أفكر في شيء.. بعد نصف ساعة تقريبًا مر بي شاب نسيت اسمه. حياني بحرارة.. قال:

- ألف مبروك أنهم أفرجوا عنك.. في انتظار كتاباتك يا أستاذ.

بدا عليّ أنني لا أعرفه.. عرفني بنفسه.. رمزي هيبه كان ممثلًا في مسرحيتي الأخيرة.. سألته عن ريم.. قال باطمئنان:

- سمعت أنها تزوجت منذ شهور ولم نعد نراها.

نزل عليّ سهم الله. هل يمكن أن يحدث هذا؟ هل ببساطة تلوي عنق مشاعرها 180 درجة وتطحن قلبها كي تلحق بقطار الزواج؟ .. لا أتصور أن أحدا أرغمها على هذا. ريم حرة وقوية. مستعدة لتحدي العالم من أجل المبادئ التي تربت عليها وتجدرت بداخلها مع الأيام وعبر المواقف. ريم كيان متماسك ويعتمد عليه ولها كلمة راسخة تحافظ عليها ضد كل الإغراءات. فما هي هذه الإغراءات؟ .. أن تعيش في قصر ولديها الخدم والحشم عند رجل أعمال أو أمير عربي .. لا تعتد ريم بكل ذلك وليس لديها أية طموحات من هذا النوع. ريم مثقفة والمثقف الحقيقي لا تعنيه إلا الثقافة والجمال والقيم وتحقيق الذات في مجالها الذي التحم بروحها فأصبح معشوقاً لا تستطيع التنفس بدونه. إذا غاب عنها تغدو الدنيا مجرد كراكيب أو صحراء وفي كل الأحوال يشمل الأشياء والفضاء ظلام كاسيح. لا .. ريم لم تتزوج ولن تتزوج غيري، وأنا لن أتزوج غيرها. كيف أتزوج غير التي تسبق أفكارها أفكاري وأنطق بكلمات توشك أن تنطقها وتحس بي في ذات اللحظة التي أحس بها وبيننا أوجه للاتفاق لا توجد بين شقيقين. رأسي تشتعل. الزحام يزيد. بعض الشباب يقع فوقني. أمواج الثوار تجتاح الميدان.

التهافتات تتعالى:

- مش ح نسلم .. مش ح نطاطي إحنا كرهنا الصوت الواطي.

- الشعب يريد إسقاط النظام.

- يا حرية فينك فينك .. الطوارىء بينا وبينك.

- مش ح نمشي .. إنت تمشي.

- كرامة وحرية .. عدالة وتنمية.

- سلمية سلمية.

اقشعر بدني وارتعدت شوقاً إلى هذه الهتافات البسيطة جداً في صياغتها، العميقة جداً في دلالتها ومعانيها..

وقفت. صعدت فوق الرصيف.. قفزت. حقول البشر لا تترك أية مساحة لوقوف شخص آخر ومع ذلك هناك عند مداخل الشوارع تكدس شديد لمتظاهرين جدد. حاولت التطلع في وجوه الشباب بحثاً عن ريم. حتى لو كانت قد تزوجت فسوف تترك زوجها يحطم رأسه في الجدار وتحضر لتشارك زملاءها من شباب 6 إبريل وكل الشباب ثورتهم المجيدة التي لم تحدث في مصر منذ زمن بعيد.. بعيد جداً، وبالطبع لم تحدث طوال تاريخ مصر منذ خلق الله البشر بهذا العدد. حالة غريبة تمنيناها في كل لحظة على مدى العشر سنوات الأخيرة أي منذ وعينا نحن الشباب بحجم المأساة التي يعيشها هذا الشعب، ولا بد أن أجيالاً أكبر منا تمتته منذ ألف عام على الأقل.. لم يعيش المصريون أياماً خالية من العذاب والقهر والحرمان طوال تلك الفترة. أين أنت يا ريم؟! .. أية مأساة أعيشها الآن رغم فرحي بالثورة

إذ خرجت من السجن الذي حرمني منك كي أجد الدنيا خالية من نور وجهك.. لقد كنت أتمنى من كل قلبي الخروج من أجلك. أنت مصري الصغيرة التي سهرت الليالي أنسج فستان أحلامها وأرسم ملامحها الجميلة على جدران بيتنا المبتسم أبداً.

دفعتنى الجماهير فانحنيت ثم اعتدلت.. دفعتنى موجة أخرى فانحنيت ثم اعتدلت، وانطلقت معها.. تذكرت الجمال والخيول.. لم ألمح أحداً منها. لا بد أنها هربت.. فلم تتوقع أن تجد كل هذه المقاومة، وما حصل فرسانها عليه من أموال ارتأوا أنهم قاموا بما يتعين عليهم مقابله. وكفى المؤمنين شر القتال.

فوجئت أن ظهري يستند إلى قاعدة تمثال عبد المنعم رياض. دهشت. لقد حركتني الحشود نحو مائتي متر.. لمحت بالقرب مني دبابة يقف أمامها جندي وفوقها جنديان. تذكرت أن الجيش لم يتدخل لطرد الجمال والخيول وعشرات الرجال المرافقين لها الذين هاجموا الثوار بشراسة وضربوهم بالشوم وبالعصي وأوقعوا المئات منهم.. عرفت أن الأوامر صدرت للجنود بالألا يتدخلوا إطلاقاً في المظاهرات، لكن المشهد كان غريباً.. فالمفترض على الأقل أن يمنعوا هؤلاء المعتدين انحيازاً لثورة الشعب. فهل كانوا من جنود قوات حفظ السلام التابعين للأمم المتحدة؟.. على أية حال لم أنزعج كثيراً لكنني ظللت في حالة تساؤل مستمرة لعدة دقائق حتى لمحت سيارة نصف نقل تتوقف تحت كوبري 6 أكتوبر وتتقدم منها مجموعة



من الشباب يحملون لفة في حجم فيل. حاولوا حملها فعانوا وتقدم بعض الشباب للمساعدة ولم أحس بنفسي ولم أفكر فإذا بي معهم أحاول المساعدة في حمل اللفة التي تصورت أنها يمكن أن تكون خيمة كبيرة تستخدم كمستشفى ميداني لعلاج المصابين، سرنا بها إلى نحو منتصف ميدان التحرير، أبعد قليلاً من سور المتحف المصري. قام بعض الشباب بفك الحبال التي تحيط باللفة فارتاحت وتمددت. أمسك عدد منهم بطرف وسحبوها وعملوا على بسطه فظهرت مضيئة ألوان العلم.. أحمر وأسود وبينهما الأبيض. تولى كل شاب الإمساك من ناحية، تجاوب العلم وكشف عن شخصيته وطوله وعرضه. بدأ الشباب يسحبون القماش وتنفك اللفة المطوية. تنفك ويتمدد العلم ويتضخم ويطول ليضم إليه مئات الشباب الذين حرصوا على حمله أو حتى لمسسه.. علم طوله يقترب من مائة متر وعرضه نحو عشرين متراً يمتد من المتحف المصري حتى حرم مجمع التحرير.. علت الهتافات عندما رأت قلوب الثائرين علمها المظلوم. علمها الذي ظل محتجزاً ومقهوراً ومهاناً ما يزيد على ثلاثين عاماً.. الآن يفرد أجنحته ويمدد ساقيه ويرفع رأسه ويطل على أبنائه المشتاقين إلى أحضانه وقوته ومشهده الملهم. مشيت مع العلم أقبض على قطعة صغيرة منه بقدر كفي ولكنها تكفي كي تضخ الدماء في قلبي الذي كان هو الآخر مقهوراً ومغلولاً. علت الهتافات ودوت الأناشيد والأغاني الوطنية. الشباب يرفعون العلم لأعلى ويهبطون به في حركة منتظمة كما يرفع فريق رياضي منتصر مدربهم. يرفعونه صوب السماء تعبيراً عن سعادتهم به. تخيلت العلم في لحظة مع رفعة قوية يعلو فيتركونه

يطير ويحلق في فضاءات الوجود.. يحوم فوقهم ويدور في أفق الميدان. يميل كطائر يوشك أن يحط على بيت أو شجرة.. أو طائر يفرح بجناحيه. ثمة خيوط غير مرئية تربط العلم الممتد شرقًا وغربًا بالأرواح المتهللة. الكل يهتف لمصر وللحياة التي قررت أن تغير كساءها المهترئ. أحسست مع قرب الغروب برغبتني في العودة إلى البيت فلم أجلس مع أسرتي التي غبت ما يقرب من سنتين. لكن يدًا قوية وكبيرة أحاطت برقبتي. التفت فإذا بي وجهًا لوجه أمام صديق «البرش» في الزنزانة.. تعانقنا رغم طوله الفارع ولحيته التي غطت وجهي ولا تزال لها رائحة عطرية مميزة.. جرنني إلى ركن بعيد وراء مبنى جامعة الدول ثم أوقفني وأمسك كتفي بكفيه، حدق في عيني وهزني قائلاً: أما آن أن تلحق بنا وتنضم؟

أخرج مصحفًا صغيرًا واختطف كفي ووضعها عليه وقال:

- أحبك جدًّا يا ناجي. أنت إنسان صادق وقلبك شريف. لا يجب أن تبقى بعيدًا. أقسم على المصحف.

دهشت وشعرت بقدر من الرعب، قلت:

أقسم على ماذا؟

- الولاء.

- الولاء لمن؟

- لله.

- لا أحتاج للقسم.
- بل تحتاج.
- جذبت نفسي منه وأنا أقول:
- ما بك يا سراج الدين.
- أقدم لك هدية عمرك.. أقسم أولاً لأفضي لك بسر.
- ابتعدت خطوات، وأنا أقول له:
- سوف نلتقي قريباً ونتحدث باستفاضة.
- لا أعرف عنوانك.
- اكتب لي عنوانك أو تليفونك وسوف اتصل.
- كتب تليفونه ودسه في جيبه بنفسه.
- تلفت يميناً ويساراً.. بدا مضطرباً قليلاً.
- أنت تهمني جداً يا ناجي.. أنت مواطن صالح، ويعتمد عليك.
- أرجوك اقسم كي أفضي لك بسر.
- قل ما تشاء أو دعني.
- دنا مني وعاد يعانقني:
- أنا أحبك في الله. المستقبل لنا.

لم أفهم بالضبط ما يعنيه. سألته عما يقصد.

- الحكم قريبًا بالكامل سيكون لله.

ابتسمت.

- هل سيرسل إلينا ملائكة من جديد؟

- موجودون.

خامرني شعور أن الرجل مخدوع بشكل ما.

- سراج.. أعدك أن نتحدث.

قال بتوسل:

- أقسم لي ألا تبح لأحد حتى نتقابل.. أنت تحت عين الله.

وسوف يردك.

- شكرًا لك وللملائكة.

- ثمة شيء آخر.. ألم نتحدث طويلًا في السجن الملعون عن

المرض الملعون؟

- أي مرض؟

- السرطان.. لقد أسسنا مركزًا طبيًا عالميًا وعلى وشك إنتاج دواء

حاسم سيقضي عليه نهائيًا.

- رائع.. هل يعتمد الباحثون على أعشاب طبيعية أو مواد كيميائية؟

- لا هذا ولا ذلك.. اكتشف بعض الخبراء الأمريكان العلاج في سم العقرب واحتاج الأمر إنشاء مزارع للعقرب، وقطعنا شوطًا كبيرًا.

- ومن الممول؟

- نحن.

- من أنتم؟

- إما أنك تنسى أو أنك غير مهتم.

ابتسمت وقلت له بثقة:

- الاثنان يا سراج.

قال بحزم:

- أقسم إذن ألا تبح بشيء.

قلت وأنا أضحك بداخلي.

- أقسم بالله العظيم ألا أبوح بأية كلمة قالها لي سراج الدين.

أسرعت أودعه قبل أن أغوص معه في بحيراته العميقة التي يبدو

ماؤها ذا ألوان متعددة ويتقلب سطحها بشدة كأنها تغلي.

\*\*\*

# 19

أنا غير مقتنع أنها تزوجت لذلك قررت البحث عنها.. سوف أسأل عنها أهلها فردًا فردًا. سأسأل عنها كل أعضاء الفرقة وكل صديقاتها.. سأسأل عنها الشوارع والأزقة. سأسأل الأشجار والطيور والمكتبات. سأسأل عنها طوب الأرض. سوف يظل قلبي دليلي. لقد آن أن نلتقي وألا نفترق أبدًا إلا بالموت متى جاء. بل الموت لن يفترقنا.. قسمت اليوم إلى ثلاثة أقسام. القسم الصباحي معظمه للسؤال عن ريم وتفقد أخبارها والإمساك بأي خيط ثم تتبعه. والقسم الثاني في ميدان التحرير من الرابعة تقريبًا حتى منتصف الليل، والثالث في البيت نائمًا في الأغلب.. ليالٍ كثيرة سهرتها إلى الصباح في الميدان. نأكل ونشرب ونغني ونرقص ونهتف حتى أسقطنا مبارك.. يا لروعة الحدث.. مصر كلها اليوم تحررت. لأول مرة في تاريخها كله منذ عشرة آلاف سنة على الأقل أصبحت حرة تمامًا، وسقط آخر قلاع الديكتاتورية والاستبداد والأنانية وأكبر رموز الفساد في العالم.. من لا يعرف ظروف مصر جيدًا لا يتصور ماذا فعل هذا الرجل ببلد عريق

مثل مصر. ياه.. كان مبارك كفأر يتحكم في غابة. نملة تقهر الهرم.  
دودة تقود قطارًا. لم يخطر بباله يومًا أن يسأل نفسه:

- من أكون أنا لأحكم وأتحكم في بلد تكاد تكون درة العالم  
جغرافيًا وتاريخيًا وحضاريًا ودينيًا وإنسانيًا؟

عشر الثوار أخيرًا وبعد نضال خرافي على وطنهم المختطف..  
مصر، وعليّ أن أبحث عن ريم. وطني الذي لا أعرف أين هو. في  
أي البحار أو الصحراوات يعيش. هل ابتلع الحوت ريم؟.. هل حط  
على الأرض مجموعة من الفضاء حملوها لتعيش معهم؟.. ولماذا  
هي بالذات؟ عليّ أن أبحث إذن عن إيزيس.. أنا أوزوريس الحي وقد  
تبادلنا الأدوار، ولن يهنأ لي بال حتى أعر عليّ إيزيس وسوف أجمع  
أشلاءها إذا كانت موزعة في كل أنحاء البلاد.

الشيء الغريب حقًا أن جميع من قابلت وسألت حتى أقرب  
الأقربين.. رددوا جملة واحدة إجابة عليّ كل الأسئلة:

- أبوها قال لنا إنها تزوجت وسافرت مع زوجها إلى الخارج.

أضطر أحيانًا للسؤال:

- سافر الزوجان إلى الخارج لقضاء شهر العسل أم للعمل والغياب  
الطويل؟

- لا نعرف.

- هل اتصلت بأحد منكم بعد السفر؟

- لا.

أشركت أبي في السؤال، رغم أنني أعلم أنه غير متابع لأحوال ريم وأهلها. قال:

- لا أعرف عنها شيئاً، لكن أباهما ظل طويلاً يكافح لنقل ملكية الشقة التي تعيش فيها لتصبح باسمه، ولم يتمكن من ذلك. عدت إلى والدها أسأله عنها:

- يا عمي أرجوك. حضرتك تعلم العلاقة القوية التي ربطتني بريم، العمل والزمالة والاتفاق على الزواج.. بعد إذنك طبعاً.

- لن نجد أفضل منك يا ناجي.. أنت شاب طيب ووالدك صديقي وزميلي في الدراسة، والمسألة تكاد تكون محسومة. لكن الزواج قسمة ونصيب.

- هل نعرف من تزوجها.

- لا.

- عربي أم مصري؟

سكت لحظات وانشغل بالتفتيش في جيوبه على سيجارة، ثم أجاب بثاقل وارتباك:

- عربي.. نعم عربي.

تجاسرت وسألته:

- ألم يكن أحد في وداعها من الأهل.. غيرك.



عاد إلى ارتبائه وأشعل سيجارته التي تعلق بأصبعيه ونسيها:

- لا.. لقد كان موعد الطائرة الواحدة بعد منتصف الليل.

وأضاف:

- جاءت المسألة كلها فجأة بعد اتصالات من مكتبه في

سنغافورة.

عدت خالي الجيوب من أية معلومات، وازددت ثقة بأنه يكذب..  
 ما العمل؟.. كل ما ألتقطه يدفعني إلى مواصلة البحث.. كل هذا  
 الفراغ يدعوني إلى مزيد من التشكك. أكثر ما يدهشني ويكثر عدد  
 الفئران التي تركز في عبي موقف خالها شهدي وعمها كامل،  
 وعائلتها على العموم.. كيف تركوها للزواج أو عدم الزواج حتى  
 اختفت من حياتهم بهذه البساطة. هل هي قطة سارت في أعقاب قط  
 وانتهى الأمر. المشكلة تظل قائمة في أنني لم أمسك بالخيط الأول.  
 نقطة الانطلاق. السير في أنفاق مظلمة يكتفم أنفاسي ويدفعني لليأس،  
 لكنني لن أياس أبداً فيما يخص ريم. اليأس من البحث عن ريم جريمة  
 بكل المقاييس، ولن أقترف تلك الجريمة سوف أبحث عنها إلى أن  
 تحين نهايتي أيًا كان شكلها. لم تبق غير الشرطة.. فمن الذي يحق له  
 أن يبلغ عن اختفائها؟.. أول سؤال ستسألني الشرطة:

- من أنت؟

وعلى فرض أنى قلت أنى خطببها سببألون أبابها، وأسهل رد إنكاره أنى خطببها.. وهكذا يتم إغلاق المحضر لعدم وجود مشكلة من الأساس.

تمنيت أن أكتب قصيدة عن الثورة فلم أستطع. قرأت عدة قصائد في الصحف وحضرت أمسيات لأشعار الثورة.. كان معظمها إما خطابياً وعاطفياً أو خالياً من الوهج وصدق التجربة.. كتابة تعلق على ما جرى لكنها قادمة من خارج الروح.

حاولت أن أتعرف أكثر على أحوال البلد خارج الميدان.. ما الجديد بعد الثورة وإزاحة مبارك؟.. أقبلت على قراءة الصحف.. أدهشني كل ما تحتويه.. كمية هائلة من السرقات. الاستيلاء على آلاف الأفدنة. اقتحام القصور ونهبها.. اختطاف الأولاد بل والكبار وطلب فدية بالملايين. أعداد كبيرة من البلطجية لا سقف لجرائمهم. الغريب أنهم مدججون بالأسلحة.. أعط الأحمق خنجرًا يصبح في ثوان قاتلاً.. المرافق تكاد تكون متوقفة.. كل هيئة تعمل بخمس طاقتها. الموظفون والعمال يقطعون الطرق في كل أنحاء الجمهورية حتى تستجيب الحكومة لمطالبهم الخرافية. يلوون أذرع الدولة بوسائل فجة وتفتقد للنبل والنخوة. لو كنت مسئولاً لتعاملت مع من يمس مفاصل الدولة أو يعطل مرافقها بالمدفع. تحذيره ثم قتله في مكانه.. ربما يموت عشرة فقط وسرعان ما نجد البلاد تعمل كالساعة.. المجلس العسكري الذي يتولى الحكم رخوا ومرتبك.. لا علاقة له بعلم الإدارة

وفنونها.. لا خبرة له بالسياسة وشئون الحكم.. يصدر قرارات عرجاء  
أو عاطفية.. لا يدري شيئاً عن القوى السياسية الجديدة.. عشرات  
الأحزاب نشأت في أسبوعين لتبحث عن السلطة.. السوق السياسي  
مفتوح والكل يحاول البيع فيه والشراء.. الكل يحاول السباحة في  
بحر السياسة ولو تعلق ببقايا زورق خرب.

تبدو جماعة الإخوان المسلمين هي الأقوى بحكم التنظيم  
والأعداد الكبيرة والأموال المتدفقة من مصادر عدة.. أمريكا ترصد  
وتراقب ولا تكاد تعي من الأمر شيئاً.. تود كعادتها أن تسبق الأحداث  
أو تصنعها. الوضع المجهول والملتبس لا يسمح لها بالمبادرة  
والاستباق. تكتفي مؤقتاً بأن تحول كل إداراتها إلى عيون وآذان حتى  
تتضح الرؤية بما يتسق مع مرضها المزمن وولعها بمحاولة السيطرة  
على العالم والاستمتاع بالتحكم في كل قياداته وشعوبه. حريصة على  
أن تكون كل مفاتيح الأبواب والخزائن بيدها لتفتح أو تغلق كما تشاء  
وبالمساحات التي تراها.

الحالة العامة غريبة. كل شيء غامض والأحداث تتوالى في تدفق  
واندفاع. حالة مجنونة وغير مستقرة. ماذا أفعل وأنا خالي الجيب  
ومفتقد جداً للصديق.. لي أصدقاء كثير لكن أين الصديق الحق؟.  
أتاح لي السجن عن قرب التعرف على رجال من نوع نادر في الفكر  
والأخلاق والشجاعة والتصميم، لكن الخروج المتشنج بعثرهم،  
فضلاً عن أن معظمهم يعيش بعيداً وغير مجدٍ التواصل معهم على  
الأقل في الظروف الحالية.

أمكنني أن أتعلم كيف أعرف أغوار الشخصيات ومعادنتهم خلال مواقف بسيطة بل ومن الحوار.

سألت شخصًا مرة بعد أن لمست جانبًا رهيًا من طبيعته:

- هل تحب أن تصعد الجبل العالي بالمنطاد، أم بالتسلق؟

أسرع يجيبني بثقة وقد بدا عليه الفرح بسهولة السؤال:

- بالمنطاد طبعًا.

عرفت أشخاصًا آخرين إذ وجدتهم يحرصون على التمسك ببعض الأصدقاء، لا من أجلهم ولا من أجل الصداقة، ولكن لأنهم ذوو نفع لهم.

وعرفت أشخاصًا عبر الحوار الذي ظهروا فيه طوال الجلسة وهم يسألون فقط عما يعينهم ويدسون أخبارهم وينحون جانبًا أخبار الآخرين ويقفزون فوق شئون الوطن للحديث عما يخصهم ويفرضون قصص حيواتهم.

ذهبت إلى ميدان التحرير عدة مرات أبحث عن نفسي التي تشملها الحيرة وتتوزع بين المواقف وتصطدم بأحوال العباد من الأهل والجيران. أكلت مع الثوار وشربت ونمت على الأرصفة مرات وفي الخيمات مرات وسهرت ليالي كثيرة طوال مارس وأبريل من عام الثورة الذي لا يزال ينضح بطعم العيد ويفوح بالفرح، ويطلق شرار الأسئلة وإن كان الشباب جميعًا تأكل عقولهم تروس الفكر والغضب

والحيرة وهم يرون كل خيوط الثورة تسحب من بين أيديهم، ويستولي على الميادين والصحف والقنوات التليفزيونية أناس جدد يتشدقون بالكلمات الصارخة ويلوكون مصطلحات سياسية وثورية تجتذب الجماهير إليهم من فرط غرابتها وتلونها.

أما الإخوان المسلمون والسلفيون ذوو اللحي الطويلة والكثيفة التي قد تبلغ البطون أحياناً فهم يصلون ويجولون ويفرضون كلمتهم شرقاً وغرباً بالحق والمنطق أو بالآيات القرآنية أو بالعصي والضرب أو بالأموال والعطايا.

أنا غريب ولا أنتمي لأحد من هؤلاء ولا حتى حركة 6 أبريل التي تصارع الأمواج بلا طائل ودون خبرة، والبعض من رجالها بالكاد يمسك ببعض القطع الخشبية الطافية على السطح بعد غرق معظم السفن، وبعضهم استطاع أن يأخذ سبيله إلى القنوات الفضائية لكنه يعامل بتهميش كاليتيم على مائدة اللثام المحترفين.

لا بد من وظيفة. لا بد من الانتماء لأي شيء ما دام الأدب الآن والمسرح بشكل خاص متعثراً الخطى. مضرب الرؤية. فقد الآباء والرعاة والمنابر ولا يعيره أحد اهتماماً سواء على المستوى الرسمي أو الأهلي.

بحشت عن وظيفة. لم أجد... وعدني أبي أن يتحدث إلى صديقه المدير بإدارة الكهرباء لتعييني مؤقتاً.. قلت له:

- أي عمل.. المهم ألا يكون ضمن فريق قراءة العداوات أو التحصيل.

وعده المدير بالاهتمام والسعي لدى وكيل الوزارة. وافق الوكيل على إلحاحي بالعمل بنظام اليومية أي بدون قرار أو عقد، كأني أعمل مع بناء أو مبلغ. اليوم الذي أحضر فيه وأعمل أتقاضى خمسة عشر جنيهاً وما لم أحضره لا يحتسب. لم تعجبني الفكرة وكذلك لم تعجب أبي وقال:

- الرأي لك.

قصصت على أصدقائي الحكاية. كان الرد واحداً:

- اقبل أو دعها لنا.

قلبت الفكرة في رأسي. رأيت أن أقبل.. طلب مني المدير بعض الأوراق الشخصية ثم أرسلني إلى أحد الموظفين الذي ألحقني حسب رغبتني كأخصائي كومبيوتر.. بدأت العمل بصعوبة فقد اكتشفت أن أصابعي متجمدة. مضيت أضرب على الكي بورد وأفتح ملفات وهمية وأكتب بعضاً من أشعاري التي أحفظها كلما وجدت فراغاً. بعد يومين تقريباً أمكنني أن أستعيد لياقتي.. لم أكن أتوقع أن تكون للوظيفة شبه التافهة تلك القدرة على أن تشغلني قليلاً عن همومي وتخفف عن عقلي هجمة التفكير المتواصل والحيرة الدائمة، لكنها

لم تصرفني عن المشكلة تمامًا. الغموض الشديد أثار لهفتي أكثر على معرفة الحقيقة والركض خلفها.

تعرفت في العمل على عدد من الشباب. ارتحت لواحد أكثر من الباقين.. ربما يكبرني بسنوات قليلة لكنه يتمتع بالطيبة والبراءة.. لا يتدخل في شئون تخصص الآخرين. التقيت بمازن كثيرًا خارج العمل وسرنا طويلًا معًا وتبادلنا الساندوتشات والسجائر والكتب. أبدى سعادته بالتعرف عليّ. تعرفي عليه قلل من حجم العبء الثقيل الذي يجثم على صدري لكنه لم يجذبني بعيدًا عن هدف عمري. يبدو أن الله يعالج معاناة الناس بأساليب ناعمة. أمه لبنانية.. سيدة جميلة وأنيقة. رأيتها عندما أصر على مرافقته إلى بيته لإطلاعي على محاولاته الشعرية، وعرض عليّ رسومه. صارحته بالحقيقة:

- رسومك أفضل.

- قال في شبه ابتهاج خفف عني الحرج:

- تصور أنا أيضًا أشعر أنني في الرسم أفضل وهذا أيضًا رأي أمي وأخي زياد.

توفي أبوه منذ سنوات.. اضطررت في مرة أن أحكي له حكايتي. سألته رأيه فيما جرى وهل ثمة حل؟.. ابتلع ريقه ثم قال:

- لي أخ ملازم أول في قسم شرطة الخليفة.. ما رأيك أن نسأله؟

سألت نفسي:

- ألم أكن أريد أن أبلغ الشرطة وتخوفت من اللا جدوى.. ربما حين أسأل ضابطًا أعرفه ولو عن طريق زميلي قد يبدي بعض الاهتمام أو يفتح نوافذ للتصرف.

سألت مازن:

- هل تتصور أن زيارة كهذه يمكن أن تثمر؟

- لن نتعب ولن ننفق مليمًا، ولا نخاب من استشار.

استمع أخوه الملازم أول زياد إلى الحكاية وسأل عن بعض الأمور فأجبتُه وكانت أغلب الإجابات تكشف جهلي.

غاب عنا لحظات ثم عاد ليقول:

- هيا معي إلى سيادة المأمور.

سألت في دهشة:

- المأمور.

- نعم العقيد صفوت.. أبدى اهتمامًا بالمسألة ويريد أن يعرف المزيد لعله يستطيع الحل.

استقبلنا العقيد، وسأل:

- ما اسم الفتاة؟

قلت لنفسي بماذا يفيد اسم الفتاة؟.. المهم كيف نعرف مصيرها، لكنني أجبت:



- ريم مرسي الجميل.

ضحك العقيد وأحنى رأسه وعبث بقطاعة ورق. قال وكأنه يحدث

نفسه:

- المرسي صبحي الجميل.

لم أجسر على سؤاله عن سر ضحكته. بعد لحظات قال:

- رئيس قسم المشتريات بالمحافظة.

- تعرفه حضرتك.

- كان زميل تختة.

- إذن تعرف رمضان الورداني.

- رئيس قسم التوثيق بالشهر العقاري.. كان أيضًا زميل تختة.

- والدي.

هز رأسه..

شعرت ببعض الراحة بعد أن انفتحت نافذة مهمة.. قلت:

- أتشرف بالاسم.

- صفوت الشامي.

سألته:

- ماذا ترى؟

- مرسى الجمل نقطة البداية.. هو صحيح اختلف وضعه عن ذي قبل، وسكن العلالى، ويمتلك عدة شقق وله أسهم كثيرة في عدد من الشركات لكن لا شيء يتعذر على الشرطة.

- كيف نجعله يفيض بما لديه من معلومات؟

- لا بد من بلاغ من شخص تهمة ريم جدًا.. قريب من الدرجة الأولى أو الثانية على الأكثر.

- أقرب شخص هو خالها شهدي حسين البنهاوي صاحب ورشة ميكانيكا.

كتب العقيد اسمه، وسأل على عنوانه. أمليته عنوان الورشة.

- ربما يرفض تقديم بلاغ.

- سنحاول معه لأن هذا التصرف لا يدخل في اختصاص الشرطة مائة بالمائة.. محاولة ربما لا يتحقق لها النجاح.

لما انتهى النقاش وقفت وشدت بقوة على يدي الرجل الذي بدا فارسًا محبًا للحق. طلب منى أن أترك له رقم تليفوني وأكد على أهمية الكتمان.

في اليوم التالي انطلقت بعد الظهر إلى ميدان التحرير لنواصل تظاهرننا ضد بقايا النظام القديم وتأكيد المطالبة بالكرامة والعدالة الاجتماعية ومحكمة الضباط المسئولين عن قتل الشهداء الذين

تجاوز عددهم الألف شهيد.. فوجئنا جميعًا بشباب ملتحين وغير ملتحين ينتمون لجماعة الإخوان المسلمين يعلقون منصات كبيرة ويزودونها بالميكروفونات واللافتات. يتزايد مع الوقت عدد هؤلاء الشباب حتى بلغ عشرات الألوف. بقيت حتى الغروب مع زملائنا أعضاء الحركة. كانت حركة كفاية قد أقامت منصة هدمها شباب الإخوان، وقمنا نحن بإقامة منصة وتجمعنا حولها بالمشات وصعد إليها الخطباء والسياسيون وتبارى الجميع في التعبير عن أهدافهم وأغلبها كان متماثلًا لكن المنصات العديدة التي أقامها الملتحون من الإخوان والسلفيين كانت غالبية ومسموعة ومحتشدة. شرعت الهواجس تتسلل إلى نفسي وإلى بقية أعضاء الحركة بل ومعظم التيارات السياسية المختلفة. نشبت بعض المعارك الصغيرة.. استشعرت الألم والإجهاد وساورتني المخاوف، كما داهمني الجوع فجأة فعدت إلى البيت على أمل العودة في اليوم التالي.

كانت فوقية زوجة أبي قد أعدت حمامًا محشيًا ودقية بامية ودمعة باللحم وصينية رقاق.. أكلت كما لم أكل من قبل. قلت لها:

- كان يكفي الحمام والبامية، ويوم ثانٍ للدمعة وصينية الرقاق..

لماذا يا غالية؟

قالت أمي:

- خالتك فوقية الله يكرمها قالت ناجي محروم من كل الأكلات، فلا بد نعمل له ما يحبه.

- المفروض أن نوزع الأكلات على الأيام.

قالت السيدة التي رفعت الأنثى مقامات فوق مقامها وأخرجت كل زوجات الآباء:

- الأكل كله لك وحدك فلا تبق منه شيئاً.

- الإنسان مهما كان حجمه معدته تستوعب عبوة طبق واحد.

- كل الآن حتى تشبع وبعد ساعتين كل مرة أخرى.

ضحكت كثيراً وعدت أفكر في خالتي فوقية.. كيف حدث لها ما حدث؟.. كيف أصبحت على هذا النحو الغريب الذي لم يحدث في التاريخ.. هل يمكن أن يتحول الإنسان إلى ملاك؟.. كنت قد سألتها من قبل عدة مرات:

- لماذا أنت مختلفة عن غيرك من زوجات الآباء؟

كانت تجيب على الفور ودون تفكير:

- الست الوالدة هي السبب؟

- كيف؟

- استقبلتني بلا حساسية ولا غيرة أو عداوة، وعاملت أولادي على أنهم أولادها.

- أحقًا يا أمي ما تقول؟

- الفضل في الأصل يرجع لأهل خالتك فوقية.. زرعوا فيها أهمية احترام الزوجة الأولى.. ومع ذلك لم تكن كذلك في السنوات الأولى..

أسرعت فوقية تحتج:

- أنا طول عمري كما الألف يا أم ناجي.

- لا.. كنت دلوعة وتغضبين بسرعة وتسرعني بالذهاب لأهلك..

هل أتجنني عليك؟

قالت فوقية:

- مرة أو مرتان.

- لا أربع.

أسرعت أسأل أمي:

- فماذا يفعل أهلها؟

- ساعتان على الأكثر تجدهم جميعًا قادمين ولا يفتحون الموضوع وتجعد خالتك تدخل المطبخ تغسل وتطبخ وتكلمني بكل المحبة وقلبها الطيب يعمل غصبا عنها.. أنا لي كما تعلم ثلاثة أخوة، منهم أختان فوقية أعز منهم جميعًا.

- ربنا يخليك لنا يا أم ناجي ولا يحرمنا أبدًا منك.

أردت أن أقوم بالوقية بينهما فقلت:

- لاحظت أنكما لا تختلفان على نوم أبي معكما.

اندفعت خالتي فوقية تقول:

- الصراحة أن أم ناجي هي السبب.. إذا قال لها الحاج رمضان  
سأنام عند فوقية الليلة، تقول له: نم حيث تريد.

أسرعت أمي تقول وهي تضحك:

- بالغيظ فيك سأنام في حجرتك الليلة.

وتضحك خالتي فوقية ونحن معها نضحك، بينما تهب لتقول:

- سأصنع لك كوبًا من الشاي بالنعناع لن تنساه أبدا.

- هات له يا فوقية الموز الأول.

- من عيني يا أختي.

جو غريب.. أتخيل إذا شاءت إرادة الله أن أجد ريم ونتزوج هنا  
مع العائلة.. الشقة لا تكفيننا، لكنني أتصور.. الأمانى النبيلة لا تعوقها  
الإمكانيات.. النفوس الكريمة لا تقهرها الحسابات والظروف.

قال مازن إن أخاه زياد أنبأه بدعوة العقيد صفوت لشهدي وحواره  
معه عن ريم، وسأله عن زوجها فلم يجب، وسأله عمن شهد على عقد  
الزواج فلم يعرف، وسأله عن اسم الزوج فلم يعرف وسأله عن سر  
عدم حضوره الحفل أو وداعها في المطار:

- المثل يقول إن الخال والدد... وأنت لم تكن والدًا بأي شكل لابنة أختك التي لا بد تركتها أختك أمانة في عنقك.

بكى شهدي ليس خوفًا من الضابط والقانون، ولكن لاكتشافه أنه مقصر بدرجة مرعبة.. قال له الضابط:

- صحح خطأك.

- ما تأمر به سعادتك.

- تقدم بلاغًا باختفاء ابنة أختك.

حرر شهدي البلاغ المطلوب، وتم تحويل البلاغ للنيابة لتبدأ التحقيق، ولما لم يتقدم مرسي بقسيمة الزواج ولا أي مستند دال على الزواج أو السفر أو اسم الزوج أو عنوانه تم الأمر بحبسه حتى يقدم أي دليل على براءته من أية تهمة موجهة إليه تخص ابنته، في الوقت ذاته تقدم عدد من موظفي المحافظة بمستندات تثبت استغلاله منصبه وتصرفه في أموال المحافظة بالمخالفة للقوانين، بدليل امتلاكه لعدد من الشقق والمساهمة في شركات بما يساوي تسعة ملايين جنيه خلال سبعة أشهر فقط هي عمر توليه إدارة المشتريات.

\*\*\*

## 20

الأسئلة كائنات حية والإجابات تماثيل حجرية يمكن أن تعيش طويلاً.

الأسئلة قادرة على أن تنمو وتلهو وتركض وتحب وتكره وتغرق وتسبح وتطفو وتتلاقح وتتوالد وتتكاثر.. الإجابات لا تملك إلا التحديق في الفضاءات المجهولة.

السريـر الأبيض يقيم في الحجرة البيضاء وبقربه ثلاثة أسرة بيضاء. الملاءات البيضاء تسطع في ضوء قاس يأتي عبر نوافذ زجاجية بيضاء. الأفق الأبيض يحيط بالمكان. النائمون على الأسرة يرتدون الجلابيب البيضاء تلتف بعض أعضائهم حسب الابتلاء الأبيض بالقماش الأبيض القطنى الخفيف، ومنهم من التفت حول رأسه كومات القطن الأبيض ومنهم من غاب ساقه في ماسورة من الجبس الأبيض محكم الالتفاف حول الساق المقهورة والمرفوعة لأعلى بحبل أبيض. وكان واحد فقط أقيمت حول رقبته جدران دائرية من الجبس الأبيض.

انسحب الجزء من الكل وغاب وجود عن وجود.. هكذا كانت ريم ساكنة الحجرة الفسيحة ذات الأسرة الأربعة.



ثلاثة أشهر وهي في سريرها الصابر والمستبد. موثوقة بأسلاك وأنابيب إلى أجهزة حول سريرها الذي قلدها في صمتها من طول الاعتياد. زجاجات المحلول الغذائي معلقة ومتصلة عبر كانيولا في وريدها الممتد في استسلام.. أسلاك زرقاء وحمراء وصفراء متصلة واصلت بين جهاز له مونيتر ومؤشرات عديدة ودماغ ريم، وجهاز متصل عبر أسلاك بسماعات على الصدر. لا تنطق ولا يعرف أحد عنها شيئاً ولا يزورها أحد وهي بين الحياة والموت. القلب بالكاد ينبض. القلب هو الوحيد الذي يبقياها على قيد الحياة وإن كان يعمل بخفوت شديد كأن تشغيله يتم على حرارة قادمة من ضوء شمعة بعيدة.

قد يتحدث واحد من سكان الغرفة وقد يرد عليه آخر وقد يطلب واحد من الممرضة شيئاً وقد يكشف واحد عن آلامه للطبيب إلا ريم. إنها الصامتة أبداً على مدى شهور. مغمضة العينين والشفتين والأذنين. ساكنة اليدين والقدمين. جثة لا علاقة لها بالحياة. قد تتحاور جثة الميت في القبر مع الملائكة، وقد تتحاور مع الدود، وقد تتحاور الجثة في القبر مع الحياة والزمن عبر التحلل الذي يصيب الكفن ويعري الجسد تاهباً للعفن. لكن ريم لا.. لا.

تهجم الأسئلة مع كل زائر وتتجدد كل يوم بين المرضى وبين الممرضات والأطباء وإدارة المستشفى.. من هي؟. ما اسمها؟.. أين أهلها؟. لماذا لا يزورها أحد؟. لماذا ألقيت على هذا النحو ونسيها الجميع؟. إنها لا بد فرع من شجرة حتى لو شجرة صبار أو حنظل،

ولا بد أن أمّا أنجبته من زوج هو أبوها شرعي أو غير شرعي.. لماذا الإهمال الغريب الذي لم نسمع به من قبل ولا حتى أيام الحروب والزلازل والمجاعات والأوبئة ولم تتأخر عن المعاونة هيئات الهلال الأحمر والصليب الأحمر ولا وكالات الإغاثة الدولية بشتى أطرافها؟

قلب رجال مرسى - وهم في الأصل رجال كريمة - الأرض والشقق والمخازن والحارات والأسطح والأوكار والمقاهي وغرز الحشيش بحثًا عن «سن الفيل» الذي كلفه باختطاف ريم واحتجازها في مكان بعيد لعدة أسابيع مقابل خمسة آلاف جنيه على ألا يمسه أي ضرر.. كان معه في الحافلة رقم تلفون هذا اللعين الذي كلفه بالعملية.. لا يعرف مكان ريم غيره بعد أسبوع تلقى مرسى الخبر الذي سيدخله السجن ليقبى فيه حتى نهاية عمره.. لقد مات مبروك الشهير بسن الفيل برصاص حراس أشداء يعملون في حراسة قصر رجل أعمال كبير حاول مبروك ورجاله تنفيذ ضربة العمر بالاستيلاء على محتويات القصر التي لا تقل - حسب الإخباريات التي وفرها من يوثق بهم - عما قيمته عشرين مليون جنيه بين أوراق بنكنوت وألماس وذهب وفضة وتحف فقط. قتله الحراس ودفنوه ومساعدين من رجاله في حفرة تبعد عن القصر بنحو ثلاثين كيلومترا في عمق الصحراء الغربية باتجاه طريق الواحات.

أسقط في يد مرسى الذي اضطر للاعتراف للشرطة بما جرى وبالأبناء التي بلغت كي تتصرف بإمكانياتها وسلطاتها.

انطلقت إشارات واتصالات الشرطة إلى كل المستشفيات والأقسام ومديريات الأمن وأجهزة المرور لعمل الأكمنة والتفتيش عند مداخل كل مدينة.. ناجي الورداني وزياد ومازن على التلفون. الكل تأهب للاتصال بناجي في أية ساعة من ليل أو نهار عندما تبدو في الأفق ولو معلومة خاطئة عن أي شيء يخص ريم.. أخيراً جاء خبر مبهم عن فتاة محتجزة منذ شهر في مستشفى بمدينة 6 أكتوبر بعد تعرضها لحادث وفقدتها النطق. مجهولة الاسم والعنوان ولا يسأل عنها أحد ولم يستدل على أهلها.

طار ناجي وحط على المستشفى واندفع نحو المنسية. كان هو الوحيد الذي يمكن أن يتعرف عليها. هو الوحيد الذي تعرف عليها بعميق إحساسه وهو لا يزال في السيدة عندما تلقى الخبر. لا حدود لثقتة أنها ما زالت تعيش في مكان ما من العالم.. ليست ريم التي تموت في يسر أو بشكل عابر أو لسبب تافه. ريم القوية المحاربة العاقلة المثقفة صاحبة الخيال المجنح. صرخ:

- هي.. هي.. روح روجي..

سقط ناجي عند أقدامها باكيًا حتى أوشك على أن يفقد الوعي.. تنبه لنفسه.. مضى يلعن الجميع الذين يعرف بعضهم ولا يعرف الآخرين، لكنهم كثر.. كلهم شاركوا في عذابها وتشردوا ومعاناتها. كلهم سحلوها ومصوا دماءها ونهبوها وهرسوا شبابها.. كلهم جرفوا موهبتها وابتكارها وأحلامها..

- السفلة.. الكلاب..

عاد ييكي وهو على الأرض.. ييكي ويلطم كالنسوة الثكالي.  
ويعاتب الجميع ويؤنبهم.

- حرام عليكم. ماذا فعلت لكم؟.. حرام والله حرام.. لم تسألوا  
أنفسكم.. ماذا جنت؟.. هل بخلت؟.. هل تنكرت؟.. هل اشتكت؟..  
أنا غبت عنها سنتين وأنا على ثقة أنها ملاك. لا تصدر عنها العيبة  
ولا يبدر منها أي تقصير وليست سبابة ولا لعانة ولا شكاءة.. صبورة  
ومحترمة. حرام عليكم والله حرام.

ملاً رثيته بالهواء، فهدأت نفسه وشرعت بالونة غضبه تهدأ  
تدريجياً.. استجاب للجنود والأطباء الذين أوقفوه.. لم يكن قد تنبه  
إلى دعواتهم إليه بالتوقف عن البكاء..

- احمد ربك. لا زالت حية. أجرينا لها عدة عمليات علاج كسر  
في الحوض والفخذ الأيسر الذي بقي في الجبس شهرين وعلاج كسر  
في الكتف وعظام الترقوة.. ستعيش وتحقق أحلامها. احمد الله.

انطلق يحمد الله ويشكره على فضله.. ويحدث نفسه:

- المهم أنها حية وسوف تعيش وتحقق أحلامها.. أحلامنا.

دنا منها.. مر بأطراف أصابعه على وجهها.. قلبه يشكر الله.  
تراجع ولمس قدميها، لكن جسمه انتفض من جديد وغلبه الشيع  
فمضى ييكي ويقول:

- حرام والله حرام. الحياة مملوءة بقساة القلوب.. أين الرحمة؟.. الحياة كلها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، والإنسان أهم ما في الكون.. الحياة كلها لا تساوي الأظفر الذي يطيره المقص من أصبع إنسان. أين الطبيب يا سيستر لو سمحت؟

- ها هو.

تقدم من الطبيب وسأله عن الحالة. وصفها له. سأله عن العلاج. قال الطبيب:

- هناك مشكلة أكبر من قدرات المستشفى لأن القلب ضعيف جدًا وبعض المراكز في المخ شبه متوقفة وتحتاج إلى نقلها إلى مستشفى كبير لعلاجها. طبعا سوف تقول: ولماذا لم تتصرفوا؟ وأقول لك: نحن لا نعرف حتى اسمها ولا أهلها، وعلى فرض أننا فكرنا في تجاوز الروتين فكيف سنكاتب المستشفيات الأخرى؟

اتجه ناجي إلى النافذة.. تطلع إلى الشوارع الفسيحة الفارغة والضوء الساطع الذي لا يكاد يسمح بالرؤية من قوته. تراجع إلى الوراء خطوات وانتبذ ركنًا بعيدًا وطلب صديقه الصحفي.. قال له:

- خبر رائع يا رجائي.. عثرت رجال الشرطة على ريم.. الحمد لله.. يجب توجيه الشكر الجزيل لهم وإن كان واجبهم، إلا أن ريم بين الحياة والموت وتحتاج إلى علاج مكثف في مستشفى كبير.

قال الصديق:

- سأتصل بأصدقائنا في كل الصحف فورًا.

لم يغادر ناجي موقعه مع ريم. بحث عن مصحف. أحضرته له الممرضة. جلس بالقرب منها ومضى يتلو من السور ما يستطيع. نهض عدة مرات يتأملها ويذكرها بلحظاتهم الجميلة وعملهما المشترك في المسرح وبعض الذكريات.. يحاول إضحакها ودفعها للنطق أو السمع أو تحريك جفونها. مستسلمة تمامًا للغياب. تساءل كيف عاشت شهورًا طويلة وهي في السرير لا تأكل ولا تشرب إلا هذا السائل الشفاف الذي يتسلل إلى دمائها نقطة نقطة. أكد لنفسه أنها ما دامت لا تزال تتنفس وينبض قلبها بعد كل هذه الفترة فهي قادرة بفضل الله على النهوض وممارسة حياتها بشكل طبيعي.

تابع الأخبار التي تتوالى في الصحف عن مصريين وعرب يعرضون استعدادهم لعلاج ريم حتى لو اقتضى ذلك السفر إلى الخارج. سأل ناجي الأطباء عن الحاجة إلى الخارج قالوا:

- لا حاجة للسفر. العلاج في مصر ممكن جدًا.

تحدد يوم الانتقال إلى مستشفى شهير.. نقل الممرضون ريم إلى عربة إسعاف مجهزة بالأجهزة ذاتها التي كانت موثوقة بها على السرير كأنها لم تغادر المستشفى.. بالقرب منها في عربة الإسعاف طبيب وممرضة وناجي وكافة التقارير الطبية.. انطلقت السيارة البيضاء في الطريق الأبيض.. ناجي ينقل نظراته بين الأجهزة وجسد ريم. روحه

لا تفارق وجهها الذي بدا مشرقاً عن ذي قبل، يراوده الأمل في حياة جديدة.

الطريق الأسفلتي ناعم ومستقر تزدرده العجلات في يسر وحماسة. تظهر بعض الحفر البسيطة بين الحين والحين. بدأت في الظهور معالم المدينة العامرة. تدريجياً دنت سيارة الإسعاف من الشوارع المزدحمة. الحركة البطيئة. البثور العالية والمنخفضة تكثر في الطريق.. جنود الشرطة يحاولون دفع السيارات ناحية شوارع بديلة.. سألهم العابرون، قالوا:

- إصلاح بعض المرافق.

مضت السيارة تشق طريقها بصعوبة بين جنبات قافلة هائلة من السيارات المكدسة.. لحظات وانفتح أمام السيارات نفق. وجه الجنود السيارات نحوه. بحث الجميع عن منفذ لمبارحة المناطق المزدحمة. انسابت السيارات إلى داخل النفق المضاء بأنوار صفراء. تقدمت كافة المركبات في يسر داخل عمق النفق الذي تناقصت أضواؤه تدريجياً حتى أصبح مظلمًا وطويلاً جدًا دون أن تبدو له نهاية أو تطل على مجراه نقطة ضوء وحيدة. السيارات تمضي على هدى أضوائها.. الهواء يقل في النفق. البعض يقرأ القرآن ويتمنون الخلاص. عاتب الطبيب سائق سيارة الإسعاف لأنه اتخذ هذا النفق.

تعجب الطبيب وقال وهو مقطب الجبين:

- هذا نفق مظلم ومهجور.

رد السائق:

- إنه تحت الإنشاء وأوشك على الانتهاء.

ضحك الطبيب بمرارة ثم تحول إلى الأجهزة التي كانت تشير إلى أن المريضة تعاني من متاعب. تسحب أنفاسها بصعوبة. النبض يخفت.. يفحص الطبيب أنبوب الأوكسجين. يدلك ناجي يد ريم ويخبط برقة على خديها. يتوجه إلى الله بعيون دامعة أن يحفظها وينعم عليها بالشفاء. يداه ترتعشان مع ازدياد لهفته وقلقه عليها. يدلك أصابع قدميها. تحدثه نفسه:

- ماذا أنت قائل لها إذا سألتك عما جرى للثورة؟

- سأسألها بالتالي وهل قامت في مصر ثورة؟

أسرع السائق يغلق زجاج السيارة فقد لمح عقرباً كبيراً يتجول فوق الزجاج الأمامي، ثم ظهر عقرب آخر، حاول السائق أن يدفعه بالمساحات. لم يفلح، ظهرت عقارب أخرى كثيرة وركبت سيارة الإسعاف وغطت كل الزجاج. أنوار السيارة تكشف لراكبيها صفوفاً طويلة من العقارب ولا يتأثرون فيما يبدو بدهس السيارات التي يتزايد عددها كلما مر الوقت، الطبيب لا تزال عيناه على الأجهزة وقد لاحظ تحسناً طفيفاً. أشار لناجي وفسر له الحالة. مضى يدلك يد ريم إلى أن لمحوا جميعاً عينيها لأول مرة تنفتح وتتأمل ما حولها.

ابتسم ناجي لأول مرة منذ شهور طويلة وعاد قلبه إلى الحياة التي كان قد غاب عنها.

\*\*\*



## صدر للمؤلف

أولاً: الرواية (18)

- السقف.
- الناب الأزرق.
- أشجان.
- عشق الأخرس.
- شقيقة وسرها البائع.
- موسم العنف الجميل.
- عصر واوا.
- بذور الغواية.
- حكمة العائلة المجنونة.
- الحمامة البرية.
- روح محبات.
- رتق الشراع.
- قبلة الحياة.
- أبق الباب مفتوحاً.
- كسبان حته.

- المفتون.
- نساء وألغام.
- رجل الغابة الوحيد.

ثانيا: مجموعات القصص القصيرة (13)

- عقدة النساء.
- كلام الليل.
- العجز.
- غسل الشمس.
- شدو البلايل والكبرياء.
- الغندورة.
- زهرة البستان.
- قناديل.
- رائحة الوداع.
- سوق الجمعة.
- حدثني عن البنات.
- ميلاد في التحرير.
- كلب بني غامق (مترجمة).

ثالثا : الدراسات: (12)

- شيخ النقاد «محمد مندور».
- عاشق الحرية «إحسان عبد القدوس».
- كاتب العربية الأول «نجيب محفوظ».

- أدب الرحلة في التراث العربي.
- رؤية تمهيدية لرعاية الموهوبين.
- كيف تختار زوجتك ؟
- صناعة التقدم في مصر.
- فن كتابة القصة.
- ثقافة المصريين.
- تجليات القلب المضيء.
- سهيل الكتابة.
- صلاح جاهين روح مصر الشاعرة.

#### رابعاً: روايات وقصص للأطفال (6)

- مغامرة في الهرم.
- مدينة الدخان.
- التوأم الرائع.
- الساحرة والملك.
- ذقن الباشا .. خط أحمر.
- الولد الذهبي «مجموعة».

#### خامساً : عشرات المقالات الثقافية والسياسية والاجتماعية

عن أحوال مصر والعالم العربي

التقدير والتكريم

- ورد اسمه مع بيان بأعماله في موسوعة « الشخصيات القومية البارزة » إصدار الهيئة العامة للاستعلامات

- ورد اسمه مع بيان بأعماله في موسوعة «أعلام الفكر العربي» إصدار مكتبة مصر.
- ورد اسمه وبيان بأعماله في «موسوعة أعلام القليوبية».
- ورد اسمه مع بيان بأعماله في «قاموس الأدب العربي الحديث»، إصدار دار الشروق.
- حاز كأس القباني لأفضل مجموعة قصصية عام 1979 .
- حاز جائزة نجيب محفوظ للرواية في الوطن العربي، من المجلس الأعلى للثقافة عام 1994 .
- حاز جائزة الدولة للتفوق في الآداب عام 2004 .
- حاز جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام 2010 .
- حاز جائزة الطيب صالح في القصة القصيرة عام 2011 .

# دولة العقرب

تفتن الشياطين المرتدون ثياب البشر في تعذيب ناجي في المعتقل ونقلوه بين سجون عديدة ، من بينها سجن العقرب الرهيب ، ربما ليضلوا أهله أو يمسحوا بهم تراب الطرقات ويبللوا بعرق قلوبهم كل وسائل المواصلات . في تلك الأثناء كان ناجي يرسل الرسائل الكثيرة لريم دون أن تتسلم منها حرفاً واحداً . لم تكن تعلم ما السبب وما السر في هذا الاختفاء . ساورها بالحاح كابوس قرر أن يفتنعا لتصدقه بأن ناجي قتل وتم عجنه مع الأسمنت والرمل في خلاطة ثم صبه في قاعدة مبنى جديد لمباحث أمن الدولة كجزء من الخطة التي تستهدف أن يكون في كل حي مقر حفاظاً على الوقت وحتى لا يتعب الضباط ولا أهالي المعتقلين .

ريم جميلة مثل زينب أمها التي تيمها الغرام بنبييل.. أما ما حدث من مرسى فقد فاق كل التصورات وصدم كل المشاعر وزلزل شخصيتها وبذلها كما تبدل هو ذاته. تصرف مجنون وغير محسوب بالمرّة قلب كل الموازين والثوابت وجر جر عدداً من شخصيات العائلة والحي إلى مهاو كثيرة ومفجعة.

فؤاد قنديل، روائي من نوع خاص، تتداخل في لغته واقعية الحياة وخيال الإبداع، فتصل إلى آخر نقطة في العقل وأول نبضة في القلب، أحدث رواياته " دولة العقرب" وقد صدر له عشرات الروايات؛ منها: السقف - الناب الأزرق - روح محبات، وقد حاز العديد من الجوائز؛ مثل: جائزة نجيب محفوظ في الرواية 1994، جائزة الدولة للتفوق في الآداب 2004، وجائزة الدولة التقديرية 2010، وجائزة الطبيب صالح 2011.

